ISSN : 2959-118X

المجلة اللبنانية للعلوم والأبحاث

Lebanese Journal of Science and Research (LJSR)

العدد الثاني - ذو الحجة ١٤٤٤هـ. تموز ٢٠٢٣م

الجمعيّة اللبنانيّة للعلوم والأبحاث
Lebanese Association for Science and Research

النسخة الإلكترونية

مجلة علمية فصلية محكّمة

تصدر عن الجمعية اللبنانية للعلوم والأبحاث (LASR)

الجمعيّة اللبنانيّة للعلوم والأبحاث
Lebanese Association for Science and Research

المجلة اللبنانية للعلوم والأبحاث

Lebanese Journal of Science and Research (LJSR)

العدد الثاني - ذو الحجة ١٤٤٤هـ. تموز ٢٠٢٣م

ISSN : 2959 - 118X

مجلة علمية فصلية محكّمة تصدر عن الجمعية اللبنانية للعلوم والأبحاث (LASR)

تنشر البحوث الأصليّة والدراسات الميدانيّة في شتّى فروع العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة باللّغتين العربيّة والإنكليزيّة

جميع الأفكار الواردة في المجلة تعبر عن آراء الباحثين وحدهم

الجمعيّة اللبنانيّة للعلوم والأبحاث
Lebanese Association for Science and Research

رئيس التّحرير:
د. صلاح الدين سليم أرقه دان.
نائب رئيس التّحرير:
أ.د. حسين عزات عطوي.
هيئة التّحرير:
د. إبراهيم حسين الموسى.
د. يوسف حسن ديب الجاجية

الهَيئةُ الاستِشَارِيّة
د. إبراهيم الحوت (لبنان).
ـ د. أحمد سيف الدين (لبنان).
ـ أ.د. اسعيدة بنت العربي العثماني (المغرب).
ـ د. حسن تركي عمير الأوسي (العراق).
ـ أ.د. عبد الله محمد صحراوي (الجزائر).
ـ أ.د. سليم هاني منصور (لبنان) .
ـ أ.د. فيصل عبد الله أحمد الكندري (الكويت).
ـ د. محمد امحمد العادل (تركيا).
ـ أ.د. محمد حسان الطيّان (سورية).
د. محمد الجدي (فلسطين) .
ـ د. محمد عبد الكريم عبد الله الهد (السودان).
ـ د. ناصر الدين محمد الشاعر (فلسطين).
ـ أ.د. وجيه يعقوب السيد (مصر).

اقرأ في هذا العدد:

□ التكييف الفقهي للعملات الورقية
■ **الدكتور فتحي بشير البقاعي** **٦**

□ الأحكام الشرعية في ضوء النوازل الفيروسية الطارئة... جائحة كورونا وأثرها في أحكام الزكاة والوقف
■ **د. جهاد حمد حمد** **٢٤**

□ سياق كلمة «أظلم» في النّظم القرآني
■ **عبد البصير عبد المجيد أحمد** **٥٢**

□ الخلاف الاصطلاحي الفقهي في موقف النّحاة من القراءات القرآنيّة
■ **د. يوسف الجاجيّة** **٦٨**

□ دور المسجد النبوي الشريف في تحول ثقافة المجتمع من القبلية إلى الأمة... أهل الصفة أنموذجًا
■ **د. صلاح الدين سليم أرقه دان** **٩٠**

□ نهضة محمد علي ـــ الدولة في خدمة العسكر
■ **د. حبيب البدوي** **١١٤**

□ الميثاق الوطني التركي (ميثاق ملي وأثره في سياسة تركيا الخارجية في العالم العربي ما بعد العام ٢٠٠٠
■ **الدكتور محمد علي عيتاني** **١٣٨**

□ التعليم والتغيير الاجتماعي
■ **د. نوال قاسم يوسف** **١٥٠**

□ التعليم عن بعد: تقنيات التعلم الآلي لفهم التقييم واستنتاجه مع أسباب التقييم السلبي
■ **عمر الكوسا** **١٦٢**

قَوَاعِدُ النَّشر

تقبل المجلة البحوث العلمية المبتكرة في أحد العلوم المذكورة باللغة العربية (حاليًا على أن تتسع للغات أخرى لاحقًا، على أن تحقق الشروط التالية:

١- أن تراعى في المادة المرسلة قواعد البحث العلمي بتوثيق المصادر والمراجع والنصوص، والالتزام بالموضوعية والمنهجية في الكتابة.

٢- ألا يكون البحث قد نشر أو قدم للنشر لأي مجلة، أو مؤتمر في الوقت نفسه، ويتحمل الباحث كامل المسؤولية في حال اكتشاف بأن مساهمته منشورة أو معروضة للنشر.

٣- تراجع المواد المرسلة، من قبل محكّمين، ولا تعاد المادة إلى صاحبها في حالة عدم نشرها.

٤- أن يوضع اسم الباحث وصفته العلمية وعنوانه باللغتين العربية والإنكليزية تحت عنوان البحث مباشرة.

٥- أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على:

- عنوان البحث.
- اسم الباحث ودرجته العلميَّة، والجامعة التي ينتمي إليها.
- البريد الإلكتروني للباحث.
- ملخَّص للدراسة (باللغتين العربية والإنكليزية في حدود ١٥٠ كلمة.
- الكلمات المفتاحية بعد الملخص.

٦- أن يكونَ البحثُ خاليًا مِنَ الأخطاءِ اللغوية والنحوية والإملائيَّة

٧- ينضد البحث على الحاسوب على برنامج (Microsoft Word وتترك مسافتين بين الأسطر.

٨- أن يلتزم الباحث بالخطوط وأحجامِها على النحو الآتي:

- اللغة العربية: نوع الخط (Traditional Arabic) حجم الخط (١٦ في المتن).
- اللغة الأجنبية: نوع الخط (Times New Roman) وحجم الخط (١٤ في المتن).
- تكتب العناوين الرئيسة والفرعية للفقرات بحجم ١٦نقطة مثلها مثل النص الرئيس لكن مع تضخيم الخط.
- أن تكتب الحواشي داخل النص.

٩- كتابة الآيات القرآنية حصرا بالرسم العثماني

١٠- توضع قائمة بالمراجع في آخر البحث على ورقة أو أوراق مستقلة وفق الترتيب الألفبائي.

١١- يُضَمّن البحث المقابل الأجنبي للمصطلحات العربية المستخدمة مرة واحدة عند ورودها لأول مرة.

١٢- أن يرفق صاحب البحث تعريفا مختصرا بنفسه ونشاطه العلمي والثقافي.

تتم جميع المراسلات باسم رئيس تحرير (المجلة اللبنانية للعلوم والأبحاث – LJSR

وترسل بالبريد الإلكتروني إلى: ChiefEditor@derasatwakf.com

lebanesejsr@gmail.com

كَلِمَةُ العَدَدِ

بقلم/ رئيس التحرير

د. صلاح الدين سليم أرقه دان.

هـذا هـو العـدد الثـاني مـن (المجلـة اللبنانيـة للعلـوم والأبحـاث - LJSR، وهـو خطـوة إضافيـة عـلى حـرص وجهـد الإخـوة في التحريـر عـلى العمـل الجـاد الملتـزم بالمعايـير العلميـة والفنيـة لمجلـة محكمـة ناشـئة، تريـد أن تقـوم بدورهـا في خدمـة العلـماء والباحثـين عـلى الوجـه الأكمـل، مهـما كانـت تكلفـة هـذا مـن وقـت وجهـد وتدقيـق؛ خاصـة في ظـروف لبنـان الاسـتثنائية.. فالشـكر موصـول لجميـع الباحثـين والمحكمـين، وكل مـن سـاهم في إخـراج هـذا المولـود إلى النـور..

لا يخفـى عـلى أحـد مـا يـدور في عـالم اليـوم مـن تحديـات تهـب أعاصيرهـا مـن الغـرب باتجـاه الـشرق، ولا تكتفـي بأطروحـات نظريـة، ولكـن تتجـاوز ذلـك لتفـرض مـا تريـد بسـلطة القوانـين المحليـة والدوليـة، مـما يسـتدعي العمـل عـلى تمكـين الهويـة الثقافيـة والوجـود الحضـاري بمـا يقابـل ريـاح الإكـراه العاتيـة بموضوعيـة وعلـم راسـخ، وهـذا هـو واجـب المثقفـين والمفكريـن وأصحـاب الـرؤى الثاقبـة في مؤسسـات المجتمـع المختلفـة، لاسـيما القياديـة والتوجيهيـة..

عـلى الطليعـة مـن أبنـاء أي أمـة التعامـل مـع المتغـيرات الثقافيـة والفكريـة والاجتماعيـة التـي يفرزهـا مـا نلمسـه مـن تسـابق الـدول الكـبرى عـلى فـرض قراراتهـا في شـتى ميادين النشـاط الإنسـاني، وفي مقدمتـه -بطبيعـة الحـال- الفكر والثقافـة التـي تتحـول يومًـا بعـد يـوم إلى مـا يشـبه العقيـدة الواجبـة التـي تنظـر إلى مـن يخالفهـا نظـرة المرتـد، أو مرتكـب المنكـر..

إن الغاية من المجلات المحكمة هو نشر الجديد المفيد البعيد عن التكرار والاجترار، وهذا المعيار سهل في التنظير، ولكنه ليس كذلك عند التطبيق، لما يعنيه من اختيار الجديد المتصف بالاجتهاد لا بالتقليد.. وقد بذل الأساتذة المحكمون والمحررون جهودًا فوق العادة للحكم على المادة العلمية التي تلقيناها قبل أن تسلك طريقها إلى القارئ الكريم، مما يفسر التريث هنا والنصيحة هناك والاعتذار عن النشر هنالك، وكل ذلك حرصًا على أن تحقق المجلة الهدف الذي تبنته والتزمت به.. وعين الأساتذة الساهرين عليها على التقدم والارتقاء في سلم الاعتراف الدولي، وليس الاكتفاء فقط بالحصول على الترقيم الدولي..

العدد الثاني بين يديك، أيها العالم والباحث والطالب، بمواضيعه المتميزة، على أن نرى الأعداد القادمة تترى في خط تصاعدي بما يلبي طموحنا جميعًا بعطاء خلاّق في شتى العلوم والمعارف الإنسانية، التي تهم مجتمعنا المعاصر، وبما يمد الحياة العلمية برافد حيوي ومتميز يتماهى مع المجلات العلمية العريقة، ويفتح ثغرة في جدار رتابة المواضيع والبحوث، ويثري فضاء النقاش وتنوع توجهات المدارس الفكرية؛ طالما كانت أوراق البحث ملتزمةً بالمعايير العلمية الموضوعية.. والله ولي التوفيق.

رئيس التحرير

التكييف الفقهي للعملات الورقية

The Jurisprudentiel Description of Bank-notes

الدكتور فتحي بشير البقاعي[١]

الملخص: البحث يناقش التكييف الفقهي للعملات الورقية المتداولة اليوم، وأهم الأقوال فيها، ثم يردّ على من قال إن العملات الورقية هي أثمان قائمة بذاتها. حيث ينسبون لها أنها مستودع للثروة، ولها رعاية من الحكومات، وتراعي مصالح الناس. وهم يحتجون بالمصلحة والقياس وأن العلة في الذهب والفضة هي مطلق الثمنية. وفي البحث أن قياسهم فاسد، وذلك لفساد بعض شروط العلة ولا يصح القياس إلا بها، وهو ما لم يتحقق لهم. وخلص الباحث إلى ترجيح أن العملات الورقية هي فلوس نافقة (رائجة عُرفاً). مع الإشارة إلى أن العملات الورقية جرّت ويلات على الدول الضعيفة اقتصاديًا فاق أضعاف الابقاء على الذهب والفضة كأثمان.

كلمات مفتاحية: مال، عملة، نقد، علة، فلوس، ثمنية .

Abstract: The research discusses the jurisprudential description of paper currencies that in circulation today, and the most important descriptions about them, and then responds to those who said that paper currencies are self-contained prices. They attribute to it that it is: a storehouse of Wealth, has guarantee from the government, takes into account the interests of the people.

They argue for interest and measurement, and that the reason for gold and silver is the absolute price. In the research, their measurement is invalid because some of the conditions of the reason are corrupted. The researcher concluded that the paper currencies are customarily common (popular money). Noting that, paper currencies have inflicted woes on economically weak countries that exceeded the retention of gold and silver as prices.

Keywords: money, currency, reason, price.

(١)* - الأستاذ المساعد في كلية الآداب والعلوم الإنسانية- قسم الشريعة-جامعة الجنان / طرابلس – لبنان

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله الأبرار وأصحابه الأخيار، أما بعد...

غالباً ما تفتتح الأبحاث بدراسة تاريخية لظهور النقود وكيفية المبادلة للسلع، والحق إن الخوض في هذا لا نفع منه. ولكن المعروف أنه لا استقامة لحياة الناس من دون تبادل للسلع وللخدمات فيما بينهم، وهذا بداية ما يسمى بالاقتصاد . ومن أهم مقومات الاقتصاد: السلعة، والثمن[٢].

والسلع الضرورية التي بها قوام الحياة حازها الإنسان حسب طاقته، ولما كان بحاجة لما عند الآخر، فقد ألهمه الله تعالى سبيلاً للحصول عليها؟ فكان السبيل أن يتخذ الإنسان عينًا مخصوصة -وهو ما يعرف بالنقود- يدفع الناس لإخراج السلع التي في أيديهم وتقديم الخدمات لغيرهم. وكان الذهب هو الحل، قال ابن خلدون:» اعلم أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويمونه في حالاته وأطواره...، وما حصل عليه يد هذا، امتنع عن الآخر إلا بعوض»[٣].

مشكلة البحث: تتلخص مشكلة البحث في التالي:

ما التكييف الفقهي للعملات الورقية؟.

هل العملات الورقية أثمان قائمة بذاتها بديلة للذهب والفضة؟.

أهداف البحث: يهدف البحث إلى دراسة صفة الثمنية وحصرها في الذهب والفضة، ومدى صحة القول إن العملات الورقية أثمان قائمة بذاتها. مع الإشارة للضرر الذي حلّ باقتصاد الدول الفقيرة من ذلك.

أهمية البحث: البحث من الأهمية بمكان لأنه يتناول معيشة الناس اليومية، وقوام حياتهم، ومستقبل أمنهم الاقتصادي.

الدراسات السابقة: هذا البحث تناولته المجامع الفقهية، وكثير من الدارسين ولكن في هذا البحث دراسة أصولية لفساد العلة التي بنى عليها المجيزون للحكم.

خطة البحث: يتكون البحث من مقدمة ومبحثين: المبحث الأول: تعريفات بمفردات البحث والأقوال في التكييف الفقهي للأوراق النقدية. والمبحث الثاني: تقرير عدم قيام الثمنية في الأوراق الورقية، وفيه خمسة أدلة، وخاتمة.

---

(٢) هذا مستمد من علم الاقتصاد الذي يتناول: الانتاج، والتوزيع، والمال، وحاجات الناس. ينظر: سلطان، الدكتور جاسم. خطوتك الأولى نحو فهم الاقتصاد. أم القرى للترجمة والتوزيع- الطبعة الثانية، ١٤٣١ه-٢٠٠٩م. ص١٨-١٩.

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي(٨٠٨هـ). المقدمة (مقدمة كتاب): العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر . دار القلم-بيروت. الطبعة الأولى، ١٩٧٨م. ص٣٨٠.

تمهيد

في نهاية القرن الماضي وتحديدًا يوم الاثنين الموافق للسابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٩٧ للميلاد[٤]، شهدت الأسواق المالية لدول جنوب شرق أسيا -وكانوا يعرفون بالنمور الأسيوية[٥]- انهيارًا كبيرًا، حيث بدأت الأزمة من تايلند، ثم انتقلت إلى بقية دول المنطقة وذلك حينما سجلت أسعار الأسهم فيها معدلات منخفضة. ويرجع المحللون سبب هذه الأزمة إلى أسباب كثيرة، ولكن القاسم المشترك فيها: المضاربة على عملات هذه الدول مما أدى إلى انهيارها. ومع أن ملامح المؤامرة واضحة للعيان في هذه الأزمة، إلا أنني سأكتفي بالحديث عن القاسم المشترك الذي ذكرته والذي دمّر اقتصاد تلك الدول. وماذا لو كانت عملة هذه الدول من الذهب؟ هل كان سيتضرر اقتصادها كما حصل؟. ففي إبريل سنة ٢٠٠٩ وأمام حشد كبير من طلاب جامعة بكين، خاطب رئيس وزراء ماليزيا السابق مهاتير محمد الحضور قائلاً : «إن السبب المباشر لأزمة ١٩٩٧ كان التلاعب الكبير بالعملات من طرف المضاربين في السوق المالية. لقد أدى هذا التلاعب إلي فقدان عملتنا المحلية لقيمتها وضعف قوتها الشرائية، تجارة العملات يجب أن تقتصر على التمويل التجاري فقط كما يجب على البنوك أن تحدد سقف للإقتراض»[٦]. والمعلوم أن العملات الورقية من الأمور الطارئة على الاقتصاد العالمي، وهذه العملات تختص بكل دولة على حدة، مما يعني أنها تعكس اقتصاد البلد المصدر لها. هذا الأمر يبدو جيدًا للوهلة الأولى، ويدغدغ عواطف الوطنيين الغيورين على استقلال بلادهم، ولكن هذا الأمر أيضًا كان السيف المسلط على رقاب اقتصاديات الدول الفقيرة دائمًا. فحماية العملة أمام المضاربات العالمية لا تتحمله الاقتصادات الضعيفة.

ومع فرض التعامل بالعملات الورقية جبرًا، إلا أن المجامع الفقهية تبنّت القول إن العملات الورقية أثمانًا قائمة بنفسها[٧]، وكان من أهم دوافع اجتهادهم شيئان: الأول: عدم ظهور مفاسد العملة الورقية آنذاك. والثاني: اعتقاد المصلحة فيها[٨]. ومن المعروف أن اعتماد العملة الورقية كوسيط للتبادل التجاري قد أُقرّ بسطوة الدول الكبرى المهيمنة[٩].

ومقررات مؤتمر بريتون وودز (Bretton Woods) ١٩٤٤ للميلاد، كانت نقطة تحول للاقتصاد العالمي، فقد تعهدت أمريكا حينها بالحفاظ على عملتها مستقرة مع تغطية ذهبية، وتعهدت الدول الباقية باعتماد الدولار كعملة للتجارة العالمية[١٠]. وكانت كل عملات الدول نائبة عن رصيد

(٤) ينظر: قوناش، أنور هاقان، بحث بعنوان: (أزمة شرق آسيا): عبر لبلدان منظمة المؤتمر الإسلامي. مجلة التعاون الاقتصادي بين الدول الإسلامية-٢٠٠١. ص٨٧. منشورة على موقع https://jecd.sesric.org/. تاريخ الاطلاع ١٥ تموز ٢٠٢٢م.

(٥) النمور الأسيوية مصطلح ظهر قبل ثلاثين عامًا للإشارة للنمو الاقتصادي الكبير الذي تشهده : سنغافورة وتايوان وهونج وكونج وكوريا الجنوبية .

(٦) نقلاً عن موقع إسلام أون لاين https://islamonline.net/، تاريخ الاطلاع ٢٠ أيلول ٢٠٢٢.

(٧) ينظر: قرار المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة في دورته الخامسة، العدد (١/ ١٩٣) ؛ ومجمع الفقه الإسلامي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي، قرار رقم (٢١)٣/٩ (ص٤٠) ؛ وفتوى هيئة كبار العلماء بالسعودية قرار رقم: ١٠، تاريخ ١٦/ ١٣٩٣/٤ هـ في موضوع الأوراق النقدية (مجلة البحوث الإسلامية ١/ ٢٢٠).

(٨) المرجع نفسه.

(٩) ينظر: منيع، عبد الله بن سليمان. الورق النقدي تاريخه، حقيقته، قيمته، حكمه. د ن، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ه-١٩٨٤م. ص٣٠-٣٢.

(١٠) لهذه الاتفاقية نتائج كثيرة أهمها: تأسيس مجموعة البنك الدولي (WBG) وتأسيس صندوق النقد الدولي (IMF).

ذهبي مودعًا في بنوكها المركزية[١١]. ثم لاحقًا تمَّ فك هذا الارتباط أيام الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون، لدواعي الحرب سنة ١٩٧١م[١٢]. ولم يقف الأمر هنا، بل أصبح الذهب والفضة من السلع التي تباع نقدًا ونسيئة، ويضارب بهما في الأسواق العالمية؛ مما تسبب بإخراجهما عن كونهما أثمانًا.

وليس المراد من هذا البحث إبطال الزكاة في العملات الورقية، ولا القول إنه لا ربا بالتعامل فيها فضلاً ونسيئة، ولا ما ذكر لازم القول. فالأوراق النقدية تأخذ حكم النقدين في كثير من الأحكام، ولا بأس من اعتماد وسيلة تسهل للناس معيشتهم تكون وسيطاً في التبادل، ولكن ذلك مشروطاً بأمرين: الأول أن يمثل هذا الوسيط قيمة من الذهب أو الفضة، والثاني أن لا يكون محرم العين[١٣].

المبحث الأول: تعريفات بمفردات البحث، والتكييف الفقهي للأوراق النقدي

لا بد من تقديم تعريف للمال عند الفقهاء، مع تعريف النقد (العملة ، والفلوس.

قال ابن منظور عن المال:»ما مَلَكْتَه من جميع الأشياء»[١٤]. وعرّفه ابن الأثير الجزري بقوله:» المال في الأصل: ما يملك من الذهب والفضة، ثم أطلق على كل ما يُقتنى ويُملك من الأعيان»[١٥]. وقد تنوّع نظر الفقهاء للمال باعتبار شموله للمنافع والحقوق، فوجد عندنا اتجاهان: الأول للحنفية، فقد عرّفوا المال بأنه:» ما يميل إليه الطبع ويمكن ادخاره لوقت الحاجة»[١٦]. وشروط المالية عند الحنفية: تموّل الناس كافة أو بعضهم ؛ وإباحة الانتفاع به. قال ابن عابدين:»المالية تثبت بتمول الناس كافة أو بعضهم، والتقوّم يثبت بها بإباحة الانتفاع به شرعًا، فما يباح بلا تموّل لا يكون مالاً كحبة حنطة، وما يتموّل بلا إباحة انتفاع لا يكون متقومًا كالخمر، وإذا عدم الأمران لم يثبت واحد منهما كالدم»[١٧]. وعليه فالمنافع والحقوق لا يدخلون ضمن المال عند الحنفية.

والثاني للجمهور، وقد عرّفوا المال بأنه:» ما كان منتفعًا به «[١٨]. فيدخل عندهم ضمناً المنافع والحقوق، وهذا التعريف أشمل من تعريف الحنفية للمال، بل قد تكون بعض الحقوق أهمّ وأكثر قيمة من بعض الأعيان.

والنقود والعُمْلة بمعنى، ويمكننا صياغة تعريف للنقود حسب فهم غير المعاصرين-سواء أكانوا فقهاء أم اقتصاديين- بأنها: (ما اتخذه الناس ثمناً من المعادن). فالذهب للدنانير، والفضة للدراهم،

(١١) هذا كان حال كل العملات الورقية، فقد كانت نائبة عن رصيد ذهبي مودع في البنوك المركزية للدول.

(١٢) العثماني، محمد تقي. بحوث في قضايا فقهية معاصرة. دار القلم-دمشق. ط ١، ١٤١٩ه-١٩٩٨م. ص١٥٣.

(١٣) الشرط: أن لا يكون محرم العين، هذا متفق عليه بين الفقهاء فالمحرم عينًا ليس مالاً ولا يتقوم بمال، وأما أن يمثل قيمة من الذهب أو الفضة فهذا لأن الأصل في الأثمان كونهما من الذهب أو الفضة.

(١٤) ابن منظور، لسان العرب. ج١١، ص٦٣٥.

(١٥)ابن الأثير الجزري، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد(٦٠٦هـ). النهاية في غريب الحديث والأثر. تحقيق: طاهر أحمد الزاوي و محمود محمد الطناحي. المكتبة العلمية-بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. ج٤، ص٣٧٣.

(١٦) ابن نجيم، زين الدين بن إبراهيم بن محمد(٩٧٠هـ). البحر الرائق شرح كنز الدقائق. دار الكتاب الإسلامي- بيروت. الطبعة الثانية، د. ت. ج٥، ص٢٧٧.

(١٧) ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار. ج٥، ص٤.

(١٨) الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (٧٩٤هـ). المنثور في القواعد الفقهية. وزارة الأوقاف الكويتية-الكويت. الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م. ج٣- ص٢٢٢.)

والنحـاس للفلـوس. وفي عـرف المعاصريـن يمكـن القـول بـأن النقـود: (مـا اتخـذه النـاس ثمنـاً مـن الأوراق)، كالـدولار واليـورو وغيرهـا.

وأما النقد الحقيقي، فيجب أن تتوفر فيه ثلاث خصائص وهي:

الأولى: أن يكـون وسـيطًا للتبـادل. الثانيـة: أن يكـون مقياسًـا للقِيَـم. الثالثـة: أن يكـون مسـتودعًا للـثروة[١٩].

والنقد (العملة)، البنكنوت الورقي الصادر عن الحكومات ثلاثة أنواع:

النقـد النائـب(Representative Money، وهـو المغطـى بالذهـب والـذي يعـبر بصـدق عـن رصيـد مـن الذهـب موجـود في خزائـن الدولـة. وقـد توقـف العمـل بـه منـذ سـنة ١٩٧١م[٢٠].

نقد الثقة، ويكون عند زيادة طباعة الأوراق النقدية لحاجة دولة ما ثقةً بقوة اقتصادها.

النقـد الإلزامـي(Fiat Money)، المتعـارف عليـه في كل الـدول اليـوم، وهـو النقـد الجـبري الـذي فرضتـه أمريـكا وغيرهـا مـن الـدول بالقـوة، ومنعـت اسـتبدال الذهـب بالعملـة الورقيـة[٢١].

وأمـا الفلـوس فهـي جمـع كـثرة ومفردهـا فَلْـس، و»أفْلَـسَ الرّجـل، قالـوا: معنـاه صـار ذا فُلـوسٍ بعـد أن كان ذا دراهـم»[٢٢].

وهـي النقـود المعدنيـة المضروبـة مـن غـير الذهـب والفضـة، كالنحـاس أو مـن غـيره، والغـرض منهـا تجزئـة العملـة السـائدة إلى أجـزاء لتسـتخدم في بيـع وشراء أمـور ليسـت ذات بـال، وقـد تختلـف قيمـة الفلـس صعـودًا ونـزولاً.

والتعامـل بالذهـب والفضـة قديـم، وفي الإسـلام أقـرّ اسـتخدامهما كمعيـار للتعامـلات وكقيمـة للسـلع، سـواء أكان الذهـب مضروبًـا أو غـير مـضروب. وكان المسـلمون زمـن النبـوة يتعاملـون بالدنانـير القيصرية، ولم يعرفـوا السِـكة[٢٣] إلا زمـن خلافـة عبـد الملـك بـن مـروان. قـال ابـن سـعد في طبقاته:»أخبرنـا محمـد بـن عمـر قـال: حدثنـي عبـد الرحمـن بـن أبي الزنـاد عـن أبيـه: أن عبـد الملـك بـن مـروان ضرب الدنانـير والدراهـم سـنة خمـس وسـبعين. وهـو أول مـن أحـدث ضربهـا ونقـش عليهـا «[٢٤].

ولا نبعـد إن قلنـا إن البحـث يتنـاول الأمـن الاقتصـادي للشـعوب قاطبـة. فـما يُظـن أنـه نقـد يختـزن الـثروة إذا بـه ورق ملـوّن وهـو عرضـة للـزوال، وهـذا ليـس افتراضًـا بـل حقيقـة وقعـت في عـدة دول.

والاجتهـاد جـارٍ بـين العلـماء في حكـم مـا يحتمـل الصحـة وعدمهـا، ولكـن لا تجتمـع الأمـة عـلى اجتهـاد فيـه خطـأ ؛ وذلـك لعصمـة أمـة محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم[٢٥]. والمعـروف أنـه لا إجـماع

(١٩) شبير، الدكتور محمد عثمان. المعاملات المالية المعاصرة في الفقه الإسلامي. دار النفائس-بيروت. الطبعة السادسة، ١٤٢٧ه-٢٠٠٧م. ص ١٤٩.

(٢٠) قلعـه جـي، الدكتـور محمـد رواس، المعامـلات الماليـة المعـاصرة في ضـوء الفقـه والشريعـة. دار النفائـس- بـيروت. الطبعـة الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٠م. ص٢٨-٢٩.

(٢١) شبير، الدكتور محمد عثمان. المعاملات المالية المعاصرة في الفقه الإسلامي. ص١٦٠.

(٢٢) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا(٣٩٥هـ)معجم مقاييس اللغة. تحقيق : عبد السلام محمد هارون دار الفكر-بيروت. الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. ج٤، ص٤٥١.

(٢٣) قال الجوهري:»سِكَّةُ الدراهم: هي المنقوشة»(الجوهري، الصحاح، ج٥، ص٢٧٧ .

(٢٤) ابـن سـعد، أبـو عبـد اللـه محمـد بـن سـعد بـن منيـع (٢٣٠هـ).الطبقـات الكـبرى. تحقيـق: محمـد عبـد القـادر عطـا. دار الكتـب العلمية-بـيروت. الطبعـة الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م. ج٥، ص١٧٧.

(٢٥) جـاء في تيسـير التحريـر، لأمـير بادشـاه الحنفـي (٩٧٢ هـ في دليـل عصمـة أمـة محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم:»(ومن الأدلـة السـمعية آحـاد أي أخبـار آحـاد (تواتـر): منهـا أي مـن جملـة مضمونهـا قـدر هـو (مشـترك منهـا «لا تجتمـع أمتـي عـلى الخطـأ » ونحـوه مـما يـدل عـلى خلاصـة مضمونـه) كثـير، ... والقـدر المشـترك هـو: عصمـة الأمـة عـن الخطـأ». أمـير بادشـاه، محمـد أمـين بـن محمـود (٩٧٢ هـ). تيسـير التحريـر. مطبعـة البـابي- مـصر. د ط،١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م. ج٣، ص٢٢٨.

في تكييف النقود الورقية، بل الخلاف فيها متشعب. فقد اختلف العلماء المعاصرون في التكييف الفقهي للنقود الورقية، على خمسة أقوال[٢٦]، وأهمها قولان:

القول الأول: أن النقود الورقية أثمان عرفًا، كالفلوس في طروء الثمنية عليها، وهو قول كثير من العلماء منهم: أحمد الخطيب، وأحمد الزرقا، وعبد الله البسام، والدكتور محمود الخالدي، والقاضي محمد تقي العثماني وغيرهم. ويوجه أصحاب هذا القول رأيهم بأن الأوراق النقدية عملة رائجة أعيانها بما رُقم عليها رواج النقدين بقيمتها المرقومة عليها وليست ذهباً ولا فضة، وإنما هي كالفلوس[٢٧]. قال القاضي محمد تقي العثماني:» ....أن النقود الورقية لم تبقَ الآن سندات لديون في تخريجها الفقهي، وإنما صارت أثماناً رمزية يعبر عنها الفقهاء بكلمة «الفلوس النافقة» ...»[٢٨].

القول الثاني: الورق النقدي نقد قائم بذاته، كقيام النقدية في الذهب والفضة، يجري عليه ما يجري على الذهب والفضة من أحكام نقدية، ويعتبر كل نوع جنسًا مستقلاً. وهذا قول كثير من العلماء المعاصرين، وهي فتوى هيئة كبار العلماء في السعودية، والمجمع الفقهي بمكة ؛ ومجمع الفقه الإسلامي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي[٢٩].

جاء في خلاصة قرار هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية التالي: «قرر المجلس بالأكثرية ما يلي: بناء على أن النقد هو كل شيء يجري اعتباره في العادة أو الاصطلاح، بحيث يلقى قبولاً عامًا كوسيط للتبادل... وحيث إن الورق النقدي يلقى قبولاً عامًا في التداول، ويحمل خصائص الأثمان من كونه مقياسًا للقيم ومستودعًا للثروة، وبه الإبراء العام... وحيث إن القول باعتبار مطلق الثمنية علة في جريان الربا في النقدين هو الأظهر دليلاً، والأقرب إلى مقاصد الشريعة... وحيث إن الثمنية متحققة بوضوح في الأوراق النقدية؛ لذلك كله فإن هيئة كبار العلماء تقرر بأكثريتها: أن الورق النقدي يعتبر نقداً قائمًا بذاته كقيام النقدية في الذهب والفضة وغيرها من الأثمان، وأنه أجناس تتعدد بتعدد جهات الإصدار»[٣٠].

المبحث الثاني: تقرير عدم اعتبار الأوراق الورقية أثمانًا قائمة بنفسها

من نعم الله علينا العقل السليم، وهذا العقل يحكم بأنه لا بدّ من وجود شيء ثابت تقوّم به المتغيرات، ولا تستقيم الحياة إلا بهذا، وخلافه الفوضى الرافعة للقوي والمدمرة للضعيف. وليس من قبيل المصادفة أن البشرية جمعاء اعتمدت الذهب والفضة ثمنًا للأشياء. وذلك لأنهما معدنان قابلان للكنز واختزان الثروة، ويبقيان على الزمن. وهما قيماً للمتلفات، فهما أثمان بالخِلقة، وهما أصل الثمنية، وهما النقدان الشرعيان. قال ابن خلدون:» ثم إن الله تعالى خلق الحجرين

(٢٦) ينظر: أبحاث هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية. المصدر: موقع الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء. و«النقود .. وظائفها الأساسية وأحكامها الشرعية» للدكتور علاء الدين زعتري (ص: ٣٢٩ وما بعدها.

(٢٧) ينظر: المرجع نفسه لأبحاث هيئة كبار العلماء.

(٢٨) العثماني، محمد تقي. بحوث في قضايا فقهية معاصرة. ص ١٦٠-١٦١.

(٢٩) ينظر: قرار المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة في دورته الخامسة، العدد (١/ ١٩٣) ؛ ومجمع الفقه الإسلامي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي، قرار رقم (٢١)٣/٩ (ص٤٠) ؛ وفتوى هيئة كبار العلماء بالسعودية قرار رقم: ١٠، تاريخ ١٦/ ١٣٩٣/٤هـ في موضوع الأوراق النقدية (مجلة البحوث الإسلامية ١/ ٢٢٠.

(٣٠) المصدر: موقع الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء . هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية.
http://www.alifta.com. حكم الأوراق النقدية. المجلد الأول، إصدار سنة: ١٤٢٥ه-٢٠٠٤م.

المعدنيين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول، وهما الذخيرة والقنية لأهل العالم في الغالب. وإن اقتني سواهما في بعض الأحيان فإنما هو لقصد تحصيلهما بما يقع في غيرهما من حوالة الأسواق التي هما عنها بمعزل، فهما أصل المكاسب والقنية والذخيرة»[٣١]. ولا يبعد بنا القول، إن الله تعالى علّم آدم عليه الصلاة والسلام أن الذهب والفضة أثمان، كما قال الله تعالى:﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾[البقرة:٣١]. فقد روى الطبري عن ابن عباس ومجاهد قولهما:»علمه اسم كل شيء»[٣٢]. ولفظ (كل من ألفاظ العموم فيدخله تحته النقدين.

ولم يخطر بخلد أحد من العلماء قبل ستين عامًا أن يعطل النقدين، نعم ظهرت العملة الورقية قبل ذلك ولكنها كانت نائبة عن رصيد ذهبي. قال المقريزي عن الذهب والفضة :»لا يعلم في خبر صحيح ولا سقيم عن أمة من الأمم ولا طائفة من طوائف البشر أنهم أتخذوا أبداً في قديم الزمان ولا حديثه نقداً غيرهما»[٣٣]. وقال البهوتي عنهما :» وهما الأثمان، فلا تدخل فيها الفلوس ولو كانت رائجة»[٣٤] .

وقال السّرخسيّ: «الذّهب والفضّة ثمنٌ بأصل الخلقة، فالتبر والمضروب في كونه ثمناً سواء»[٣٥]. وثمنية النقدين صفة قارّة ثابتة وليست عارضة معرضة للزوال في أي لحظة، كم هو الحال في النقود الورقية. قال في تبيين الحقائق عن الفلوس النافقة:» ...لأن رواجها [أي الفلوس] عارض باصطلاح الناس فكان على شرف الزوال...»[٣٦]. وجاء في مجلة الأحكام العدلية (الْمَادَّةُ ١٣٠:» النُّقُودُ جَمْعُ نَقْدٍ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ»[٣٧].

ومن أدلة المجيزين القول: (ثقة الناس الكبيرة في التعامل بها؛ لقانونيتها وحماية الدولة لها[٣٨] . فالشاهد على زيف هذه المقولة ما حدث من انهيار للعملة، عربيًا: في العراق وسوريا واليمن والسودان ولبنان، وعالميًا: أندونيسيا وفنزويلا وإيران وسريلانكا و... .

وهذه بعض الأدلة التي تبيّن أن الثمنية محصورة فقط في الذهب والفضة، ولا تتعدى إلى غيرهما:

الدليل الأول: احتج القائلون بأن العملة الورقية أثمان، بالقياس[٣٩]، وعمدتهم الحديث الصحيح الذي رواه عبادة بن الصامت وأبو سعيد الخدري وغيرهما. فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: « الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ، وَالشَّعِيرُ

(٣١) ان خلدون، المقدمة، ص٣٨١.

(٣٢) الطبري، محمد بن جرير بن يزيد(٣١٠ هـ). جامع البيان في تأويل القرآن.تحقيق: أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة-بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م. ج١، ص٤٨٣.

(٣٣) المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي(٨٤٥ه). إغاثة الأمة بكشف الغمة. عين للدراسات والبحوث-القاهرة. الطبعة الأولى. ١٤٢٧ه-٢٠٠٧م. ص١٢٠.

(٣٤) البهوتي، منصور بن يونس بن صلاح الدين(١٠٥١هـ). كشاف القناع عن متن الإقناع. دار الكتب العلمية- بيروت. ج٢، ص٢٢٨.

(٣٥) السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل(٤٨٣هـ. المبسوط. دار المعرفة –بيروت. د. ط. ١٤١٤هـ-١٩٩٣م. ج١٤، ص١٤.

(٣٦) الزيلعي، عثمان بن علي بن محجن البارعي(٧٤٣ هـ). تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق . المطبعة الكبرى الأميرية-القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣١٣ ه-١٨٩٥م ـ ج٣، ص٣١٦.

(٣٧) حيدر، علي خواجه أمين أفندي (١٣٥٣هـ). درر الحكام في شرح مجلة الأحكام. تعريب: فهمي الحسيني. دار الجيل-بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م. ج١، ص١١٧.

(٣٨) ينظر: فتوى هيئة كبار العلماء في السعودية، والمجمع الفقهي بمكة ؛ ومجمع الفقه الإسلامي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي، مرجع سابق.

(٣٩) القياس اصطلاحاً: حمل معلوم على معلوم في إثبات حكم لهما أو نفيه عنهما بأمر جامع بينهما (الغزالي، المستصفى من علم الأصول، ص٢٨٠.

بِالشَّعِيرِ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ مِثْلاً بِمِثْلٍ يَدًا بِيَدٍ ؛ فَمَنْ زَادَ أَوِ اسْتَزَادَ فَقَدْ أَرْبَى الآخِذُ وَالْمُعْطِي فِيهِ سَوَاءٌ »[٤٠]. فقد اتفق الفقهاء على أمرين، أولهما أن الأشياء الستة المذكورة في حديث أبي سعيد الخدري معللة، إلا ما كان من الظاهرية[٤١]، وخلافهم هذا لا يخرم الاجتهاد المستقر. ثانيهما أن علة الذهب والفضة واحدة، وعلة الأعيان الأربعة واحدة . قال ابن قدامة :»واتفق المعللون على أن علة الذهب والفضة واحدة، وعلة الأعيان الأربعة واحدة، ثم اختلفوا في علة كل واحد منهما»[٤٢] . وللفقهاء في علة الذهب والفضة ثلاثة أقوال، وهي:

القول الأول: العلة هي الثمنية الغالبة، أي حَرُم التفاضل والنساء بين الذهب لأنه ذهب، وبين الفضة لأنها فضة، وكذلك حرم النَساء بين الذهب والفضة. وهذا قول مالك في المشهور عنه، والشافعي، والرواية الثانية عن أحمد.

قال في الفواكه الدواني:» وقع خلاف في علة الربا في النقود، فقيل غلبة الثمنية، وقيل مطلق الثمنية»[٤٣]. وقال النووي:» الثمنية علة حرمة الربا في النقد «[٤٤]. وقال ابن قدامة :» والرواية الثانية : أن العلة في الأثمان الثمنية «[٤٥].

القول الثاني: العلة هي الوزن مع اتحاد الجنس، وهو قول الحنفية ورواية عن أحمد. قال الكاساني:» ...لوجود علة الربا وهو... الوزن مع الجنس»[٤٦]. وقال ابن قدامة :» أشهرهن[أي الروايات عن أحمد] أن علة الربا في الذهب والفضة كونه موزون جنس»[٤٧].

القول الثالث: العلة هي مطلق الثمنية، فكل ما كان ثمنًا فإنه يجري فيه الربا، وهو قول المالكية في غير المشهور عندهم، ورواية عن أحمد، واختيار ابن تيمية وابن القيم.

قال في الفواكه الدواني:» وقع خلاف في علة الربا في النقود... وقيل مطلق الثمنية»[٤٨].

والقول الأول هو الراجح، وهو قول الجمهور في هذه المسألة؛ لأن التعليل بالثمنية تعليل بوصف مناسب. وبناء على ما ذكر فالتعليل بالوزن مع اتحاد الجنس، أو بالثمنية الغالبة لا يوجدان في العملات الورقية قطعًا، فهي ليست أثمانًا، وليست من الموزونات أيضًا.

والقول الثالث، وهو ما بنى عليه العلماء المعاصرون فتواهم فقالوا:(... وحيث إن القول باعتبار مطلق الثمنية علة في جريان الربا في النقدين هو الأظهر دليلاً)، والأقرب إلى مقاصد الشريعة[٤٩].

---

(٤٠) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (٢٦١هـ). الصحيح . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي- بيروت . كتاب: المساقاة. باب: الصرف وبيع الذهب بالورق نقدًا. ج٣، ص١٢١٠.

(٤١) ينظر: ابن قدامة، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد(٦٢٠هـ). المغني. مكتبة القاهرة-القاهرة. د. ط. ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م. ج٤، ص٤.

(٤٢) المرجع نفسه، ج٤، ص٥.

(٤٣) النفراوي، أحمد بن غانم بن سالم ابن مهنا (١١٢٦هـ). الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني. دار الفكر-بيروت، دون طبعة. ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م. ج٢، ص٧٤.

(٤٤) النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف(٦٧٦هـ). المجموع شرح المهذب. دار الفكر- بيروت. ج١٠، ص١٧١.

(٤٥) ابن قدامة، المغني، ج٤، ص٥.

(٤٦) الكاساني، علاء الدين أبو بكر بن مسعود بن أحمد(٥٨٧هـ). بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع. دار الكتب العلمية-بيروت. الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م. ج٥، ص١٨٣.

(٤٧) ابن قدامة، المغني، ج٤، ص٥.

(٤٨) النفراوي، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني . ج٢، ص٧٤.

(٤٩) ينظر: فتوى هيئة كبار العلماء في السعودية، والمجمع الفقهي بمكة ؛ ومجمع الفقه الإسلامي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي، مرجع سابق.

وقولهم غير مُسلم به، وذلك لأن هذا القول غير مأثور عن أصحاب المذاهب المتبوعة، وهو عند المالكية: القول غير المشهور، قال في الفواكه الدواني:» وقيل مطلق الثمنية «[٥٠].

ومع الترجيح أن العلة في النقدين هي الثمنية، إلا أن هذه العلة لها شروط، ولا يصح القياس بدونها.

وأركان القياس أربعة: فالأصل الذهب والفضة، والفرع العملة الورقية، والعلة الثمنية، وحكم الأصل أن الذهب والفضة أثمان. والعلة تستخرج تارة لتعدية الحكم ؛ وتارة لمعرفتها فقط وذلك لئلا يُعدى الحكم الى غيرها، ولفوائد سأذكرها. ومن أهم شروط العلة[٥١] التي يعدى بها الحكم الى الفرع: أنْ تكون وصفاً ظاهراً منضبطاً، مناسبةً للحكمِ، صالحةً للتعديةِ، وألا يكونَ الحكمُ وجودياً والوصفُ المعللُ به عدمياً، منعكسة، غير متأخرة عن حكم الأصل، وإذا كانت مستنبطة ألا تعود على أصلها بالإبطال، وألا يعارضها ما هو أقوى منها[٥٢].

والمناقشة هنا في شرطين من شروط العلة لا يوجدان في النقود الورقية: الأول: أن علة الثمنية في الذهب والفضة علة قاصرة، والثاني: أن عود العلة على أصلها بالإبطال يبطل القياس.

أولاً: العلة المتعدية تقتضي إلحاق الفرع بالأصل، والقاصرة تقتضي الجمود على موضع النص هذا من ناحية المفهوم للمتعدية والقاصرة؛ وفي القياس لا بد من صلاحية العلة للتعدية، والقاصرة لا تصلح لذلك. فمناط الحكم وأهم ركن فيه هي العلة، فمن قال إن العملة الورقية أثمان قالوا: العلة هي مطلق الثمنية لا الثمنية الغالبة. ويريدون أن كل ما أتخذه الناس ثمنًا فهو ثمن، وتلحق أحكامه بأحكام الذهب والفضة. فجعل الثمنية مطلقة، يجعلها تتلبس كل شيء اتخذه الناس ثمنًا بينهم . وهم يريدون عموم الحكم لا قصره على محل النص. ويلزم من قولهم: إن الثمنية قائمة في الأوراق النقدية، أن العلة القاصرة غير صحيحة.

ومثال لمعنى عموم العلة وقصْرها، أن الخارج من غير السبيلين لا ينقض الوضوء، فإن العلة فيه مقصورة على محل النص وهو خروج الخارج من المسلك المعتاد وهذا قول الشافعي. وعند أبي حنيفة: ينقض ؛ فإن العلة عنده خروج النجاسة من بدن الآدمي. ومثاله أيضاً، الإفطار بالأكل والشرب في نهار رمضان، فإنه لا يوجب الكفارة عند الشافعي ؛ لأن العلة فيه خصوص الجماع، وعند أبي حنيفة تجب لعموم الإفساد[٥٣]. ولقائل أن يقول: العلة القاصرة المنصوصة صحيحة باتفاق، ولكن العلة هنا مستنبطة، والخلاف معروف فيها؟ فيقال هنا: إن العلة القاصرة: سواء أكانت منصوصة أو مجمعًا عليها[٥٤]، لا خلاف في أنها صحيحة، أي لا تتعدى إلى الفرع، والصحيح أيضًا أن العلة المستنبطة كذلك، والتفريق بين منصوصة ومستنبطة لا يستند إلى دليل قوي. فالعلة في الذهب والفضة مستنبطة وقاصرة ؛ فلا تتعدى إلى غيرهما.

وللعلماء في العلة القاصرة المستنبطة مذهبان:

(٥٠) المرجع نفسه، ج٢، ص٧٤.

(٥١) جعلها الشوكاني في إرشاده أربعة وعشرين شرطًاينظر: الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (١٢٥٠هـ). إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق: أحمد عزو عناية. دار الكتاب العربي- بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م ص١٨٣.

(٥٢) ينظر: الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول. ص١٨٣.

(٥٣) الزنجاني، أبو المناقب محمود بن أحمد بن محمود(٦٥٦هـ)تخريج الفروع على الأصول. تحقيق: د. محمد أديب صالح. مؤسسة الرسالة- بيروت. الطبعة الثانية، ١٣٩٨ه-١٩٧٧م. ص٤٨-٤٩.

(٥٤) العلة المنصوصة هي التي ثبتت بالنص، والمجمع عليها ثبتت بالإجماع، والمستنبطة هي التي ثبتت بغير هذين المسلكين.

الأول: عدم صحة التعليل بها، وهو مذهب أكثر الحنابلة، ورواية عن الإمام أحمد، كما أنه مذهب أكثر الحنفية.

الثاني: صحة التعليل بها، وهو مذهب الإمام الشافعي وأكثر أصحابه، والإمام أحمد وبعض أصحابه، والمالكية.

والمذهب الثاني هو الراجح، قال السبكي:» أطبق الناس كافة على صحة العلة القاصرة وهي المقصورة على محل النص المنحصرة فيه التي لا تتعداه إذا كانت منصوصة أو مجمعاً عليها، كما نقله جماعة ومنهم القاضي أبو بكر في التقريب والإرشاد فيما إذا كانت منصوصة . وجعلوا محل الخلاف في المستنبطة، والذي ذهب إليه الأكثرون منهم: الشافعي والأصحاب ومالك وأحمد والقاضيان أبو بكر وعبد الجبار وأبو الحسين وعليه المتأخرون كالإمام وأتباعه ومنهم المصنف[٥٥] أنها صحيحة معول عليها . وذهب أبو حنيفة وأصحابه وأبو عبد الله البصري والكرخي إلى امتناعها»[٥٦]. وقال التفتازاني في التلويح عن الشافعي:» ...فإنه جعل علة الربا في الذهب والفضة الثمنية، فهي مقتصرة على الذهب والفضة غير متعدية عنهما ؛ إذ غير الحجرين لم يخلق ثمنًا»[٥٧]. وقال ابن مفلح:» العلة في النقدين الثمنية، وهي علة قاصرة لا يصلح التعليل بها في اختيار الأكثر»[٥٨]. وقال الطوفي: «(فلا عبرة بالقاصرة، وهي ما لا توجد في غير محل النص، كالثمنية في النقدين، أي: كونهما أثمان الأشياء في الأصل، فإن هذا مختص بهما، قاصر عليهما»[٥٩].

ولا يشترط في صحة العلة أن تكون متعدية، قال في التلخيص:» ليس من شرط صحة العلة، تعديها عن المحل الذي قدرت علة فيه. هذا ما صار إليه الشافعي ومالك ومعظم المحققين من الأصوليين»[٦٠].

وللعلة القاصرة فوائد، وهي:» معرفة المناسبة، ومنع الإلحاق، وتقوية النص... وزيادة الأجر عند الامتثال لأجلها»[٦١].

والربا يقع بين الذهب المسكوك والذهب المصوغ، وهذا دليل أن العلة الثمنية الغالبة لا المطلقة، قال ابن عثيمين: «وأقرب شيء أن يقال: إن العلة في الذهب والفضة كونهما ذهباً وفضة، سواء كانا نقدين أو غير نقدين، والدليل على أن الربا يجري في الذهب والفضة، وإن كانا غير نقدين، حديث القلادة الذي رواه فضالة بن عبيد ـ رضي الله عنه ـ: «أنه اشترى قلادة فيها ذهب وخرز باثني عشر ديناراً ففصلها فوجد فيها أكثر، فنهى النبي صلّى الله عليه وسلّم أن تباع حتى تفصل»[٦٢].

(٥٥) يقصد البيضاوي صاحب كتاب (منهاج الوصول إلى علم الأصول.

(٥٦) السبكي، علي بن عبد الكافي وولده عبد الوهاب. الإبهاج في شرح المنهاج. دار الكتب العلمية-بيروت . ١٤١٦هـ- ١٩٩م. ج٣، ص١٤٣.

(٥٧) التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (٧٩٣هـ)التلويح إلى كشف حقائق التنقيح. شركة الأرقم بن أبي الأرقم-بيروت.الطبعة الأولى، ١٤١٩ه-١٩٩٨م. ج٢، ص١٥٢.

(٥٨) ابن مفلح،، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج(٧٦٣هـ)الفروع. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة-بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م. ج٦، ص٢٦٤.

(٥٩) الطوفي، سليمان بن عبد القوي بن الكريم(٧١٦هـ)شرح مختصر الروضة. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة-بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م . ج٣، ص٣١٧.

(٦٠) الجويني، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف(٤٧٨هـ)التلخيص في أصول الفقه. تحقيق: عبد الله جولم النبالي وبشير أحمد العمري. دار البشائر الإسلامية- بيروت . ج٣، ص٢٨٤.

(٦١) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي(٧٧١هـ)جمع الجوامع في أصول الفقه. دار الكتب العلمية-بيروت. الطبعة الثانية، ١٤٢٤ه-٢٠٠٣م. ص ٨٥.

(٦٢) مسلم، الصحيح. كتاب: المساقاة، باب: بيع القلادة فيها خرز وذهب.

ومعلـوم أن القـلادة خرجـت عـن كونهـا نقـداً، وعـلى هـذا فيجـري الربـا في الذهـب والفضـة مطلقـاً سـواء كانـا نقـداً أم تـبراً أم حليّـاً، عـلى أي حـال كانـا»[٦٣].

ثانيـاً: عـدم عـود العلـة عـلى أصلهـا بالإبطـال: قلنـا إن علـة النقديـن مسـتنبطة وهـي الثمنيـة، ومـن شروط العلـة المسـتنبطة ألا تعـود عـلى أصلهـا بالإبطـال، قـال الشـوكاني:» إن كانـت مسـتنبطة، فالـشرط أن لا ترجـع عـلى الأصـل بإبطالـه، أو إبطـال بعضـه، لئـلا يفـضي إلى تـرك الراجـح إلى المرجـوح؛ إذ الظـن المسـتفاد مـن النـص أقـوى مـن الظـن المسـتفاد مـن الاسـتنباط؛ لأنـه فـرع لـه، والفـرع لا يرجـع عـلى إبطـال أصلـه، وإلا لـزم أن يرجـع إلى نفسـه بالإبطـال»[٦٤].

ومثـالٌ لعلـة تعـود عـلى أصلهـا بالإبطـال: قـول رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم عـن الصـلاة:« مِفْتَـاحُ الصَّـلاَةِ الطُّهُـورُ وَتَحْرِيمُهَـا التَّكْبِـيرُ وَتَحْلِيلُهَـا التَّسْـلِيمُ »[٦٥]، فمـن أراد الصـلاة يحـرم بقولـه: اللـه أكـبر. ومـن الحديـث فهـم الحنفيـة أن المـراد مطلـق التعظيـم وهـذا يحصـل بقولنـا: اللـه أعظـم، أو اللـه أجـلّ. فيقـال لهـم: هـذه العلـة تعـود عـلى أصلهـا بالإبطـال، لأن الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم قـال:« ...وَتَحْرِيمُهَـا التَّكْبِـيرُ... »، فحَـصَرَ عليـه الصـلاة والسـلام انعقـاد تحريمهـا بلفـظ التكبـير، فمتـى اخترنـا غـيره أبطلنـا حـصره بالتكبـير . وقيـاس العملـة عـلى الذهـب والفضـة ليـس كقيـاس البـيرة المسـكرة عـلى الخمـر، لأن البـيرة تأخـذ حكـم التحريـم مـع بقـاء التحريـم للخمـر. فالفـرع لا يجـوز أن يعـود عـلى أصلـه بالإبطـال؛ لأنـه يلـزم منـه: أن يبطـل هـو أيضًـا ؛ لأن إبطـال الأصـل إبطـال للفـرع. وعليـه فـلا يجـوز أن يكـون الوصـف المعلـل بـه مبطـلاً لحكـم أصلـه ؛ لأن إبطـال الـشيء نفسـه محـال[٦٦]. قـال ابـن النجـار:» لأن الأصـل منشـؤها، فإبطالهـا لـه إبطـال لهـا؛ لأنهـا فرعـه، والفـرع لا يبطـل أصلـه؛ إذ لـو أبطـل أصلـه لأبطـل نفـس»[٦٧]. والمعـروف أن اعتـماد العمـلات الورقيـة كأثمـان قـد أبطـل ثمنيـة الذهـب والفضـة. حتـى أصبـح الذهـب يقـوّم بالـدولار الأمريـكي بـدل أن يقـوّم الـدولار بالذهـب. وكان مـن نتيجتـه القـول: لا زكاة ولا ربـا في الذهـب والفضـة، إذا أصبحـا حليـة أو سـلعة [٦٨]. فانقلـب الأصـل إلى تابـع، وانقلـب التابـع إلى أصـل. وهـذا الإبطـال لم يترتـب فـور اعتـماد العمـلات الورقيـة كأثمـان، ولكنـه آل إليـه بعـد مـدة، والأمـر سـيّان.

الدليـل الثـاني : تعامـل النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم بالدنانـير والدراهـم قبـل البعثـة وبعدهـا، مـع أمـره بكيفيـة التعامـل بالنقديـن. إضافـة الى إقـراره التعامـل بالذهـب والفضـة تـبرًا وسـكة. فمثـال أمـره، مـا روى عثـمان بـن عفـان رضي اللـه عنـه أن رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم قـال: « لاَ تَبِيعُـوا

(٦٣) ابـن عثيمـين، محمـد بـن صالـح بـن محمـد (١٤٢١هـــ). الـشرح الممتـع عـلى زاد المسـتقنع. دار ابـن الجـوزي- الريـاض. الطبعـة الأولى، ١٤٢٢ - ١٤٢٨ هـ. ج٨، ص٣٩٧.

(٦٤) الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول. ص١٨٣.

(٦٥) أبـو داود، سـليمان بـن الأشـعث السجستاني(٢٧٥هـ)السـنن. دار الكتـاب العـربي- بـيروت ـ كتـاب: الصـلاة. بـاب: في تحريـم الصـلاة وتحليلهـا. برقـم(٦١٨. ج١، ص٢٣٨.

(٦٦) ينظـر: العراقـي، ولي الديـن أبـو زرعـة أحمـد بـن عبـد الرحيـم (٨٢٦هـ)الغيـث الهامـع شرح جمـع الجوامـع . تحقيـق: محمـد تامـر حجـازي. دار الكتـب العلميـة-بيروت. الطبعـة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م. ص٥٥٠.

(٦٧) ابـن النجـار، تقـي الديـن أبـو البقـاء محمـد بـن أحمـد بـن عبـد العزيـز (٩٧٢هـ)شرح الكوكـب المنـير. تحقيـق : محمـد الزحيـلي ونزيـه حـماد. مكتبـة العبيكان-الريـاض. الطبعـة الطبعـة الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ م. ج٤، ص٨١.

(٦٨) وهـذا اختيار ابـن تيميـة وابـن القيـم وهـو منسـوب إلى معاويـة والحسـن وإبراهيم والشـعبي واختيار جماعـة مـن الحنابلـة. يقول ابـن القيم: «الحيلـة المباحـة صـارت بالصنعـة المباحـة مـن جنـس الثيـاب والسـلع لا مـن جنـس الأثمـان؛ ولهـذا لم تجـب فيهـا الـزكاة، فـلا يجـري الربـا بينهـا وبـين الأثمـان كـما لا يجـري بـين الأثمـان وفي سـائر السـلع».(ابـن القيـم)، أعـلام الموقعـين عـن رب العالمـين. أبـو عبـد اللـه محمـد بـن أبي بكـر بـن أيـوب(٧٥١ هـ)دار ابـن الجـوزي للنـشر والتوزيـع- المملكـة العربيـة السـعودية. الطبعـة الأولى، ١٤٢٣ ه. ج٣، ص٤٠٧.

الدِّينَـارَ بِالدِّينَارَيْـنِ، وَلاَ الدِّرْهَـمَ بِالدِّرْهَمَـيْنِ »[٦٩]. وأمـا إقـرار النبـي عليـه الصـلاة والسـلام لتعامـل الصحابـة بالذهـب والفضـة تـبراً وسـكةً، فهـذا أمـر لا ينـازع فيـه أحـد، فـما نُقـل خـبر واحـد يفيـد الحظـر. والمعلـوم أن إقـرار النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم حجـة، قـال الجوينـي في الورقـات:» وإقـراره عـلى الفعـل، كفعلـه»[٧٠].

الدليل الثالث: الإجماع الفعلي (العملي واستقرار الاجتهاد

وكذلـك يمكننـا الاحتجـاج عـلى زيـف المقولـة موضـوع البحـث بالإجـماع الفعـلي[٧١]، وباسـتقرار الاجتهـاد.

أولاً: وأمـا الإجـماع الفعـلي مـن الصحابـة وأهـل العصـور بعدهـم عـلى ثمنيـة النقديـن ؛ فدليلـه أنـه لم يُعـرف مخالـف مـن المجتهديـن مـن لـدن الصحابـة إلى الآن قـال غـير ذلـك أو أنكـر. وقـد أُدعـي الاجـماع الفعـلي في أقـل مـن هـذا، فقـد قـال ابـن الهـمام عـن عقـد الاسـتصناع:» ولكنـا جوزنـاه استحسـانًا للتعامـل الراجـع إلى الإجـماع الفعـلي مـن لـدن رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم إلى اليـوم بـلا نكـير»[٧٢]. وكـما مـر معنـا عـن المقريـزي:»لا يعلـم في خـبر صحيـح ولا سـقيم عـن أمـة مـن الأمـم ولا طائفـة مـن طوائـف البـشر أنهـم أتخـذوا أبـداً في قديـم الزمـان ولا حديثـه نقـداً غيرهـما»[٧٣].

ومسـتند هـذا الإجـماع الكتـاب والسـنة، فمـن القـرآن قولـه تعـالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَـنٍ بَخْـسٍ دَرَاهِـمَ مَعْـدُودَةٍ وَكَانُـوا فِيـهِ مِـنَ الزَّاهِدِيـنَ ﴾ [يوسـف:٢٠]. وقولـه تعـالى:﴿ وَمِـنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ مَـنْ إِنْ تَأْمَنْـهُ بِقِنْطَـارٍ يُـؤَدِّهِ إِلَيْـكَ وَمِنْهُـمْ مَـنْ إِنْ تَأْمَنْـهُ بِدِينَـارٍ لاَ يُـؤَدِّهِ إِلَيْـكَ إِلاَّ مَـا دُمْـتَ عَلَيْـهِ قَائِمًـا ...﴾[آل عمـران:٧٥].

ومـن السـنة: الأحاديـث التـي ذكـر فيهـا النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم الدنانـير والدراهـم وهـي كثـيرة جـداً، ثـم إقـراره عليـه الصـلاة والسـلام التعامـل بالذهـب والفضـة كأثمـان. والإجـماع الفعـلي في جـواز، وجريـان التعامـل بالذهـب والفضـة كأثمـان لا ينـازع فيـه أحـد. ولقائـل أن يقـول: أيـن دليـل المنـع في غيرهـما؟. فيقـال لـه: أيـن دليـل الجـواز في غيرهـما؟ فالأصـل حديـث رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم:« مَـنْ أَحْـدَثَ فِي أَمْرِنَـا هَـذَا مَـا لَيْـسَ مِنْـهُ فَهُـوَ رَدٌّ »[٧٤].

ثانيًـا: القـول إن غـير الذهـب والفضـة يمكـن أن يكـون ثمنـاً هـو خـرق لمـا عـرف واسـتقرّ، وذلـك إحـداث لاجتهـاد جديـد. فعندمـا يختلـف المجتهـدون في مسـألة عـلى قولـين ويسـتقر الخـلاف، فهـل يجـوز لمـن بعدهـم إحـداث قـول ثالـث. اختلـف العلـماء في هـذه المسـالة عـلى ثلاثـة أقـوال:

---

(٦٩) مسـلم، أبـو الحسـين مسـلم بـن الحجـاج بـن مسـلم(٢٦١هـ) الصحيـح. دار الجيـل- بـيروت ـ الطبعـة الأولى. كتـاب: المسـاقاة، بـاب: الربـا. برقـم(١٥٨٥. ج٣، ص١٢٠٩.

(٧٠) أبـو المعـالي، عبـد الملـك بـن عبـد اللـه بـن يوسـف الجويني(٤٧٨هـ)الورقـات في أصـول الفقـه. تحقيـق: المحقـق: د. عبـد اللطيـف محمـد العبـد. د. ط.د. ن. د ت. ص٢٠.

(٧١) الإجـماع الفعـلي أو العمـلي، وهـو قسـيم الإجـماع القـولي : هـو أن يطبـقَ مجتهـدو عـصرٍ مـا عـلى فعـلٍ مـا مـن الأفعـال، فـإنَّ مـن يـرى هـذا أو يعلمُـه بقطـعُ بجـوازِ مـا أقدمـوا عليـه مـن الفعـلِ المذكـورِ؛ إذْ لـوْ لمْ يكـنْ جائـزًا لـوردَ عليـه الإنـكارُ ولـو مـن واحـدٍ منهـم، فكونهـم أطبقـوا عـلى الفعـلِ يـدلُّ دلالـةً قاطعـةً عـلى جـوازه. ولا بـدَّ للإجـماعِ الفعـلي مـن قرينـةٍ ليسـتفادَ منـه مـا وراءَ الجـوازِ مـن النـدبِ أو الوجـوبِ لاحتمالـه للأمـور الثلاثـة. ومثالـه: جمـعُ عمـرَ النـاسَ في صـلاةِ التراويـحِ، وانتشـارُ هـذهِ الصـلاةُ بـينَ المسـلمينَ، ولم نعلـم أنَّ أحـداً مـن المجتهديـن أنكـرَ هـذا الفعـلَ. ومثالـه أيضًـا تضمـينُ الصنَّـاعِ، والبيـعُ بالمعاطـاةِ.

(٧٢) ابن الهمام، كمال الدين محمد بن عبد الواحد (٨٦١هـ)فتح القدير. دار الفكر- بيروت. د. ط، د. ت. ج٧، ص١١٥.

(٧٣) المقريـزي، أبـو العبـاس أحمـد بـن علي(٨٤٥هـ)إغاثـة الأمـة بكشـف الغمـة. القاهـرة: عـين للدراسـات والبحـوث. الطبعـة الأولى. ١٤٢٧ه-٢٠٠٧م. ص١٢٠.

(٧٤) مسلم، الصحيح. كتاب: الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور. رقم(١٧١٨. ج٣، ص١٣٤٣).

القول الأول: الجواز مطلقاً، وهو المحكي عن بعض الحنفية والظاهرية[٧٥].

القول الثاني: المنع مطلقاً، لأنه كاتفاقهم على أنه لا قول سوى هذين القولين، وهو قول الجمهور[٧٦]. ومثاله ما ذكر الزركشي في بحره عن ابن القطان:»فإذا اختلف الناس في حد السكر، فقيل: ثمانون، وقيل: أربعون، فهو إجماع على نفي ما عداهما»[٧٧]. وقال الشيرازي :» واعلم أنه إذا اختلفت الصحابة في المسألة على قولين وانقرض العصر عليه، لم يجز للتابعين إحداث قول ثالث»[٧٨]. وقال الرازي:»إحداث القول الثالث إما أن يلزم منه الخروج عما أجمعوا عليه أو لا يلزم، فإن كان الأول لم يجز إحداث القول «[٧٩].

والدليل: أن اختلافهم على قولين إجماع على أن كل قول سواهما باطل؛ لأنه لا يجوز أن يفوتهم الحق، فلو جوّزنا إحداث قول ثالث لجوّزنا الخطأ عليهم في القولين وهذا لا يجوز[٨٠].

وبأن الأمة أجمعت قبل الثالث على الأخذ بهذا القول، أو بهذا القول، فالأخذ بالثالث خرق للإجماع. ولأن الحق لا يفوت الأمة، فلا يكون الثالث حقاً، وإلا لَمَا فاتهم، فيكون باطلاً قطعاً[٨١].

القول الثالث: التفصيل، فإن كان القول الثالث رافعاً للقولين اللذين أجمعوا عليهما، لا يجوز إحداثه. ومثاله توريث الجد مع الأخوة، فمن قال بإسقاط الجد بالأخوة كان محدثاً لقول ثالث لم يقل به أحد من الفريقين ولكان هذا حرامًا؛ لأنه خرق للإجماع إذ رفع أمراً مجمعاً عليه. وإن كان القول الحادث غير رافع للقولين وغير مخالف لهما، بل موافق لكل واحد منهما من بعض الوجوه، جاز. ومثله أكل الحيوان المذبوح دون تسمية، قال فريق بجواز أكله مطلقًا سواءً أكان ترك التسمية عمدًا أم سهواً، وقال فريق بحرمة ذلك . وقال فريق يحلُّ متروك التسمية سهواً لا عمداً. والقول الأخير ليس خرقاً لما أجمعوا عليه وإنما وافق كلا الفريقين من وجه. والحكم نفسه في القول الواحد وعدم جواز إحداث قول ثانٍ، وكذلك في الأقوال الثلاثة وعدم جواز إحداث قول رابع. وعليه فالقول المستقر إن الذهب والفضة أثمان يدفع القول الثاني وهو اعتبار غيرهما أثماناً.

واعترض عليه بالتالي: أن الغلبة الثمنية أصبحت واقعًا للنقود الورقية، فالاعتراف لها بأحكام النقدين إنما هو من تحقيق المناط[٨٢]، وليس إحداثًا لاجتهاد جديد، إلا بقدر ما يقتضيه تحقيق المناط ؛ لأن الحكم كان موجوداً معلقًا، وقد تحقق شرطه في جزئية، فيجب إثبات الحكم[٨٣]. ويرد عليه بإن التعليق يكون بعلة، والعلة قاصرة لا متعدية ؛ وأيضًا قد ألغت تعدية العلة إلى العملات الورقية قيمة الأصل وهو الذهب.

(٧٥) الزركشي، البحر المحيط، ج٦، ص٥١٧.

(٧٦) ينظر: المرجع نفسه، ج٦، ص٥١٧.

(٧٧) المرجع نفسه، ج٦، ص٥١٧.

(٧٨) الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف(٤٧٦هـ)اللمع في أصول الفقه. دار الكتب العلمية-بيروت. الطبعة الثانية، ٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ. ص٩٣.

(٧٩) الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن (٦٠٦هـ)المحصول من علم الأصول. تحقيق: الدكتور طه جابر فياض العلواني. مؤسسة الرسالة-بيروت. الطبعة الثالثة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م. ج٤، ص١٢٨.

(٨٠) المرجع نفسه، ص٩٣.

(٨١) ينظر: القرافي، شرح تنقيح الفصول، ص ٢٩٤.

(٨٢) تحقيق المناط: أن يقع الاتفاق على علية وصف بنص، وإجماع، فيجتهد في وجودها في صورة النزاع، كتحقيق أن النباش سارق. (الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول. ص١٩٥.

(٨٣) ينظر: مجلة مجمع الفقه الإسلامي، العدد الثالث، موضوع: تغيرات النقود والأحكام المتعلقة بها في الفقه الإسلامي . بحث: الشيخ عبد الله بن بيه، ص٢، ص٢٠٣٩.

الدليل الرابع: حفظ الأموال من مقاصد الشريعة

من فضل الله أن الشريعة راعت مصالح الناس في الدنيا والآخرة، ومصلحة الناس أن يحفظ الله عليهم: الدين، والنفس، والعقل، والمال، والنسل. وحتى نحكم على شيء أنه مصلحة لا بدّ من ثلاثة شروط:

الأول: أن تكون المصلحة حقيقية عامة، لا وهمية أي إن بناء الحكم عليها يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً.

الثاني: أن لا تفوّت هذه المصلحة مصلحةً أهمَّ منها، أو مثلها.

الثالث: أن لا تكون معارضة للكتاب والسنة(٨٤).

والذي ظهر لنا في هذه الأزمان أن اعتماد العملة الورقية أخلّ بمصالح الناس، فما كان مظنة حفظ الثروة إذا به يصبح سببًا لضياعها. وأيّ حكم بُني على مصلحة ما، ثم ظهر ضررها فالواجب استدراك الحكم بالمنع. والمصلحة أن نعود إلى اعتماد النقدين (الذهب والفضة) كقيمة للأشياء، ومخزنًا للثروة . فمن أين يمكن حفظ أموال الناس بورق لا يحمل قيمة ذاتية، وإنما هو عرضة للمصالح والسياسة والتلف؟.

الدليل الخامس: أما القول: (إن النقود الورقية مستودع للثروة يمكن اختزانه عند الحاجة)(٨٥). فهذا القول استخفاف بعقول الناس ونهب لثرواتهم، فإن العملات الورقية يعتريها عوارض كثيرة تؤثر في قيمتها، منها:

انهيار الدول الكافلة لقيمة العملات الورقية، مما يجعلها أوراقًا لا قيمة لها.

قصر عمر العملات الورقية وتعرضها للتلف، خلافًا للذهب فهو معدن صلب لا يتغير ولا يتأكسد.

التزوير الذي يقضي على اقتصاد البلاد. جاء في موقع مجلة لوسيل نيوز الألكترونية بعنوان (تزوير العملات.. خطر يهدد اقتصاديات الدول:»تشير الأرقام الصادرة حديثاً عن الأجهزة المصرفية والرقابية ....حجم خسائر الدول العربية من عمليات التزوير وتزييف العملات تتجاوز نحو ملياري دولار سنوياً»(٨٦).

التضخم، وأهم عواقبه: فقدان العملات الورقية لقوتها الشرائيّة، وذلك ناتج عن الزيادة المستمرّة في الأسعار.

المضاربات بالعملات، مما يؤثر سلباً على قيمة العملة أمام غيرها. وهذا يؤدي إلى ضعف قيمتها؛ فلا يقدر الناس أن يشتروا السلع المستوردة(٨٧) . وسبب المضاربة بالعملات هو تعويمها الذي جعلها سلعة. والتعويم: جعل سعر صرف العملة محررًا بشكل كامل، بحيث لا تتدخل الحكومة أو المصرف المركزي في تحديده بشكل مباشر، وإنما يتم إفرازه تلقائياً في سوق العملات من خلال آلية العرض والطلب التي تسمح بتحديد سعر صرف العملة الوطنية مقابل العملات الأجنبية(٨٨). وأضرار تعويم العملات كثيرة، منها:

---

(٨٤) للتوسع في ضوابط المصلحة ينظر: البوطي، أ. د. محمد سعيد رمضان. ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية. مؤسسة الرسالة-بيروت. الطبعة السادسة، ١٤١٢ه-١٩٩٢م.

(٨٥) ينظر: فتوى هيئة كبار العلماء في السعودية، والمجمع الفقهي بمكة ؛ ومجمع الفقه الإسلامي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي، مرجع سابق.

(٨٦) https://lusailnews.net/ العدد صادر بتاريخ ٣٠ مايو ٢٠١٦ ، تاريخ الاطلاع: ٢٢ اكتوبر ٢٠٢٢.

(٨٧) هذا الأمر جيد للاقتصاد ؛ لأنه يؤدي لرواج السلع الوطنية ؛ ولكن يعكر عليه أن أغلب الخامات عندنا مستوردة.

(٨٨) للاقتصاديين رأيان في تعويم العملة: الأول يقضي بتعويم العملة أو تحريرها، والثاني يقضي بتثبيت صرف العملة عبر ربطها بعملة أخرى

تضرر من يستثمر باستخدام العملة المحلية ؛ لأنه سيفقد كثيرًا من قيمة ثروته .
زيادة خدمة الدين، أي فوائد القروض من البنوك .
ارتفاع تكلفة الواردات .
تفاقم معدلات التضخم . وتأثيره المباشر على الحالة المعيشة للمواطنين.
ولكن الضرر الأكبر أن نعتبر العملة سلعة تخضع للمضاربة، وهذا الذي جرّ الويلات على كثير من الدول. ولا شك أن حكم المضاربة بالعملات مكروه عند توهم الضرر، وحرام عند تيقنه؛ فقد قال أبو حامد الغزالي : «وكُلُّ مَنْ عامَلَ مُعامَلَةَ الرِّبَا على الدراهم والدنانير فقَدْ كَفَر النعمةَ وظَلَم؛ لأنهما خُلِقَا لغيرهما لا لنفسهما إذ لا غرضَ في عينهما؛ فإذا اتَّجر في عينهما فقَدِ اتَّخذهما مقصودًا على خلافِ وضع الحكمة»[٨٩]. الغرض من العملات الورقية سد حاجات الناس؛ فهي وسائل لتحصيل المطالب والمقاصد. قال ابنُ تيمية :»فإنَّ المقصود مِنَ الأثمان أنْ تكون معيارًا للأموال يُتوسَّل بها إلى معرفة مقادير الأموال، ولا يُقْصَدُ الانتفاعُ بعينها، فمتى بِيعَ بعضُها ببعضٍ إلى أجلٍ قُصِد بها التجارةُ التي تُناقِضُ مقصودَ الثمنية»[٩٠].

الخاتمة

نخلص من هذا البحث أن العملات الورقية ليست أثماناً بذاتها، ولا قيمة ذاتية لها. والمعروف أن قيمتها بقوة اقتصاد من أصدرها، وهذا يدعو لقلق الدول الضعيفة اقتصاديًا، وخصوصًا عند انهيار الأنظمة الحاكمة، أو عند الحروب. ويمكن تلخيص نقاط البحث المثارة بالتالي:
الراجح أن النقود الورقية هي فلوس رائجة، أو هي فلوس عرفًا، وليست أثماناً قائمة بنفسها.
للعملات الورقية حكم المال من جميع الوجوه بشرط أن تكون ممثلة لقدر معلوم من الذهب أو الفضة، وهذا القدر هو قيمتها ويجب أن يكون معلومًا وزنًا.
يمكن تفادي الضرر الذي يلحق الناس من العملة الورقية باعتماد الذهب والفضة كأثمان.
التعليل بضمان الدول، سقط والدليل الحال المشاهد.
عدم جواز المضاربة بالعملات خصوصًا في حال انهيار عملة بلد ما، وذلك نظرًا لما تحدثه الفوضى النقدية من تلاعب بأموال الناس، وإحالة أرصدتهم إلى أوراق لا قيمة لها.
و التوصيات هي:
حصر النقدية بالذهب والفضة، ويمكن ذلك بالعودة إلى اعتماد الذهب رصيدًا للعملات الورقية.
عدم الغاء العملات الورقية، ولكن بشرط أن تكون نائبة عن رصيد ذهبي.
سحب الذهب المودع لدى الدول الأجنبية، وإيداعها في بنوكنا المركزية.

أو بسلة من العملات. وكلا الرأيين وبال على الاقتصادات الضعيفة، فحتمًا سيكلف ذلك جزءًا كبيرًا من ميزانية الدولة.

(٨٩) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد(٥٠٥هـ). إحياء علوم الدين. دار المعرفة- بيروت. ج٤، ص٩٢.

(٩٠) ابن تيمية، مجموع الفتاوى. تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الإصدار الثاني، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م. ج٢٩، ص٥٦.

يجب على الدول الإسلامية أن تتعاون لإصدار عملة موحدة مغطاة بالذهب.
يجب على الحكومات الإسلامية حظر المضاربة بالأوراق النقدية وذلك لرفع الضرر الناتج من هذه المضاربة، فلا يصح أن يكون ثمن قوت الناس سلعة للجشع وبناء الثروات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- ابن الأثير الجزري، المبارك بن محمد بن محمد(٦٠٦هـ). النهاية في غريب الحديث والأثر. تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي. المكتبة العلمية-بيروت ، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣- أمير بادشاه، محمد أمين بن محمود (٩٧٢ هـ). تيسير التحرير. مطبعة البابي – مصر. د ط،١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م.

٤- البهوتي، منصور بن يونس بن صلاح الدين(١٠٥١هـ). كشاف القناع عن متن الإقناع . دار الكتب العلمية-بيروت.

٥- التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (٧٩٣هـ). التلويح إلى كشف حقائق التنقيح. شركة الأرقم بن أبي الأرقم-بيروت.الطبعة الأولى، ١٤١٩ه-١٩٩٨م.

٦- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (٧٢٨هـ). مجموع الفتاوى. تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الإصدار الثاني ، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

٧- الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت٣٩٣هـ). الصحاح. دار العلم للملايين- بيروت. الطبعة الرابعة، ١٩٩٠م.

٨- الجويني، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف (٤٧٨هـ). الورقات في أصول الفقه. تحقيق: المحقق: د. عبد اللطيف محمد العبد. د. ط. د. ن. د. ت.

٩- حيدر، علي خواجه أمين أفندي (١٣٥٣هـ). درر الحكام في شرح مجلة الأحكام. تعريب: فهمي الحسيني. دار الجيل-بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م

١٠- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني(٢٧٥ه). السنن. دار الكتاب العربي-بيروت.

١١- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن (٦٠٦هـ). المحصول من علم الأصول. تحقيق: الدكتور طه جابر فياض العلواني. مؤسسة الرسالة-بيروت. الطبعة الثالثة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

١٢- الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (٧٩٤هـ). المنثور في القواعد الفقهية. وزارة الأوقاف الكويتية-الكويت. الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٣- الزيلعي، عثمان بن علي بن محجن (٧٤٣ هـ). تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق . القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية، الطبعة الأولى، ١٣١٣ ه.

١٤- السبكي ، علي بن عبد الكافي وولده عبد الوهاب. الإبهاج في شرح المنهاج. دار الكتب العلمية-بيروت . ١٤١٦هـ - ١٩٩٥ م.

١٥- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي(٧٧١ه). جمع الجوامع في أصول الفقه. دار الكتب العلمية-بيروت. الطبعة الثانية، ١٤٢٤ه-٢٠٠٣م.

١٦- السرخسي، شمس الأئمة محمد بن أحمد بن أبي سهل (٤٨٣هـ). المبسوط. دار المعرفة – بيروت. د. ط. ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

١٧- سلطان، الدكتور جاسم. خطوتك الأولى نحو فهم الاقتصاد. أم القرى للترجمة والتوزيع. الطبعة الثانية، ١٤٣١ه-٢٠٠٩م.

١٨- شبير، الدكتور محمد عثمان. المعاملات المالية المعاصرة في الفقه الإسلامي. دار النفائس-بيروت. الطبعة السادسة، ١٤٢٧ه-٢٠٠٧م.

١٩- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد(١٢٥٠هـ). إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول. تحقيق:

أحمد عزو عناية. دار الكتاب العربي- بيروت. الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .
٢٠- الشيرازي ، أبو اسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف (٤٧٦هـ). اللمع في أصول الفقه. دار الكتب العلمية- بيروت. الطبعة : الطبعة الثانية ، ٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ.
٢١- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد(٣١٠ هـ). جامع البيان في تأويل القرآن.تحقيق: أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة-بيروت. الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
٢٢- الطوفي ، سليمان بن عبد القوي بن الكريم(٧١٦هـ). شرح مختصر الروضة. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة- بيروت. الطبعة الأولى ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
٢٣- ابن عثيمين ، محمد بن صالح بن محمد (١٤٢١هـ). الشرح الممتع على زاد المستقنع. الرياض: دار ابن الجوزي. الطبعة الأولى، ١٤٢٢ - ١٤٢٨ هـ.
٢٤- قوناش، أنور هاقان، بحث بعنوان: (أزمة شرق آسيا: عبر لبلدان منظمة المؤتمر الإسلامي). مجلة التعاون الاقتصادي بين الدول الإسلامية-٢٠٠١. ص٨٧. منشورة على موقع https://jecd.sesric.org/.
٢٥- ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب(٧٥١ هـ). أعلام الموقعين عن رب العالمين. دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع- المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.
٢٦- العراقي، ولي الدين أبو زرعة أحمد بن عبد الرحيم (٨٢٦هـ). الغيث الهامع شرح جمع الجوامع . تحقيق: محمد تامر حجازي. دار الكتب العلمية-بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٢٧- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (٥٠٥هـ). إحياء علوم الدين دار المعرفة- بيروت.
٢٨- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا(٣٩٥ه). معجم مقاييس اللغة. تحقيق : عبد السلام محمد هارون.دار الفكر-بيروت. الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٢٩- ابن قدامة، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد(٦٢٠هـ). المغني. المكتبة -القاهرة. د. ط. ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
٣٠- قلعه جي، الدكتور محمد رواس، المعاملات المالية المعاصرة في ضوء الفقه والشريعة. دار النفائس- بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٠م.
٣١- الكاساني، علاء الدين أبو بكر بن مسعود بن أحمد(٥٨٧هـ). بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع. دار الكتب العلمية- بيروت. الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٣٢- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم(٢٦١ه). الصحيح. دار الجيل- بيروت ـ الطبعة الأولى.
٣٣- ابن مفلح، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج(٧٦٣هـ). الفروع. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة- بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
٣٤- المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي(٨٤٥ه). إغاثة الأمة بكشف الغمة. عين للدراسات والبحوث-القاهرة. الطبعة الأولى. ١٤٢٧ه-٢٠٠٧م.
٣٥- منيع، عبد الله بن سليمان. الورق النقدي تاريخه، حقيقته، قيمته، حكمه. د ن، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ه-١٩٨٤م.
٣٦- ابن النجار، تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز (٩٧٢هـ). شرح الكوكب المنير. تحقيق: محمد الزحيلي و نزيه حماد. مكتبة العبيكان-الرياض. الطبعة : الطبعة الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ مـ
٣٧- ابن نجيم، ، زين الدين بن إبراهيم بن محمد(٩٧٠هـ). البحر الرائق شرح كنز الدقائق. دار الكتاب الإسلامي- بيروت. الطبعة الثانية، د. ت.
٣٨- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف(٦٧٦هـ). المجموع شرح المهذب. دار الفكر- بيروت.

الأحكام الشرعية في ضوء النوازل الفيروسية الطارئة
جائحة كورونا وأثرها في أحكام الزكاة والوقف

Sharia rulings in the light of emerging viral emergencies Corona pandemic and its impact on the provisions of zakat and endowment

د. جهاد حمد حمد[١]

بعد أن ضربت جائحة كورونا كافة شرائح المجتمع، ورتبت آثاراً إقتصادية مدمرة جراء الإقفال العام، ظهرت عظمة الإسلام في إيجاد حلول للتخفيف من آثار تلك الجائحة.

فسهم في سبيل الله يرمم ما تدمر من المصالح العامة وسبل السلام وأعمال البر وقُرب الخير.

وتعجيل الزكاة لعام أو عامين من شأنه أن يساعد بشكل فعال في محو آثار كورونا على المتضررين أو التخفيف من حدتها على الأقل.

وتبرز مؤسسة الزكاة أيضاً في بلسمة جراح المصابين بكورونا إن من حيث الإنفاق على علاج الفقراء منهم، أو على دعم المستشفيات التي تعمل على علاجهم وطبابتهم.

ومن مال الوقف يتم الإنفاق على المستشفيات الموقوفة والمستشفيات غير الموقوفة بحيث يؤمن لها السيولة المالية الكافية لتضميد جراح المصابين كدين بأمر الحاكم، أو عطاء بلا مقابل .

After the Corona pandemic hit all segments of society, and arranged devastating economic effects as a result of the general closure, the greatness of Islam appeared in finding solutions to mitigate the effects of that pandemic.

Their share in the way of God restores what has been destroyed in terms of public interests, ways of peace, works of righteousness, and closeness to goodness.

Accelerating zakat for a year or two would effectively help erase the effects of Corona on those affected, or at least mitigate them.

The Zakat Foundation also stands out in healing the wounds of those infected with Corona, whether in terms of spending on treating the poor among them ,or on supporting hospitals that treat and treat them.

From the endowment money, expenditures are made on endowed and non-endowed hospitals, so as to provide them with sufficient financial liquidity to heal the wounds of the injured, as a debt by order of the ruler, or a free donation.

الكلمات المفتاحية :فيروس كورونا- عظمة الاسلام – الزكاة والوقف- تضميد الجراح وايجاد حلول.

Keywords: Corona virus – the greatness of Islam – zakat and endowment – healing wounds and finding solutions.

(١) دكتوراه في الفقه واصوله، استاذ مشارك في كلية الدعوة الاسلامية

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

بعد أن ضربت جائحة كورونا كافة شرائح المجتمع،فمن مصاب أومفجوع به أو مفلس بسبب الآثار الإقتصادية المدمرة جراء الإقفال العام،وبعد تصنيف هذا الوباء جائحة عالمية من قبل منظمة الصحة العالمية تظهر عظمة الإسلام في إيجاد حلول للتخفيف من آثار تلك الجائحة.

ففي المقام الأول تبقى مؤسسة الزكاة عاملاً رافعاً لكل المترتبات السقيمة جراء الجائحة، ويبقى سهم في سبيل الله يرمم ما تدمر من المصالح العامة، وهدفاً لسبل السلام وأعمال البر وقُرب الخير.

ففي الإقفال العام وإغلاق المطارات والحدود البرية ما جعل الحياة الإقتصادية تصاب بشلل عام، فمن مستأجر لا يعمل لكي يسدد أجرة منزله، أو صاحب مؤسسة تجارية أُقفلت قسراً لا يستطيع تسديد رواتب موظفيه، ومن بضائع لم يتم إيصالها إلى أصحابها وتسليمها لهم، إضافة إلى الكثير من الأمور المشابهة التي جعلت الحاجة إلى تكييف الفتوى بالإنفاق من سهم في سبيل على تلك الحالات ومثيلاتها.

وكذلك الأمر فجواز تعجيل الزكاة لعام أو عامين من شأنه أن يساعد بشكل فعال في محو آثار كورونا على المتضررين أو التخفيف من حدتها على الأقل.

وتبرز مؤسسة الزكاة أيضاً في بلسمة جراح المصابين بكورونا إن من حيث الإنفاق على علاج الفقراء منهم، أو على دعم المستشفيات التي تعمل على علاجهم وطبابتهم.

ومن كمال هذا الدين فإنه يمتلك من مفاتيح الخير كالوقف بحيث يغلق من خلاله مترتبات جائحة كورونا فيما يخص علاج المرضى والإنفاق على المستشفيات الموقوفة والمستشفيات غير الموقوفة بحيث يؤمن لها السيولة المالية الكافية لتضميد جراح المصابين كدين بأمر الحاكم، أو عطاء بلا مقابل كما تم الترجيح خلال البحث.

وقد حدث وقت كتابة هذا البحث زلزال عظيم في تركيا والشمال السوري ذهب ضحيته من الشهداء أكثر من خمسين ألفاً، وما تناوله الباحث من الإنفاق من سهم في سبيل الله أوتعجيل الزكاة أو الوقف ينسحب حكمه على النوازل الفيروسية وغيرها كالزلزال المذكور.

الهدف من البحث:

يهدف البحث إلى تسليط الضوء على الأمور التالية:

- تعريف المسلمين بالإجراءات الوقائية التي جعلها الإسلام ديناً وتعبداً من حيث المبدأ،والتي توصل إلى تأمين الحماية من الأوبئة والجوائح.
- البحث في كتب الفقهاء القدامى واستخراج الفتاوى التي تمت بالصلة إلى مسائل البحث.
- قياس المسائل الطارئة التي استجدت أثناء إنتشار فيروس كورونا على ما تم استخراجه من فتاوى الفقهاء القدامى.
- البحث عن فتاوى العلماء المعاصرين والمجمعات والمؤتمرات الفقهية واخراجها إلى المجتمع بشكل

متكامل مع أدلتها وعللها.
- مواكبة الفقه الإسلامي لكل المستجدات الطبية الطارئة وتبيان عظمته في إيجاد الحلول لكل طارئ.

أسباب اختيار الموضوع:

تكمن الأسباب لإختيار هذا الموضوع في التالي:
- تسلط جائحة كورونا على يوميات المسلمين وسيطرتها على حياتهم حيث عمت بها البلوى.
- جهل الكثير من المسلمين في الأحكام المترتبة على انتشار هذا الفيروس القاتل.
- قلة المتصدرين للكتابة في هذه المسائل الحديثة والطارئة .
- استتباعاً لتخصصي في رسالة الدكتوراه والتي كانت بعنوان:الأحكام الشرعية في ضوء المستجدات الطبية والبيولوجية العصرية.
- إدلاءً بدلو طلبة العلم في النوازل الفقهية الطارئة وإبقاءً للبحث العلمي حياً بين أهله.

الدراسات السابقة:

الدراسات السابقة هي عبارة عن أبحاث جزئية غير مكتملة وغير متسلسلة على حسب الترتيب الفقهي وما هي إلا محاولات حثيثة من أصحابها لمعرفة الحق والنفع به.
إنما جعلت بحثي هذا مجزء إلى عدة أبحاث متناسقة،تبدأ بأحكام الحجر الصحي والجنائز منتهية بأحكام العقود والمعاملات،مروراً بتأثير كورونا في أحكام الصلاة والصيام والحج والزكاة والوقف وغيرها،والتي سأخرجها أخيراً بإذن الله في كتاب واحد.
وهذه بعض الأبحاث التي وجدتها وأفدت منها:
د عبد الله بن منصور الغفيل. نوازل الزكاة دراسة فقهية تأصيلية لمستجدات الزكاة .
استثمار الوقف وطرقه القديمة والحديثة إعداد أ. د. علي محيي الدين القره داغي .

منهجية البحث

اتبعت في هذا البحث المنهج الاستقرائي المقارن، واتخذت لذلك الخطوات التالية:
- ذكرت أقوال الفقهاء القدماء مع أدلتها ثم عرضت لرأي المعاصرين وخاصة مجمع الفقه الإسلامي والأزهر الشريف.
- رجحت بين آراء الفقهاء معتمداً على قوة الدليل واستعنت بالرأي الطبي.
- إعتمدت على أمهات الكتب الفقهية من كل مذهب معتبر.
- خرجت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكذلك ترجمت للفقهاء على الطريقة المتبعة في منهجية البحث العلمي.
- ختمت البحث بخاتمة تضمت النتائج التي توصلت إليها .

- جعلت فهارس للآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأعلام المترجم لهم وكذلك فهرس للمصادر والمراجع.

خطة البحث:

يتضمن البحث مقدمة وفصلان، يحتوي الفصل على ثلاثة مباحث . وكل مبحث يحتوي على مطالب.

الفصل الأول:جائحة كورونا وأثرها في أحكام الزكاة

المبحث الأول: تعريف جائحة كورونا
المبحث الثاني: الإنفاق من مال الزكاة على المصالح العامة جراء كورونا من سهم في سبيل الله
المبحث الثالث: حكم تعجيل الزكاة لمعالجة آثار كورونا والمصابين بها.

الفصل الثاني : الإنفاق على مرضى كورونا وعلى المستشفيات التي تعالجهم.

المبحث الأول: الإنفاق على مرضى كورونا من الزكاة
المبحث الثاني: الإنفاق من مال الوقف على المستشفيات الموقوفة
المبحث الثالث: الإنفاق من مال الوقف على المستشفيات غير الموقوفة

الفصل الأول:جائحة كورونا وأثرها في أحكام الزكاة والوقف

المبحث الأول : تعريف جائحة كورونا، المطلب الأول: تعريف الجائحةُ :
الجائحة لغةً: من الجوح والجوح هو الاستئصال، وجاحتهم السنة جوحاً وجياحة إذا استأصلت أموالهم، وسنة جائحة أي جدبة، والجوحة والجائحة: الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سنة أو فتنة[٢]. يقول في مقاييس اللغة: الجيم والواو والحاء أصل واحد وهو الاستئصال، يقال جاح الشيء يجوحه استأصله[٣]،والجائحة المصيبة تحل بالرجل في ماله فتجتاحه[٤]

تعريف الجائحة اصطلاحاً:

عرفها الجرجاني الحنفي: بأنها الآفة التي تهلك الثمار وتجتاح الأموال وتستأصلها، وهي كل مصيبة عظيمة وفتنةٍ كبيرة[٥].

(٢)ابن منظور: لسان العرب، ٢/ ٤٠٩-٤١٠، دار صادر - بيروت، ط٣،١٤١٤م،

(٣) 1979م. أحمد فارس : معجم مقاييس اللغة، 492/1، دار الفكر،بيروت، ١٣٩٩هـ -

(٤)الأزهري: معجم تهذيب اللغة، ٨٨/٥،تحقيق: محمد مرعب،دار إحياء التراث العربي بيروت(ط١،، ٢٠٠١م).

(٥) الجرجاني: التعريفات، ص: ٧٣،دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ط١– ١٤٠٥ هـ **والجرجاني** :هو علي بن محمد فيلسوف من كبار العلماء بالعربية ولد في

وعرفها المالكية بأنها: مَا لَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ كَسَمَاوِيٍّ وَجَيْشٍ أَوْ وَسَارِقٍ[٦]. أو ما أتلف من معجوز عن دفعه عادةً قدراً من ثمر أو نبات بعد بيعه[٧].

وعند الشافعية جماع الجوائح: كل ما أذهب الثمرة أو بعضها بغير جناية آدمي[٨].

وعند الحنابلة هي : كل آفة لا صنع للأدمي فيها كَالرِّيحِ، وَالْبَرْدِ، وَالْجَرَادِ، وَالْعَطَشِ[٩]

التعريف المختار: الجائحة هي الآفة التي تهلك الحرث والنسل وتجتاح الأموال وتستأصلها، وهي كل مصيبة عظيمة وفتنةٍ كبيرة.

المطلب الثاني :تعريف فيروس كورونا:

فيروس كورونا عند منظمة الصحة العالمية: فيروسات كورونا هي فصيلة فيروسات واسعة الانتشار يُعرف أنها تسبب أمراضاً تتراوح من نزلات البرد الشائعة إلى الأمراض الأشد حدةً، مثل متلازمة الشرق الأوسط التنفسية (م أ ر سومتلازمة الالتهاب الرئوي الحاد الوخيم. (السارس وفيروس كورونا المستجد(كوفيد ١٩ هو سلالة جديدة من الفيروس لم يسبق اكتشافها لدى البشر.

وفيروس كورونا من فصيلة فيروسات كورونا الجديد، حيث ظهرت أغلب حالات الإصابة به في مدينة ووهان الصينية نهاية ديسمبر ٢٠١٩م على صورة التهاب رئوي حاد[١٠].

ومرض كوفيد- ١٩ هو مرض معد يسببه آخر فيروس تم اكتشافه من سلالة فيروسات كورونا ولم يكن هناك أي علم بوجود هذا الفيروس الجديد ومرضه قبل بدء تفشيه في مدينة ووهان الصينية في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٩ قد تحول كوفيد - ١٩ الآن إلى جائحة تؤثر على العديد من بلدان العالم[١١]

وعرف مجمع الفقه الإسلامي هذا المرض بأنه : مرض الفيروس التاجي ٢٠١٩ المعروف اختصارا بكوفيد ١٩ : هو التهاب في الجهاز التنفسي بسبب فيروس تاجي جديد، وقد أعلنت منظمة الصحة أن هذا الوباء جائحة عالمية في العالمية رسميا ١١ مارس ٢٠٢٠م[١٢]

ويظن أن الفيروس حيواني المنشأ في الأصل ولكن الحيوان الخازن غير معروف حتى الآن بشكل مؤكد وهناك شبهات حول الخفاش وآكل النمل، وأما انتقاله من إنسان آخر فقد ثبت أنه واسع الانتشار، وتتراوح العدوى بين حامل الفيروس من دون أعراض إلى أعراض شديدة تشمل الحمى والسعال وضيق التنفس في الحاالت المتوسطة إلى الشديدة، قد يتطور المرض خلال أسبوع أو أكثر

تاكو،من مصنفاته :**التعريفات،وشرح مواقف الإيجي**،توفي في شيراز سنة ٨١٦ هج،الزركلي :الأعلام ٥/٧-٨ . ط دار العلم للملايين، بيروت.

(٦) أبو الحسن العدوي المالكي: حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، ٢ /٢١٧، المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي،، دار الفكر - بيروت، د ت،. احمد بن غنيم النفراوي، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ٢ /١٢٩.بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥م.

(٧)العدوي، حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، ٢/٢٨١، محمد الزرقاني: شرح الزرقاني، بيروت، ٣/ ٣٤٠، دار الكتب العلمية، ١٩٩١م

(٨)الشافعي: الأم ٣ / ٥٨،. دار الفكر - بيروت الطبعة: الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

(٩)ابن قدامة : المغني: ٤/٨١، طبع مكتبة القاهرة. تحقيق: طه الزيني ومحمود عبد الوهاب فايد وعبد القادر عطا .

(١٠) موقع منظمة الصحة العالمية. http:/www.emro.who.int/ar/healthopics/corona-virus

(١١) https://is.gd/K9eZ8e: موقع شبكة الجزيرة

(١٢) مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة التعاون الاسالمي توصيات الندوة الطبية الفقهية الثانية لهذا العام، والتي عقدت عبر تقنية مؤتمرات الفيديو يوم ١٦ ابريل ٢٠٢٠،تحت عنوان «فيروس كورونا المستجد كوفيد ـــ ١٩ وما يتعلق به من معالجات طبية وأحكام شرعية.

مـن معتـدل إلى حـاد، ونسـبة كبـيرة مـن الحـالات المرضيـة تحتـاج إلى عنايـة سريريـه مركـزة [١٣].

المبحـث الثـاني: الإنفـاق مـن مـال الـزكاة عـلى المصالـح العامـة جـراء كورونـا مـن سـهم في سـبيل اللـه.

المطلب الأول: سهم في سبيل الله

هـل يجـوز دفـع الـزكاة إلى المستشـفيات التـي تقـدم الطبابـة للمـرضى المصابـين بكورونـا والمصالـح العامـة مـن سـهم في سـبيل اللـه؟ اختلـف الفقهـاء في المقصـود مـن سـهم في سـبيل اللـه عـلى أقـوال:

القـول الأول : الغـزو والجهـاد وهـو قـول الجمهـور[١٤]، أبـو يوسـف[١٥] مـن الحنفيـة، و المالكيـة والشـافعية، وروايـة عنـد الحنابلـة .

القـول الثـاني : الغـزو والحـج والعمرة،وهـو قـول محمـد بـن الحسـن مـن الحنفيـة، ومذهـب الحنابلـة. [١٦]

القـول الثالـث: الجهـاد والدعـوة إلى اللـه، وهوقـرار المجمـع الفقهـي الإسـلامي، والنـدوة الأولى لقضايـا الـزكاة المعـاصرة.[١٧]

القـول الرابـع: كل أوجـه الطاعـات والقربـات والمصالـح العامة،وجميـع سـبل الخيروهـو قـول أشـهب مـن المالكيـة[١٨] وقـول ابـن العـربي[١٩].....

---

(١٣) المصدر السابق.

(١٤) الكاسـاني،بدائع الصنائـع في ترتيـب الشرائـع: ٢/ ٧٣، دار الكتـب العلمية،والمعرفـة، مطبعـة شركـة المطبوعـات العلميـة بمـصر: ١٤٠٦ هــ. محمـد أمـين، ابـن عابديـن: حاشـية رد المحتـار، عـلى الـدر المختـار: شرح تنويـر الأبصـار ٢/ ٣٤٣،شركـة مكتبـة ومطبعـة مصطفـى البـابي الحلبـي وأولاده بمصر،الطبعـة: الثانيـة ١٣٨٦ هــ = 1966 م، القـاضي عبـد الوهـاب :الإشراف عـلى نكـت مسـائل الخـلاف 1/ 422، تحقيـق: الحبيـب بـن طاهـر، دار ابـن حـزم،ط1، 1999م، القـرافي: الذخـيرة 3/ 148. دار الغـرب الإسـلامي- بـيروت الطبعـة: الأولى، 1994 م، العمـراني: البيـان في مذهـب الإمـام الشـافعي 3/ 426، المحقـق: قاسـم محمـد النـوري، دار المنهـاج – جـدة، الطبعـة: الأولى، 1421 هــ- 2000 م، النـووي: روضـة الطالبـين وعمـدة المفتـين 2/ 321. تحقيـق: زهـير الشـاويش،المكتب الإسـلامي، بـيروت- دمشـق- عـمان،ط: الثالثـة، 1412هــ / 1991م.،البهوتي:كشـاف القنـاع عـن مـتن الإقنـاع 2/ 107، مكتبـة النـصر الحديثـة بالريـاض، ط: د ت،، رجحـه ابـن قدامـة في المغنـي 9/ 326. المحقـق: د عبـد اللّـه بـن عبـد المحسـن التـركي،د عبـد الفتـاح محمـد الحلـو،دار عـالم الكتـب، الريـاض،ط3، 1417هــ - 1997 م.

(١٥) **أبـو يوسـف** يعقـوب بـن إبراهيـم الأنصـاري الكـوفي القـاضي الحنفـي، ولـد سـنة ١١٣ هــ ولازم أبـا حنيفـة ١٧سـنة، لـه مصنفـات مـن أشـهرها: **كتـاب الخـراج**، تـوفي سـنة ١٨٢ هــ. ينظـر: سـير أعـلام النبـلاء (٨/ ٥٣٥، تحقيـق: مجموعـة مـن المحققـين بـإشراف شـعيب الأرنـاؤوط مؤسسـة الرسـالة ط٣، ١٤٠٥ هــ - ١٩٨٥ م.

(١٦) المغنـي ٩/ ٣٢٦. بدائـع الصنائـع ٧٣/ ٢، وحاشـية رد المحتـار ٢/ ٣٤٣. **محمـد بـن الحسـن:** ابـن فرقـد،، فقيـه العـراق أبـو عبـد اللـه الشـيباني، الكـوفي، صاحـب أبي حنيفـة . ولـد بواسـط سـنة ١٣٢، ونشـأ بالكوفـة وأخـذ عـن أبي حنيفـة بعـض الفقـه، وتمـم الفقـه عـلى القـاضي أبي يوسـف، غلـب عليـه الـرأي وسـكن بغـداد، **وولي القضاء للرشـيد بعد القاضي أبي يوسـف** ، وكان مـع تبحـره في الفقـه يـضرب بذكائـه المثـل،كان الشـافعي يقـول : كتبـت عنـه وقـر بختـي ومـا ناظـرت سـميناً أذكى منـه، تـوفي سـنة ١٨٩ بالـري، الذهبـي : سـير أعـلام النبـلاء ٩/ ١٣٤ .

(١٧) قـرارت المجمـع الفقهـي الإسـلامي بمكـة العـدد ٣ (ص ٢١٠. في دورتـه الثامنـة: القـرار الثـاني:ص ١٨٧، فتـاوى وتوصيـات نـدوات قضايـا الـزكاة المعـاصرة (ص ٢٥. القـرار الرابـع بشـأن جمـع وتقسـيم الـزكاة والعـشر في باكسـتان في الـدورة الثامنـة مـن العـدد ٣ (ص ٢١١، قـرار (٤.

(١٨) القـرافي : الذخـيرة٦/ ٣٦٠ لعمـوم اللفظ.**وأشـهب:** بـنُ عَبْـدِ العَزِيْـزِ بـنِ دَاوُدَ بـنِ إِبْرَاهِيْـمَ القَيْـسِيُّ، الإِمَـامُ، مُفْتِـي مِـصْر، مَوْلِـدُهُ: سَـنَةَ 140، وَيَكفِيْـهِ قَـوْلُ الشَّـافِعِيِّ فِيْـهِ: **مَـا أَخْرَجَـتْ مِـصْرُ أَفْقَـهَ مِـنْ أَشْـهَبَ**، وَقِيْـلَ: كَانَ أَشْـهَبُ عَـلَى خَـرَاجِ مِـصْرَ، وَكَانَ صَاحِـبَ أُمُـوَالٍ وَحَشَـمٍ، مَـاتَ سَـنَةَ ٢٠٤، الذهبـي: سـيرأعلام النبـلاء ٩/ ٦٠٠ .

(١٩) **ابـن العـربي:** الإمـام العلامـة الحافـظ القـاضي أبـو بكـر، محمـد بـن عبـد اللـه بـن محمـد بـن عبـد اللـه، ابـن العـربي الأندلـسي الإشـبيلي المالـكي، بلـغ رتبـة الاجتهـاد .، وتفقـه بالإمـام أبي حامـد الغـزالي، والفقيـه أبي بكـر الشـاشي، صنـف : **عارضـة الأحـوذي في شرح جامـع أبي عيسـى الترمـذي وفسـر القـرآن المجيـد،** توفي سـنة ٥٤٣، الذهبـي : سـير أعـلام النبـلاء ٤٣/ ١٩٧.

وفخـر الديـن الـرازي[٢٠]، والسـيد صديـق حسـن خـان[٢١]، وجـمال الديـن القاسـمي[٢٢]، والسـيد رشـيد رضـا [٢٣]، والشـيخ محمـود شـلتوت[٢٤]، والشـيخ حسـنين مخلـوف [٢٥].

أدلة القول الأول:

- أن المراد من سبيل الله عند الإطلاق هو الغزو، وأكثر ما جاء في القرآن هو من ذلك[٢٦] .

- الحديـث: {لا تحـل الصدقـة لغنـي إلا لخمسـة: لغـازٍ في سـبيل اللـه، أو لعامـلٍ عليهـا، أو لغـارمٍ، أو لرجـل اشـتراها بمالـه، أو لرجـل كان لـه جـار مسـكين فتصـدق عـلى المسـكين، فأهداهـا المسـكين للغنـي}[٢٧].

وجـه الدلالـة: لأن سـبيل اللـه عنـد الاطـلاق إنمـا ينـصرف إلى الجهـاد، فـان كل مـا في القـرآن مـن

---

(٢٠) **فخـر الديـن الـرازي**: العلامـة الكبـير ذو الفنـون فخـر الديـن محمـد بـن عمـر بـن الحسـين القـرشي البكـري الطبرسـتاني الأصـولي **المفسـر كبـير الأذكيـاء والحكـماء والمصنفـين**، ولـد سـنة أربـع وأربعـين وخمسـمائة، مـات بهـراة يـوم عيـد الفطـر سـنة سـت وسـتمائة ولـه بضـع وسـتون سـنة،الذهبي : سـير أعـلام النبـلاء ٢١/ ٥٠١ .

(٢١) **صِدّيـق حسـن خـان القنوجـي**: 1357-1248ابـن السـيد العلامـة حسـن، المعـروف بسـيد أولاد حسـن،، وُلـد في بلـدة بانـس بريـلي شـمالي الهنـد، ولـه مـن الحسـنات العلميـة مـا يغنـي شـهره عـن الذكـر والفضائل،تـزوج مـن الملكـة وإطلقـت يـده في الإصلاحـات،، وبـاشر الحكـم في شـؤون كثـيرة نيابـة عـن زوجـه، وأنشـأ مكتبـات عامـة كبـيرة غنيـة بالنوادر،مـن مؤلفاتـه: **فتـح البيـان في مقاصـد القرآن،وأبجـد العلـوم و عـون البـاري شرح تجريـد البخـاري للزبيـدي**،، القنوجـي : أبجـد العلـوم:٢٧١- ٢٨٢، المحقـق: عبـد الجبـار الـزكار، وزارة الثقافـة والإرشـاد القومـي دمشـق - دار الكتـب العلميـة سـنة : ١٩٧٨م. (٣ واختـاره الكاسـاني للمحتـاج،، ينظـر البدائـع ٢/ ٤٥،، تفسـير المنـار ١٠/ ٤٣١، ١١/ ٩٩،الهيئـة المصريـة العامـة للكتـاب، سـنة : ١٩٩٠ م، الـرازي: مفاتيـح الغيـب أو التفسـير الكبـير١٦/ ٨٧،دار إحيـاء الـتراث العـربي – بـيروت، ط ٣- ١٤٢٠ هــ)، شـلتوت: الإسـلام عقيـدة وشريعـة ص ١٠٥،.دار الـشروق – مـصر، ط ١٨، ٢٠٠١ م، الطاهـر بـن عاشـور: التحريـر والتنويـر ١٠/ ٢٤٠- ٢٣٧،، الـدار التونسـية، سـنة: ١٩٨٤هــ)، القرضـاوي: فقـه الـزكاة ص ٦٢٠، مكتبـة وهبـة، ط ٢، ١٤١٤ هــ.

(٢٢) **القاسـمي**: محمـد جـمال الديـن القاسـمي الكيـلاني الحسـني الدمشـقي، كان إمـام الشـام في عـصره، نشـأ مقلـداً وصوفيـاً لكنـه تحـول لمنهـج السـلف، ولـد في دمشـق سـنة ١٢٨٢هــ / ١٨٦٦م، كتابـاه **منتخـب التوسـلات والأوراد المأثـورة** كتابـه دلائـل التوحيـد، مقدمـة رشـيد رضـا لكتـاب القاسـمي قواعـد التحديـث والشـيخ محمـد نـاصر العجمـي كتابـاً في عائلـة القاسـمي بعنـوان آل القاسـمي ونبوغهـم في العلـم والتحصيـل ترجـم فيـه لجـده وأبيـه وأعمامـه، https://ar.wikipedia.org/wiki/ وأبنائهـم وأبنـاء جـمال الدين،https://uk.co.albayan/uk/article٢٠١٢/٠٤/٢٤٧٩=ID?aspx.مجلـة البيـان

(٢٣) **السـيد محمـد رشـيد رضـا**: ولـد في قريـة القلمـون (جنـوبي طرابلـس الشـام - لبنـان، سـافر إلى مـصر سـنة (١٨٩٨، واتصـل بالشـيخ محمـد عبـده، والتحـق بالأزهـر سـنة (١٨٩٩، ثـم مـارس التدريـس في الجامـع الكبيربطرابلـس، وفي جامـع البشـوية في بـيروت. أصـدر في القاهـرة مجلـة «المنـار» للـرد عـلى المتحاملـين عـلى الإسـلام،،له مؤلفـات عـدة، منهـا: **تفسـير القـرآن الكريـم، المشـهور بتفسـير المنـار، و شـبهات النصـارى وحجـج الاسـلام**، خيرالديـن الـزركلي: الأعـلام، ٦/ ١٢٦.

(٢٤) **الشـيخ محمـود شـلتوت**: محمـود شـلتوت (1310 هــ - 1383 هــ / 1893م - 1963م، عـالم إسـلامي مـصري وشـيخ الجامـع الأزهـر 1958 - 1963م، نـال إجازة العالميـة سـنة 1918م، و عُـيّن وكيـلاً لكليـة الشريعـة، ثـمّ عضـواً في جماعـة كبـار العلـماء، ثـمّ شـيخاً للأزهـر سـنة 1958م، وكان عضـواً بمجمـع اللغـة العربيـة سـنة 1946م، وكان أول حامـل للقـب الإمـام الأكـبر. وولـد الشـيخ محمـود شـلتوت بمحافظـة البحـيرة سـنة 1893مـن مؤلفاتـه فقـه القـرآن والسـنة و مقارنـة المذاهـب، تـوفيً بالقاهـرة سـنة،القرضاوي: شـلتوت لم يفتـي بجـواز التعبـد بالمذهـب الجعفـري 1383 هــ الموافـق سـنة 1963،وموقـع ويكيبيديـا http://www.dd sunnah.net/news/view/action/view/id/961

(٢٥) **الشـيخ حسـنين مخلـوف**: مـن كبـار علـماء الأزهـر، ولـد سـنة1307هـ م1890،تفقـه عـلى مذهـب المالكيـة، ودرس بالأزهر،ثـم التحـق بسـلك القضـاء قاضيًـا شرعيًا حتـى سـنة 1950م،مـن كتبـه: كلـمات القـرآن تفسـير وبيـان و حكـم الشريعـة في مأتـم ليلـة الأربعـين، تـوفي سـنة 1990م، محمـد خـير رمضـان يوسـف: تتمـة الأعـلام للـزركلي- دار ابـن حـزم- بـيروت- 1418هــ = 1998م، محمـد حسـام الديـن: فضيلـة الشـيخ حسـنين محمـد مخلـوف- مجلـة الأزهـر- السـنة 63- الجـزء 5- 1411هــ = 1990م.

الكاسـاني:البدائع ٢/ ٧٣. الـرازي :التفسـير الكبـير ١٦/ ٨٧،، تفسـير المنـار ١٠/ ٤٣١،، الإسـلام عقيـدة وشريعـة ص ١٠٥،. ابـن عاشـور:التحرير والتنويـر ٢٤٠-٢٣٧،، القرضـاوي: فقـه الـزكاة ص ٦٢٠ -٦٢٦.

(٢٦)النووي: المجموع شرح المهذب ٦/ ٢١٢. إدارة الطباعة المنيرية، مطبعة التضامن الأخوي- القاهرة عام النشر:١٣٤٤ - ١٣٤٧ هـ.

(٢٧)أبـو داود، السـنن في الـزكاة، بـاب مـن يجـوز لـه أخـذ الـزكاة وهـو غنـي، برقـم: (١٦٣٥) موسـوعة الحديـث الشريف،الكتـب السـتة دار السـلام- الريـاض،١٤٢٩ هــ. مالـك: الموطـأ، ١/٢٦٨،كتـاب الـزكاة، بـاب أخـذ الصدقـة ومَـن يجـوز لـه أخذهـا برقـم: (٢٩) دار إحيـاء الـتراث العـربي، بـيروت - لبنان،عـام النـشر: ١٤٠٦ هــ - ١٩٨٥ م.

ذكـر سـبيل اللـه إنمـا أريـد بـه الجهـاد إلا اليسـير فيجـب أن يحمـل مـا في آيـة الـزكاة عـلى ذلـك [٢٨].

أدلة القول الثاني:

الحديـث: خـرج أبـو معقـل حاجًّـا مـع رسـول اللـه – صـلى اللـه عليـه وسـلم -، فلـما قَـدِمَ قالـت أم معقـل: قـد علمـت أن عَـلَيّ حِجَّـة، فانطلقـا يمشـيان حتـى دخـلا عليـه، فقالـت: يـا رسـول اللـه، إنّ عَـلَيَّ حجـة، وإن لأبي معقـل بكـرًا، قـال أبـو معقـل: صدقـتِ، جعلتُـه في سـبيل اللـه، فقـال رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: { أَعْطِهَـا فلتحـج عليـه؛ فإنـه في سـبيل اللـه}.[٢٩]

الآثار الموقوفة الدالة على أن الحج من سبيل الله، كالذي ورد عن ابن عباس وابن عمر [٣٠].

أدلة القول الثالث:

أن اللفظ عام، فلا يجوز قصره على بعض أفراده إلا بدليل صحيح، ولا دليل على ذلك[٣١] .

- أنه لا يعرف لكلمة سبيل الله في القرآن معنى غير البر العام، والخير الشامل[٣٢].

- أن النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم ودى صحابيًّـا لم يعـرف قاتلـه مـن إبـل الصدقـة كـما جـاء في الحديـث:

{أَنَّ نَفَـرًا مِـن قَوْمِـهِ انْطَلَقُـوا إلى خَيْـبرَ، فَتَفَرَّقُـوا فِيهَـا، ووَجَـدُوا أَحَدَهُـمْ قَتِيـلاً، وقالـوا لِلَّـذِي وُجِـدَ فيهـم: قـدْ قَتَلْتُـمْ صَاحِبَنَـا، قالـوا: مـا قَتَلْنَـا ولاَ عَلِمْنَـا قَاتِـلاً، فَانْطَلَقُـوا إلى النبـيِّ صَـلَّى اللـهُ عليـه وسـلَّمَ، فَقالـوا: يـا رَسـولَ اللَّـه، انْطَلَقْنَـا إلى خَيْـبرَ، فَوَجَدْنَـا أَحَدَنَـا قَتِيـلاً، فَقـالَ: الكُـبْرَ الكُـبْرَ فَقـالَ لهـمْ: تَأْتُـونَ بالبَيِّنَـةِ عـلَى مَـن قَتَلَـهُ قالـوا: مـا لَنَـا بَيِّنَـةٌ، قـالَ: فَيَحْلِفُـونَ قالـوا: لا نَـرْضَى بأَيْمَـانِ اليَهُـودِ، فَكَـرِهَ رَسـولُ اللَّـهِ صَـلَّى اللـهُ عليـه وسـلَّمَ أَنْ يُبْطِـلَ دَمَـهُ، فَـوَدَاهُ مِئَـةً مِـن إبِـلِ الصَّدَقَـةِ}[٣٣]

وجـه الدلالـة: أنـه إذا جـاز دفـع الـزكاة في ديـة قتيـل دَفْعًـا للنـزاع، أي مـن أجـل المحافظـة عـلى الأمـن الإجتماعـي، فمـن بـابٍ أولى جـوازُ صرفهـا للمحافظـة عـلى رعايـة مصالحهـم العامـة .

أدلة القول الرابع:

أن إرادة المعنـى الخـاص وهـو الجهـاد ومـا كان في معنـاه هـو الظاهـر مـن أسـلوب الحـصر في آيـة

(٢٨) ابن قدامة: الشرح الكبير على متن المقنع ٢/ ٧٠١، عام النشر١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، تصوير: دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت.

(٢٩) أبـو داود، السـنن في المناسـك، بـاب العمـرة برقـم: (١٩٨٨)، أحمـد: المسند،مسـند النسـاء،٤٥/ ٧١، برقـم: (٢٧١٠٧ المحقـق): شـعيب الأرنـؤوط ، مؤسسـة الرسـالة، الطبعـة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.والحديـث ضعيـف ينظـر: المجمـوع ٦/ ٢١٢.

(٣٠) أبو عبيد القاسم بن سلام : الأموال، ص ٧٢٤-٧٢٣،تحقيق محمد خليل هراس، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ.

(٣١) سعود الفنيسان: مصرف وفي سبيل الله بين العموم والخصوص ص(٥٢ ..مكتبة التوبة، ط١، ١٤٢٤هـ)،

(٣٢) ينظر: شلتوت: تفسير القرآن ص ٦٥١.

(٣٣) البخـاري، الصحيـح في الديـات، بـاب القسـامة، برقـم: (٦٨٩٨)، موسـوعة الحديـث الشريف،الكتـب السـتة دار السـلام- الريـاض،١٤٢٩ هـ. ومسـلم، الصحيـح في القسـامة، بـاب القسـامة والمحاربـين والقصـاص والديـات، برقـم: (١٦٦٩). موسـوعة الحديـث الشريف،الكتـب السـتة دار السـلام- الريـاض،١٤٢٩ هـ.

الصدقات، فالتعميم يشمل جهات كثيرة، وهذا ينافي أسلوب حصر المصارف في ثمانية أصناف.[٣٤]

- أن الجهاد في الإسلام لا ينحصر في الغزو الحربي والقتال بالسيف، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل: أي الجهاد أفضل؟ فقال: { كلمة حق عند سلطان جائر} [٣٥] .

وقال صلى الله عليه وسلم : { جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم} [٣٦].

أن الدعوة إلى الله لو لم تكن داخلة في معنى الجهاد بالنص لوجب إلحاقها بالقياس؛ فكلاهما يُراد به نصرة دين الله والدفاع عنه، ومقاومة أعدائه، وإعلاء كلمته.

فلا عجب أن نلحق بالجهاد - بمعنى القتال - كل ما يؤدي غرضه، ويقوم بمهمته من قول أو فعل؛ لأن العلة واحدة، وهي نصرة الإسلام [٣٧].

يصح صرف ذلك في كل ما كان طريقاً إلى الله عز وجل هذا معنى الآية لغة، والواجب الوقوف على المعاني اللغوية حيث لم يصح النقل هنا شرعاً [٣٨].

قال ابن حجر[٣٩] في الفتح: وقد حمله بعضهم على ظاهره، فحكى القاضي عياض عن بعض العلماء جوازَ صرف الزكاة في المصالح العامة[٤٠].

المطلب الثاني :الترجيح:

يترجح القول الرابع، ويشمل الغزو والحج والعمرة والدعوة إلى الله وكل أوجه الطاعات والقربات والمصالح العامة، للأسباب الآتية:

أصل دلالة كلمة (سبيل الله في الشرع عامة لجميع أبواب الخير، ثم ما طرأ عليها التضييق بالجهاد أو الغزاة، قال ابن الأثير في النهاية: وسبيل الله عام يقع على كل عمل خالص سلك به طريق التقرب إلى الله تعالى بأداء الفرائض والنوافل وأنواع التطوعات، وإذا أطلق فهو في الغالب واقع على الجهاد، حتى صار لكثرة الاستعمال كأنه مقصور عليه[٤١].

---

(٣٤)الدكتور يوسف القرضاوي: فقه الزكاة، ص٦٢٧ .

(٣٥) أبو داود: السنن في الملاحم، باب الأمر والنهي، برقم: (٤٣٤٤)، الترمذي :الجامع في الفتن، باب ما جاء في أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، برقم (٢١٧٤) موسوعة الحديث الشريف،الكتب الستة دار السلام- الرياض،١٤٢٩ هـ.، ابن ماجه، السنن في الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، برقم (٤٠١١). موسوعة الحديث الشريف،الكتب الستة دار السلام- الرياض،١٤٢٩ هـ.

(٣٦) أبو داود، السنن في الجهاد، باب كراهية ترك الغزو، برقم (٢٥٠٤)، والنسائي، السنن في الجهاد، باب وجوب الجهاد، برقم: (٣٠٩٨). موسوعة الحديث الشريف،الكتب الستة دار السلام- الرياض،١٤٢٩ هـ.

(٣٧) القرضاوي: فقه الزكاة ص ٦٢٧.

(٣٨)الروضة الندية شرح الدرر البهية:صدّيق حسن خان، ١/ ٢٠٦، دار ابن عفان، القاهرة ١٩٩٩م، الطبعة الأولى، تحقيق علي حسين الحلبي، وطبعة دار المعرفة أيضاً، سعود الفنيسان:مصرف في سبيل الله بين العموم والخصوص (٣٨).

(٣٩) **ابن حجر**: أحمد بن علي،من أئمة العلم أصله من عسقلان بفلسطين،مولده بالقاهرة،ولي قضاء مصر مرات ثم اعتزل،من تصانيفه: **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة وفتح الباري شرح صحيح البخاري**، وفاته سنة ٨٥٢ هج، السخاوي:الضوء اللامع لأهل القرن التاسع٢/ ٣٦،بيروت،دار مكتبة الحياة.د.ط،د.ت،

(٤٠) ابن حجر :فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٢/ ٢٣٥. دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ هـ . **القَاضِي عِيَاضٌ** بنُ مُوْسَى بن عِيَاض اليَحْصَبِيُّ ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ، وُلِدَ في سَنَةِ ٤٧٦، **من تَوَالِيْفِه كِتَاب تَرْتِيْب المَدَارك وَتَقْرِيْب المسَالك في ذكرِ فُقَهَاء مَذْهَب مَالِك والشِفَا في شرف المُصْطَفَى**، تُوُفِّيَ فِي سَنَةِ ٥٤٤ الذهبي: سيرأعلام النبلاء ٢٠/ ٢١٢.

(٤١)ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٣٣٩-٣٣٨، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي. **ابن الأثير**: محمد بن محمد الشيباني، ولد بجزيرة ابني عمر سنة 544 هج،له المصنعات البديعة والرسائل الوسيعة منها: **النهاية في غريب الحديث، والإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف في تفسير القرآن الكريم**،توفي بالموصل سنة ٦٠٦ هج، ابن خالكان:وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٥/ ٨٨٩ . دار صادر – بيروت، الطبعة: ١، ١٩٩٤ م .

أن جميع الآيات التي ذكر فيها سبيل الله مقيداً بالجهاد بالنفس ذكر معها الجهاد بالمال مما يفيد توسيع مفهوم الجهاد في سبيل الله بما هو أعم من الغزو .

كما جاء إطلاق الجهاد في النصوص بما هو أوسع من الغزو، في مثل قوله تعالى: {وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيراً}[٤٢]. وقد صدر تأييدًا لهذا القول قرارٌ من المجمع الفقهي الإسلامي بمكة، بما يلي وبعد تداول الرأي

ومناقشة أدلة الفريقين قرر المجلس بالأكثرية ما يلي: نظرًا إلى أن القول الثاني قد قال به طائفة من علماء المسلمين، وأن له حظا من النظر في بعض الآيات الكريمة مثل قوله تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}. [٤٣] ومن الأحاديث الشريفة، مثل ما جاء في سنن أبي داود أن رجلا جعل ناقة في سبيل الله فأرادت امرأته الحج فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : {اركبيها فإن الحج في سبيل الله. }

- ونظرًا إلى أن القصد من الجهاد بالسلاح هو إعلاء كلمة الله تعالى، وأن إعلاء كلمة الله تعالى كما يكون بالقتال يكون بالدعوة إلى الله تعالى ونشر دينه، بإعداد الدعاة، ودعمهم، ومساعدتهم على أداء مهمتهم، فيكون كِلاَ الأمرين جهادًا؛ لما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم. }

- ونظرا إلى أن الإسلام مُحَارَبٌ بالغزو الفكري والعقدي من الملاحدة واليهود والنصارى وسائر أعداء الدين، وأنّ لهؤلاء مَن يدعمهم الدعمَ المادي والمعنوي، فإنه يتعين على المسلمين أن يقابلوهم بمثل السلاح الذي يغزون به الإسلامَ، وبما هو أنكى منه..

- ونظرا إلى أن الحروب في البلاد الإسلامية أصبح لها وزارات خاصة بها، ولها بنود مالية في ميزانية كل دولة، بخلاف الجهاد بالدعوة، فإنه لا يوجد له في ميزانيات غالب الدول مساعدة ولا عون. لذلك كله فإن المجلس يقرر – بالأكثرية المطلقة – دخول الدعوة إلى الله تعالى وما يُعِين عليها ويدعم أعمالها في معنى: {وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ}[٤٤].

في الآية الكريمة كما صدرت بذلك الخصوص فتوى الندوة الأولى لقضايا الزكاة المعاصرة في مصرف في سبيل الله على النحو التالي.[٤٥] [٤٦] وفي سنة ثمان وعشرين بعث صاحب مصر بمال لينفق على نهر الكوفة إن أذن الخليفة العباسي في ذلك، فجمع القائم بالله الفقهاء، وسألهم عن هذا المال، فأفتوا بأن هذا فيء للمسلمين يصرف في مصالحهم، فأذن في صرفه في مصالح المسلمين[٤٧]

وخلاصة القول : تركت جائحة كورونا آثاراً بشعة على كل الأصعدة فقد تضرر الإقتصاد العالمي أيما تضرر، وتبع ذلك خسائر مادية ضخمة على صعيد الشركات والأفراد والمستأجرين وغير ذلك كثير من المصالح العامة مما يجعل للمتضررين حظاً وافراً من مال الزكاة ومن سهم في سبيل

(٤٢)سورة الفرقان الآية:٥٢.

(٤٣)سورة البقرة: الآية:٢٦٢.

(٤٤) سورة التوبة (٦٠).

(٤٥) القرار الرابع بشأن جمع وتقسيم الزكاة والعشر في باكستان في الدورة الثامنة من العدد ٣ (ص ٢١١)، قرار (٤).

(٤٦) د عبد الله بن منصور الغفيل. نوازل الزكاة دراسة فقهية تأصيلية لمستجدات الزكاة،ص ٤٤٦
الناشر: دار الميمان للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، القاهرة - الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

(٤٧) جلال الدين السيوطي:حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ٢/٢٨٦، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه - مصر الطبعة : الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م.

اللــه بالتحديــد.

المبحث الثالث: حكم تعجيل الزكاة لمعالجة آثار كورونا والمصابين.

المطلب الأول : حكم تعجيل الزكاة لمعالجة آثار كورونا

اختلف الفقهاء في تعجيل الزكاة التجارية الحولية بعد بلوغ النصاب، على قولين:

القــول الأول: جــواز تعجيــل الــزَّكاة: وذهــب إليــه أبــو حنيفــة والشــافعي وأحمــد[٤٨] وإســحاق[٤٩] والأوزاعــي[٥٠] وَأَبُــو عُبَيْــدٍ[٥١] وابْــنُ شُــبْرُمَةَ[٥٢] .

القول الثاني: المنع من تقديم الزكاة، وهو مذهب مالك[٥٣]، وقول ربيعة[٥٤] والظاهرية[٥٥] .

أدلة القول الأول:

الحديــث: {أن العبــاس ســأل رســول اللــه صــلى اللــه عليــه وســلم في تعجيــل زكاتــه، قبــل أن يحــول الحــول، مســارعة إلى الخــير، فــأذن لــه في ذلــك }.[٥٦]

قــال الشــافعي: أن للــه تبــارك وتعــالى حقــاً عــلى العبــاد في أنفســهم وأموالهــم: فالحــق الــذي في أموالهم إذا قدَّمــوه قبــل محلّــه: أجزأهــم وأيّــده بذكــر صــور مــن تقديــم الشريعــة لبعــض الواجبــات،

(٤٨) الكاســاني:بدائع الصنائــع (٢/ ٥٠)، السرخسي:المبســوط (٢)/١٧٦، مطبعــة الســعادة – مــصر د ت.، ابــن قدامة:المغنــي (٢)/ ٤٧٠، مكتبــة القاهــرة الطبعــة: الأولى، ١٩٦٨ م - ١٩٦٩ م.، البهــوتي: كشــاف القنــاع (٥/ ١٠٠)، وزارة العــدل في الســعودية الطبعــة: الأولى، (٢٠٠٠ - ٢٠٠٨ م) النــووي: روضــة الطالبــين (٢/ ٢١٢، الشربينــي: مغنــي المحتــاج (٢/ ١٣٢، حققــه وعلّــق عليــه: عــلي محمــد معــوض - عــادل أحمــد عبــد الموجــود، النــاشر: دار الكتــب العلميــة، الطبعــة: الأولى، ١٤١٥ هــ - ١٩٩٤ م. ابــن عبــد البــر: التمهيــد لمــا في الموطــأ مــن المعــاني والأســانيد (٤/ ٥٩-٦٠) تحقيــق: مصطفــى بــن أحمــد العلــوي، محمــد عبــد الكبــير البكــري النــاشر: وزارة عمــوم الأوقــاف والشــؤون الإســلامية – المغــرب، عــام النــشر: ١٣٨٧ هــ

(٤٩) **اســحاق بــن راهويــه: الإِمَــامُ الكَبِــيرُ، شَــيْخُ المَــشْرِق، سَــيِّدُ الحُفَّــاظ**،، وُلِــدَ في سَــنَةِ ١٦٣،عــنِ الإِمَــام أَحْمَــدَ قَــالَ: لاَ أَعــرِفُ لإِسْــحَاقَ في الدُّنْيَــا نَظِيْراً،قَــالَ الحَاكِــمُ: إِسْــحَاقُ بــنُ رَاهْوَيْــه إِمَــامُ عَــصْرِهِ فِي الحِفْــظِ وَالفَتْــوَى، سَــكَنَ نَيْسَــابُوْرَ، وَمَــاتَ بِهَــا: وَتُــوُفِّيَ: سَــنَةَ ثَمَــانٍ وَثَــلاَثِــيْنَ وَمائَتَــيْنِ، الذهبــي: ســير أعــلام النبــلاء ١١/ ٣٥٨ .

(٥٠) **الأوزاعــي:** عَبْــدُ الرَّحْمَــنِ بــنُ عَمْــرِو بــنِ يُحْمَــدَ، شَــيْخُ الإِسْــلاَمِ، وَعَالِــمُ أَهْــلِ الشَّــام، قِيْــلَ: كَانَ مَوْلِــدُهُ بِبَعْلَبَــكَّ، سَــنَةَ ٨٨، فِي حَيَــاةِ الصَّحَابَــةِ. ثُــمَّ تَحَــوَّلَ إِلَى بَــيْرُوْتَ مُرَابِطــاً بِهَــا إِلَى أَنْ مَــاتَ، سَــنَةَ ١٥٧، **احترقــت كُتُــبُ الأَوْزَاعِــيِّ زَمَــنَ الرَّجْفَــةِ**،عَــنْ مَالِــكٍ، قَــالَ: الأَوْزَاعِــيُّ إِمَــامٌ يُقتَــدَى بِــه، الذهبــي: ســير أعــلام النبــلاء ٧/ ١٠٧

(٥١) **أبــو عبيــد:** القَاسِــمُ بــنُ سَــلاَّمٍ بــنِ عَبْــدِ اللهِ،إِمَــامُ، الحَافِــظُ، المُجْتَهِــدُ، ذُو الفُنُــوْنِ، مَوْلِــدُ أَبِي عُبَيْــدٍ سَــنَةَ سَــبْعٍ وَخَمْسِــيْنَ وَمائَةٍ،وَهُــوَ مِــنْ أَئِمَّــةِ الاجْتِهَــادِ، لَــهُ: كِتَــابُ الأَمْــوَالِ، وَالغَرِيْــبِ وَكِتَــابُ فَضَائِــلِ القُــرْآنِ، وَكِتَــابُ (**الطَّهُــوْرِ**، وَكِتَــابُ (**النَّاسِــخِ وَالمَنْسُــوْخِ**توفي سنة 224 هــ)، الذهبــي: ســير أعــلام النبــلاء 10/490

(٥٢) **عبــد اللــه بــن شــبرمة:** الإمــام العلامــة **فقيه العــراق، قاضي الكوفــة**، كان ومغيرة والحــارث العكلي يســهرون في الفقــه، تــوفي ســنة ١٤٤هج، الذهبــي :ســيرأعلام النبــلاء ٦/ ٣٤٨ .

(٥٣) ابــن عبــد البــر: التمهيــد (٤/ ٥٩-٦٠)، ابــن رشــد:بداية المجتهــد ونهايــة المقتصــد (٢/ ٣٦)، دار الحديــث – القاهــرة، تاريــخ النــشر: ١٤٢٥هــ - ٢٠٠٤م، القــاضي عبــد الوهــاب: الإشراف عــلى نكــت مســائل الخــلاف،١/ ٣٨٦، طبعــة دار ابــن حــزم، ط ١، ١٤٢٠هــ - ١٩٩٩،، اللخمي :التبــصرة ٣/ ٩٤٢،، طبعــة وزارة الأوقــاف والشــؤون الإســلامية، قطــر، ط١، ١٤٣٢ هــ - ٢٠١١

(٥٤) **ربيعــة الــرأي** :ربيعــة بــن أبي عبــد الرحمــن فــروخ، الإمــام، مفتي المدينة، وعــالم الوقــت أبــو عثــمان، كان مــن أئمــة الاجتهــاد، ومــن أوعيــة العلم ،الذهبــي: ســير أعــلام النبــلاء٦/ ٩٠ ومــا بعدهــا.

(٥٥) ابن حزم:المحلى بالآثار ٤/ ٢١١،المحقق: عبدالغفار سليمان البنداري، دار الفكر - بيروت،د ت.

(٥٦) أبــو داود:الســنن في الزكاة،بــاب في تعجيــل الزكاة،رقــم : (١٦٢٤)، والترمذي:الجامــع في الزكاة،بــاب مــا جــاء في تعجيــل الزكاة،رقــم: (٦٧٨، وابــن ماجــه: الســنن في الزكاة،بــاب تعجيــل الــزكاة قبــل محلها،رقــم: (١٧٩٥)، وضعفــه أحمــد، وقــال: ليــس بــشيء، القــرافي : الذخــيرة٣/ ١٣٧ .

واستدل بتقديم ابن عمر لزكاة الفطر: { وَكَانُوا يُعْطُونَ قَبْلَ الْفِطْرِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ} .[٥٧]

القياس :المالية قبل تمام شروط وجوبها، كالمتاع قبل السَّراح، والكفَّارة قبل الحِنْث، ومثلها الزكاة.[٥٨]

والقياس على جواز تعجيل قضاء الدين قبل حلول الأجل، وأداء كفارة اليمين بعد الحلف وقبل الحنث، وكفارة القتل بعد الجرح قبل الزهوق.

واستدل أيضاً بالحديث: استسلَفَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ بَكْراً، فجاءتهُ إبلٌ منَ الصَّدقةِ، قالَ أبو رافعٍ: فأمرَني رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أن أقضيَ الرَّجلَ بَكْرَهُ، فقلتُ: لا أجدُ في الإبلِ إلَّا جملاً خِيارًا رباعيًا، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ : {أعطه إياه فإن خيار الناس أحسنهم قضاءً} .[٥٩]

وقال الخطابي[٦٠] : الأجل إذا دخل في الشيء رفقاً بالإنسان؛ فإن له أن يسوس من حقه ويترك الارتفاق به، كمن عجل حقاً مؤجلا لآدمي، وكمن أدى زكاة مال غائب عنه، وإن كان على غير يقين من وجوبها عليه، لأن من الجائز أن يكون ذلك المال تالفاً في ذلك الوقت .

ولكن نصّ الحنابلة: على أن أداءها حين وجوبها أفضل، خروجا من الخلاف. وجماهيرهم: أن ما لا يشترط فيه الحول لا يجوز تعجيله، خلافاً لبعض الشافعية في الع شر.....

ونص الشافعية والحنابلة في الخارج من الأرض أنه يشترط أن يكون التعجيل بعد نبات الزرع وطلوع الطلع في النخل، لأنه إن عجل قبل عجله على سببه، فلم يجز، كمن يقدم زكاة المال على النصاب[٦١] .

أدلة القول الثاني:

الحديث: {لا زكاة على مال حتى يحول عليه الحول}[٦٢] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {من استفاد مالاً فلا زكاة فيه حتى يحول عليه الحول عند ربه}، قال الترمذي: وقد روي موقوفا على ابن عمر[٦٣].

---

(٥٧) الشافعي: الأم ٦٧/٧-٦٦. البخاري: الصحيح في الزكاة،باب صدقة الفطر على الحر والمملوك،رقم:(١٥١١).

(٥٨) الشافعي: الأم ٦٧/٧.

(٥٩) مسلم:الصحيح في المساقاة، باب جواز اقتراض الحيوان واستحباب توفيته خيراً مما عليه،رقم (١٦٠٠)، وانظر الماوردي :الحاوي الكبير ١٥٩./٣المحقق: الشيخ علي محمد معوض - الشيخ عادل أحمد عبد الموجود الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - الطبعة: الأولى، 1419 هـ -1999 م.

(٦٠)**الخطابي**: الإمام العلامة، الحافظ اللغوي، أبو سليمان، حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي، صاحب التصانيف، ولد سنة بضع عشرة وثلاثمائة،له شرح الأسماء الحسنى « وكتاب : الغنية عن الكلام وأهله «، وغير ذلك،توفي الخطابي ببست في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة،الذهبي : سير أعلام النبلاء 17/ 23.
المطبعة العلمية - حلب الطبعة: الأولى ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م. (2/54 (6) الخطابي: معالم السنن

(٦١) المرداوي: الشرح الكبير المطبوع مع المقنع والإنصاف،١٩٠/٧، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي - د عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة، القاهرة -،الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م البهوتي: كشاف القناع (١٠٤/٥.

(٦٢) الترمذي:الجامع في الزكاة،باب ما جاء لا زكاة على المال حتى يحول عليه الحول،رقم :(٦٣٢)،أبو داود :السنن في الزكاة،باب في الزكاة السائمة،رقم:(١٥٧٣)، ابن ماجه:السنن في الزكاة،باب من استفاد مالاً،رقم : (١٧٩٢).

(٦٣) الترمذي : الجامع في الزكاة،باب ما جاء لا زكاة على المال حتى يحول عليه الحول،رقم :(٦٣٢) .

وجــه الدلالــة: أن للــزكاة وقتــاً، فــلا يجــوز تقديــم العبــادة عــن وقتهــا، مثــل غيرهــا مــن العبــادات، واســتدل مالــك أيضــاً :بــأن الــذي أدّاهــا قبــل أنْ يتقــارب ذلــك بمنزلــة الــذي يصــلّي الظهــر قبــل أن تــزول الشــمس.[٦٤] .

المطلب الثاني:المناقشة والترجيح

حديث{مــن اســتفاد مــالاً فــلا زكاة فيــه حتــى يحــول عليــه الحول} قــال الترمــذي: وقــد روي موقوفــاً عــلى ابــن عمــر.

جــوّز المالكيــة: تقديــم زكاة العــين والماشــية بزمــن يســير كشــهر مــع الكراهــة[٦٥] ،في تقديــم الــزكاة عــن وقتهــا مصلحــة للمتضرريــن بجائحــة كورونــا وهــي تختلــف عــن العبــادة كالصــلاة التــي هــي مؤقتــة بوقــت محدد،فالهــدف مــن هــذه خــاص، ومــن الــزكاة عــام فيختلفــان.

قرار مجمع الفقه والترجيح:

أجــاز مجمــع الفقــه الإســلامي تعجيــل الــزكاة مــن أجــل التعويــض عــلى أضرار فــيروس كورونــا وهــم الفقهــاء المعــاصرون: وهــذا قــرار مجمــع الفقــه الإســلامي القائــل: يجــوز تعجيــل الــزكاة لعــام أو عامــين بســبب جائحــة كورونــا مــع كــون المــال بلــغ نصابــاً، وكــذا يجــوز تأخيرهــا بــشروط ضيقــة في حــال تعــذر وصــول المــال حقيقــة أو حكــما، أو القــدرة عــلى تحويلــه للمســتحق[٦٦] .

الترجيــح: يترجــح جــواز تعجيــل الــزكاة لعــام أو عامــين مــع كــون المــال بلــغ نصابــاً نظــراً لقــوة أدلــة القائلــين بــه، وبســبب جائحــة كورونــا التــي تجعلنــا نقــدم المصلحــة العامــة والراجحــة وهــي معالجــة آثــار هــذه الجائحــة .

الفصل الثاني : الإنفاق على مرضى كورونا وعلى المستشفيات التي تعالجهم.

المبحث الأول: الإنفاق على مرضى كورونا من الزكاة:

المطلب الأول: آراء الفقهاء المعاصرين

اجتهــدت المؤسســات العلميــة في العــالم الإســلامي لإصدارالفتــوى المناســبة في حكــم الحالــة المذكــورة، واختلفــت اســتنباطاتهم في تكييــف الحكــم مــن أجــل الوصــول الى القرارالموافــق لمقاصــد التشريــع الإســلامي، نذكــر بعــض الفتــاوى، وهــي تبيــح الإنفــاق عــلى المــرضى والمستشــفيات.

١ - مجمع الفقه الإسلامي:

ب- يجوز الصرف من الزكاة في تكاليف علاج من أصيب بمرض كورونا إذا كان فقيراً.

(٦٤) المدونة ١/٣٣٥، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

(٦٥) (5 القرافي:الذخيرة 3/137.

(٦٦) توصيات النــدوة الطبيــة الفقهيــة الثانيــة لهــذا العــام، والتــي عقــدت عــبر تقنيــة مؤتمــرات الفيديــو يــوم ١٦ ابريــل ٢٠٢٠، تحــت عنــوان «فــيروس كورونــا المســتجد (كوفيــد ـــ ١٩ ومــا يتعلــق بــه مــن معالجــات طبيــة وأحــكام شرعية.

جـ – لا يجوز صرف أموال الزكاة مباشرة للجهات الرسمية لتأجير المحاجر الصحية.

د – المنقطع الذي ليس له ما يرجع به إلى بلده بسبب الإجراءات الاحترازية لمكافحة الفيروس فإنه يعطى من الزكاة قدر ما يصل به إلى بلده ولو كان ذا يسار في بلده[٦٧] .

٢ – دار الإفتاء المصرية: جاء في أجوبة دار الإفتاء المصرية جواز دفع الزكاة إلى المستشفيات التي جرى العرف أنها تعالج المرضى الفقراء مجاناً، لاسيما الزكاة للمصابين بكورونا . وبنوا الفتوى على أن الزكاة تمليك للفقراء لسد حاجتهم، ولا شك أن الحاجة للدواء حاجة مُلِّحَة؛ فلا حرج أن نعطي من الزكاة ما يرفع هذه الحاجة.

كما بنوها على قول جمعٍ من الفقهاء الذين أجازوا صرف الزكاة إلى جميع وجوه الخير من المصالح العامة، والتي لا يختص بالانتفاع بها شخص محدد، كالمستشفيات الحكومية التي يلجأ إليها المرضى الفقراء وذوي الدخل المحدود؛ وذلك تفسيرًا لقوله – تعالى: في مصارف الزكاة { وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ }[٦٨] [٦٩] .

تقول دار الإفتاء: يجوز صرف الزكاة في دعم المستشفيات المجانية بما يرجع بشكل مباشر في علاج فقراء المرضى إلَّا كالأجهزة اطبية والدوية والمستلزمات والأسرة ..عملاً بقول بعض العلماء الذين جعلوا مصرف (وفي سبيل الله مجالاً للتوسع في صرف الزكاة في كل القرب وسبل الخير ومصالح الناس عند الحاجة إلى ذلك [٧٠] .

٣ – المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث: أجاز المجلس دفع زكاة المال أو زكاة الفطر للمستشفيات في ظل أزمة كورونا، وبنى هذا الفتوى على مبدأ التعاون على البر المطلوب شرعاً من المسلمين، فقال: ودعم المستشفيات هو ضرب من ضروب التعاون على البرّ ومن صور فعل الخير، ويمكن أن يكون ذلك كلّه من مال الصدقة التي تعدّ من الحقوق الواجبة في المال، علماً بأنّه لا حدَّ للصدقة، حيث يمكن للمرء أن يتصدّق بما يزيد على مقدار الزكاة الواجبة، شريطة ألّا يؤدّي ذلك إلى الإخلال بحاجات من يعولهم من أهله [٧١].

ولعل ما أدلى به الدكتور خالد حنفي – الأمين العام المساعد للمجلس الأوربي للإفتاء والبحوث – في تصريحاته للجزيرة مباشر، يفيدنا في تفسير البيان الرسمي من مجلس الإفتاء الأوروبي، فقد قال حنفي: الرأي الذي نرجحه هو جواز إعطاء غير المسلم من الزكاة، فإذا كانت المستشفى قاصرة على الفقراء من المسلمين وغير المسلمين جاز دفع الزكاة لها. كفاية المحتاجين في الزكاة في النموذجين السابقين كان أحد مبررات دفع الزكاة للمصابين بكورونا أن الحاجة القائمة تهدد حياة العالم – جائحة كورونا – ويلزم تقديم العون والمساعدة للحد منه، كل حسب طاقته[٧٢] .

فهذه أكبر المؤسسات الفقهية في العالم الإسلامي والتي تمارس الإجتهاد الجماعي تبيح دفع

(٦٧) مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة التعاون الإسلامي توصيات الندوة الطبية الفقهية الثانية لهذا العام، والتي عقدت عبر تقنية مؤتمرات الفيديو يوم ١٦ ابريل ٢٠٢٠، تحت عنوان «فيروس كورونا المستجد (كوفيد ـــ ١٩ وما يتعلق به من معالجات طبية وأحكام شرعية» .

(٦٨) سورة التوبة:الآية: ٦٠.

(٦٩)، المفتي د علي جمعة رقم الفتوى A9،٢٢٤٢ https://www.dar-alifta.org/ar/fatawa/

(٧٠)، المفتي د علي جمعة رقم الفتوى A9،٢٢٤٢ https://www.dar-alifta.org/ar/fatawa/

(٧١) البيان الختامي للجلسة التكميليّة للدورة الطارئة الثلاثين للمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث المنعقدةبتقنية التواصل .cfr https://www.e-org/blog/2020/04/17/ (نيسان 2020 الشبكي شعبان ١٤٤١ه

(٧٢) : https://islamonline.ne الزكاة للمصابين بكورونا، نظرة في أقوال الفقهاء – إسلام أون لاين

الـزكاة لعـلاج المـرضى الفقـراء في المستشـفيات، وللمستشـفى نفسـه. وبنـاء عـلى ذلـك: يجـوز دفـع الـزكاة لعـلاج المـرضى بكورونـا وعـلى المستشـفيات التـي تعالجهـم.

المطلب الثاني: الكفاية للفقراء من أموال الزكاة:

هـذه نبـذه مـن أراء الفقهـاء تبـين المقـدار الـذي يُعطـى للفقـير والمسـكين مـن مـال الـزكاة، ليتبـين إن كان المريـض بكورونـا يحـق لـه الأخـذ مـن مـال الـزكاة لينفقـه عـلى العـلاج أم لا ؟ اختلـف الفقهـاء في ذلـك عـلى أقـوال ثلاثـة:

القـول الأول: إعطـاء الفقـير والمسـكين مـن الـزكاة أقـل مـن النصـاب - مائتـي درهـم - فـإن أعطـي قـدره أو أكـثر جـاز مـع الكراهـة، وهـو المذهـب عنـد الحنفيـة[٧٣] .

القـول الثـاني: إعطـاء الفقـير والمسـكين مـن الـزكاة مـا يكفيهـما ويكفـي مـن يعولـون سـنة كاملـة، وهومذهـب المالكيـة[٧٤]، وقـول للشـافعية[٧٥]، ومذهـب الحنابلـة[٧٦] .

القـول الثالـث: إعطـاء الفقـير والمسـكين مـن الـزكاة مـا تحصـل بـه الكفايـة عـلى الـدوام، وهـو المذهـب لـدى الشـافعية[٧٧]، وروايـة عنـد الحنابلـة، ورجحـه ابـن تيميـة [٧٨]،وهـو قرارفتـاوى وتوصيـات النـدوة الثامنـة، لقضايـا الـزكاة المعـاصرة المنعقـدة في قطـر[٧٩] .

دليل القول الأول: أن إعطاء الفقير نصاباً أو أكثر يصيره غنياً [٨٠].

دليل القول الثاني: أن وجوب الزكاة يتكرر كل حَوْل، فينبغي أن يأخذ ما يكفيه إلى مثل.[٨١]

أدلة القول الثالث:

استدلوا بحديث قبيصة بن المخارق رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(٧٣) (الكاساني،بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: 2/ 48 .

(٧٤) الحطـاب: مواهـب الجليـل لـشرح مختـصر خليـل،، ٢/ ٣٤٣،دار الفكـر، الطبعـة الثالثـة، ١٤١٢ هـ شرح مختـصر خليـل، لمحمـد بـن عبـد اللـه الخـرشي،، دار الفكـر.. 2/ 215،

(٧٥) النـووي: المجمـوع شرح المهـذب، دار الإرشـاد، تحقيـق وإكـمال محمـد نجيـب المطيعـي ٦/ ١٧٥، تحفـة المحتـاج في شرح المنهـاج ٧/ ١٦٤، المكتبـة التجاريـة الكـبرى بمـصر،د ط،عـام: ١٣٥٧ هـ - ١٩٨٣ م.

(٧٦) البهـوتي: شرح منتهـى الإرادات المسـمى: ١/ ٤٥٣، عـالم الكتـب، بـيروت الطبعـة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م،منصـور البهـوتي: كشـاف القنـاع عـلى مـتن الإقنـاع ٢/ ٢٨٤، دار الفكـر، بـيروت، لبنـان سـنة ١٤٠٢ هـ.

(٧٧) الشربينـي: مغنـي المحتـاج إلى معرفـة معـاني ألفـاظ المنهـاج ٤/ ١٨٦،. قـال النـووي في المجمـوع ٦/ ١٩١: قـال أصحابنـا: والمعتـبر في قولنـا يقـع موقعـا مـن كفايتـه: المطعـم والملبـس والمسـكن، وسـائر مـا لا بـد منـه عـلى مـا يليـق بحالـه، بغـير إسراف ولا إقتـار لنفـس الشـخص ولـمن هـو في نفقتـه. تحفـة المحتـاج في شرح المنهـاج ٧/ ١٦٤

(٧٨) ينظر: المرداوي: الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف ٧/ ٢٥٦ (المطبوع مع المقنع والشرح الكبير)

(٧٩) جـاء في فتـاوى وتوصيـات نـدوات قضايـا الـزكاة المعـاصرة مـا يـلي: «يُقصـد بالكفايـة كل مـا يحتـاج إليـه هـو ومَـن يعولهـم مـن مطعـم وملبـس ومسـكن وأثـاث وعـلاج وتعليـم أولاده وكتـب علـم إن كان ذلـك لازمـا لأمثالـه وكل مـا يليـق بـه عـادة مـن غـير إسراف ولا تقتير:توصيـات النـدوة الثامنـة، لقضايـا الـزكاة المعـاصرة المنعقـدة في قطـر في الفـترة مـن (٢٣-٢٦ ذو الحجـة ١٤١٨ هـ/الموافـق ٢٠-٢٣/٤/١٩٩٨ م تنظيـم الهيئـة الشرعيـة العالميـة للـزكاة.

(٨٠) بدائع الصنائع ٢/ ٤٨.

(٨١) البهوتي:كشـاف القنـاع عـن مـتن الإقنـاع ٢/ ٢٨٤ . راجعـه وعلّـق عليـه: هـلال مصيلحـي مصطفـى هـلال ، مكتبـة النـصر الحديثـة بالريـاض، الطبعـة: د ت ط ، وصَوّرتْهـا: دار الفكـر ببـيروت، ودار عـالم الكتـب ببـيروت.

قال :يا قَبيصةُ، إنَّ المَسألةَ لا تَحِلُّ إلَّا لأحَدِ ثلاثةٍ: رجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالةً فحَلَّتْ له المَسألةُ، فسألَ حتى يُصيبَها، أو يُمسِكَ، ورجُلٍ أصابَتْه جائحةٌ فاجتاحَتْ مالَه، فحَلَّتْ له المَسألةُ، فسألَ حتى يُصيبَ قِوامًا مِن عَيشٍ، أو قال: سِدادًا مِن عَيشٍ، ورجُلٍ أصابَتْه فاقةٌ حتى يقولَ ثلاثةٌ مِن ذَوي الحِجا مِن قَومِه: لقد أصابَتْ فُلانًا الفاقةُ، فقد حَلَّتْ له المَسألةُ، فسألَ حتى يُصيبَ قِوامًا أو سِدادًا مِن عَيشٍ، ثمَّ يُمسِكَ، وما سِواهنَّ مِن المَسألةِ يا قَبيصةُ سُحتٌ، يأكُلُها صاحِبُها سُحتًا [٨٢] .

: وجه الدلالة أن النبي صلى الله عليه وسلم أجاز المسألة للمحتاج حتى يصيب ما يسد حاجته، فدل على إعطائه ما تحصل به الكفاية على الدوام[٨٣] .

أن القصد إغناؤه من الفقر، ولا يحصل إلا بذلك[٨٤].

مناقشة قول الحنفية: أن إعطاء الفقير نصاباً أو أكثر يصيره غنياً :

يناقش: بعدم التسليم بحصول الإغناء بهذا المقدار،، ثم لو حصل فإنه لا يتحقق غناه إلا بعد القبض، وأما قبله فهو فقير، ولا مانع من إغنائه عن الفقر من الزكاة[٨٥] .

مناقشة قول المالكية والحنابلة: أن وجوب الزكاة يتكرر كل حَوْل، فينبغي أن يأخذ ما يكفيه.

يُناقش :بأنه قد لا يتمكن من أخذ الزكاة كل حول، كما أن أخذه ما يكفيه من الزكاة يغنيه عن زكاة الأعوام القادمة، فيستفيد منها غيره من الفقراء[٨٦] .

الترجيح:

يترجح القول الثالث القائل بإعطاء الفقير والمسكين من الزكاة ما تحصل به الكفاية على الدوام، للأسباب التالية:

- كان من سياسة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال: (إذا أعطيتم فأغنوا[٨٧] .

يقول النووي: والمعتبر في قولنا يقع موقعاً من كفايته المطعم والملبس والمسكن وسائر مالا بد له منه على ما يليق بحاله بغير إسراف ولا إقتار لنفس الشخص ولمن هو في نفقته [٨٨] .

وجاء في حاشية الدسوقي: يجوز أن يدفع من الزكاة للفقير في مرة واحدة من عين أو حرث أو ماشية كفاية سنة من نفقة وكسوة، وإن اتسع المال زيد العبد ومهر الزوجة [٨٩] .

يقول الخطابي: الحد الذي ينتهي إليه العطاء في الصدقة هو الكفاية التي تكون بها قوام

(٨٢) مسلم : الصحيح في الزكاة، باب من تحل له المسألة، رقم :(١٠٤٤)

(٨٣) النووي : المجموع ٦/ ١٧٥ .

(٨٤) ابن حجر الهيثمي: تحفة المحتاج في شرح المنهاج ٧/ ١٦٤،المكتبة التجارية بمصر،د ط،عام: ١٣٥٧ هـ - ١٩٨٣ م.

(٨٥) ينظر: بدائع الصنائع ٢/ ٤٨ .

(٨٦) الغفيلي : نوازل الزكاة ٣٥٨ .

(٨٧) عبد الرزاق بن همام الصنعاني،مصنف عبد الرزاق: ٤/ ٤٤٩. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣ هـ)، زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري ١/ ٣٩٤ . أسنى المطالب في شرح روض الطالب ومعه حاشية الرملي الكبير، دار الكتاب الإسلامي،د ط، د ت.

(٨٨) المجموع شرح المهذب (٦/ ١٩١). **النووي** : محي الدين يحيى بن شرف والنووي نسبة الى مدينة في حران ولد سنة 631 هج ترك كمًا من المؤلفات منها: **المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج،ورياض الصالحين،والأذكار** وغيرها،توفي سنة ٦٧٦ هج ودفن في نوى،،السبكي :طبقات الشافعية الكبرى ٥/ ١٦٥-١٦٦،دار المعرفة- بيروت،د.ت، النعيمي، عبد القادر: الدارس في تاريخ المدارس ٦/ ٣٦، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٠م.

(٨٩) الشيخ الدردير: الشرح الكبير وحاشية الدسوقي: دار الفكر الطبعة: د. ط د. ت (١/ ٤٩٤).

العيش وسداد الخله وذلك يعتبر في كل إنسان بقدر حاله ومعيشته ليس فيه حد معلوم يحمل عليه الناس كلهم مع اختلاف أحوالهم [٩٠] .

قال في حاشية الروض المربع: ومن تمام الكفاية ما يأخذه الفقير ليتزوج، إن لم يكن له زوجة، واحتاج إلى النكاح [٩١] .

جاء في فتاوى وتوصيات ندوات قضايا الزكاة المعاصرة ما يلي: يُقصد بالكفاية كل ما يحتاج إليه هو ومَن يعولهم من مطعم وملبس ومسكن وأثاث وعلاج وتعليم أولاده وكتب علم إن كان ذلك لازما لأمثاله وكل ما يليق به عادة من غير إسراف ولا تقتير. وهو من أجود ما يكون في تعريف الكفاية [٩٢] .

وخلاصة القول: أن دفع الزكاة لعلاج المصابين بمرض كورونا ليس أمراً طارئاً، ويوجد من آراء الفقهاء ما يدل على جوازه، ولا يتعارض مع الكفاية المعتبرة في القدر المحدد للفقيرلأن علاج الفقير يدخل في الكفاية.

المبحث الثاني : الإنفاق من مال الوقف على المستشفيات.

المطلب الأول: حكم الإنفاق من مال الوقف على المستشفيات وأوقافها.

قبل أن نبدأ بتبيان حكم الإنفاق من مال الوقف لا بد أن نعرف الوقف لغة واصطلاحاً

تعريف الوقف: الوقف لغة:

الوقف الحبس والمنع،، ويُشتهر استعمال المصدر باسم المفعول، فيقال: هذه الدار وقف، أي موقوفة، وتَحبيسُ الشيءِ: أن يُبَقَّى أصْلُهُ، ويُجْعَلَ ثمَرُهُ في سَبيلِ اللهِ،و كُلُّ مَا حُبِسَ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ حَبِيسٌ [٩٣].

تعريف الوقف اصطلاحاً: اختلف الفقهاء في تعريف الوقف على أقوال عدة:

ذهب أبو حنيفة إلى أن الوقفَ حبسُ العين على حكم ملك الواقف، والتصدق بالمنفعة ولو في الجملة، ومعناه بقاء العين على ملك الواقف، مع منعه من التصرف فيها[٩٤].

وذهب الصاحبان من الحنفية، إلى أن الوقف: حبس الواقف العين الموقوفة على حكم ملك الله تعالى، على وجه تعود منفعته إلى العباد[٩٥] .

وذهب المالكية إلى أن الوقف من حيث هو مصدر هو: إعطاء منفعة شيء مدة وجوده لازماً

---

(٩٠) الخطابي حمد بن محمد: معالم السنن وهو شرح سنن أبي داود (٢/ ٦٨.

(٩١) عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي: حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع (٣/ ٣١١ الطبعة الأولى - ١٣٩٧ هـ).

(٩٢) من فتاوى وتوصيات الندوة الثامنة، لقضايا الزكاة المعاصرة المنعقدة في قطر، في الفترة من (٢٣-٢٦ ذو الحجة ١٤١٨ هـ/الموافق ٢٠-٢٣/٤/١٩٩٨ م تنظيم الهيئة الشرعية العالمية للزكاة

(٩٣) ابن منظور :لسان العرب: /6 45،، الفيروز آبادي : القاموس المحيط ص٥٣٧:. تحقيق: مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط٨، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

(٩٤) الدر المختار وحاشية ابن عابدين عليه ٣/٣٥٧-٣٥٨، علي الفرغاني المرغيناني:الهداية شرح بداية المبتدي ٣/١٥. المحقق: طلال يوسف الناشر: دار احياء التراث العربي - بيروت - لبنان

(٩٥) الدر المختار وحاشية ابن عابدين عليه ٣/٣٥٧-٣٥٨، والهداية ٣/١٥.

بقـاؤه في ملـك معطيـه ولـو تقديـراً، ومـن حيـث هـو اسـم مـا أُعطيَـت منفعتـه مـدة وجـوده.[٩٦] .
وعرَّفـه الشـافعية بأنـه: حبـس مـال يمكـن الانتفـاع بـه مـع بقـاء عينـه بقطـع التـصرف في رقبتـه عـلى مـصرف مبـاح موجـود. [٩٧]. وعرَّفـه الحنابلـة بأنـه: هُـوَ تَحْبِيـسُ الْأَصْـلِ وَتَسْـبِيلُ الْمَنْفَعَـةِ[٩٨] .
التعريـف المختـار: هُـوَ تَحْبِيـسُ الْأَصْـلِ وَتَسْـبِيلُ الْمَنْفَعَـةِ، وهـو تعريـف الحنابلـة بسـبب مـا يتمتـع بـه مـن الدقـة والشـمولية وأنـه جامـع مانـع.

المطلب الثاني:الإنفاق من مال الوقف على المستشفيات الموقوفة[٩٩] أثناء الجوائح.

اختلف الفقهاء في مسألة الإنفاق من مال الوقف على المستشفيات الموقوفة، على قولين :
القـول الأول: يجـوز بأمـر الحاكـم كديـن يـرد وهـو قـول الحنفيـة[١٠٠]، وهـو قـول مجمـع الفقـه الإســلامي[١٠١] .
القول الثاني: الجواز وهو وجه عند الحنفية[١٠٢]،وهو قول المالكية[١٠٣] وقول عند الحنابلة[١٠٤] .
نصـوص فقهـاء القـول الأول: جعـل الأحنـاف أمـر مـال الوقـف أثنـاء الجوائـح والأوبئـة للحاكـم فيأخـذه عـلى أن يكـون دينـاً يـرده مـن خزينـة الدولـة وذلـك عنـد أخـذه مـن أوقـاف المسـاجد أو الفقـراء.
جـاء في فتـاوى قاضيخـان: إذا اجتمـع مـن مـال الوقـف عـلى الفقـراء أو عـلى المسـجد الجامـع ثـم نابـت الإسـلام نائبـة بـأن غلبـت جماعـة مـن الكفـرة فاحتيـج في ذلـك إلى مـال لدفـع شرهـم قـال رحمـه اللـه تعـالى مـا كان مـن غلـة المسـجد الجامـع يجـوز للحاكـم أن يـصرف ذلـك عـلى وجـه القـرض إذا لم يكـن للمسـجد حاجـة إلا ذلـك المـال و يكـون ذلـك دينـاً [١٠٥] .
وأمـا المـال الموقـوف عـلى الفقـراء إذا حـل الوبـاء فقـد جـاء تفصيلـه في الفتـاوى الهنديـة: وأمـا المـال الموقـوف عـلى الفقـراء فهـذا عـلى ثلاثـة أوجـه: إمـا أن يـصرف إلى المحتاجـين، أو إلى الأغنيـاء مـن أبنـاء السـبيل، أو إلى الأغنيـاء مـن غـير أبنـاء السـبيل،في الوجـه الأول والثـاني جائـز لا عـلى وجـه القـرض.
وفي الوجـه الثالـث المسـألة عـلى قسـمين: إمـا أن رأى قـاض مـن قضـاة المسـلمين جـواز ذلـك أو لم يـر

(٩٦) محمـد عليـش :منـح الجليـل شرح مختـصر خليـل ٨/١٠٨، دار الفكـر - بـيروت الطبعـة: الأولى،: ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م دار الفكـر، بـيروت،ط أخـيرة-١٤٠٤

(٩٧) محمد بن أحمد بن حمزة الرملي: نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، ٥/ ٣٨٥،
هـ-١٩٨٤م، الأنصاري : أسنى المطالب في شرح روض الطالب ٢/٤٥٧،ومعه حاشية الرملي،دار الكتاب الإسلامي د ت،

(٩٨) ابـن قدامـة : الـشرح الكبـير ٦/١٨٥، مطبعـة المنـار، عـام النـشر: ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣، المـرداوي: الإنصـاف:٣/٧. مطبعـة السـنة المحمديـة الطبعـة: الأولى، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م.

(٩٩) تمتلـك جامعـة كامـبردج أوقافـاً بمبلـغ ٨,٢ مليـار دولار، وجامعـة أكسـفورد بمبلـغ ٥,٧ مليـار دولار، وجامعـة http://www.allwatannews.net/article/Bahrain/882681 تورنتوالكنديـة حيـث تبلـغ أوقافهـا ٢,٥٩٠ مليـار دولار.

(١٠٠) فتـاوى قاضيخـان ٣/ ١٧٧، دار الكتـب العلميـة، بـيروت، نظـام الديـن البرنهابـوري : الفتـاوى العالمكيريـة المعروفـة بالفتـاوى الهنديـة ٢/ ٤٦٤. مطبعـة الكـبرى الأميريـة ببـولاق مـصر، الطبعـة: الثانيـة، ١٣١٠ هـ.

(١٠١) توصيـات النـدوة الطبيـة الفقهيـة الثانيـة لهـذا العـام، والتـي عقـدت عـبر تقنيـة مؤتمـرات الفيديـو يـوم ١٦ ابريـل ٢٠٢٠، بعنـوان «فـيروس كورونـا المسـتجد (كوفيـد ـــ ١٩) ومـا يتعلـق بـه مـن معالجـات طبيـة وأحـكام شرعيـة».

(١٠٢) الفتاوى الهندية ٢/ ٤٦٤.

(١٠٣) مسـائل أبي الوليـد ابـن رشـد :٢/ ١٢٤١، تحقيـق: محمـد الحبيـب التجـكاني، النـاشر: دار الجيـل، بـيروت - دار الآفـاق الجديـدة، المغـرب، الطبعـة: الثانيـة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م. نـوازل العلمـي: ٢ / ٣١٣ - ٣١٤-٣٤٤- ٣٤٥. تحقيـق المجلـس العلمـي بفـاس،وزارة الأوقـاف والشـؤون الإسـلامية بالمغرب.

(١٠٤) المبدع في شرح المقنع،٥ / ٣٥٥ - ٣٥٧. دار الكتب العلمية، بيروت - الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م ط قطر.

(١٠٥) فتاوى قاضيخان :٣/ ١٧٧، الفتاوى الهندية :٢/ ٤٦٤.

ففي القسم الأول جاز الصرف لا بطريق القرض، وفي القسم الثاني يصرف على وجه القرض فيصير دينا في مال الفيء، كذا في الواقعات الحسامية[١٠٦] .

أما فقهاء مجمع الفقه الإسلامي فقد أباحوا أن تقترض الدولة من مال الوقف أثناء كورونا. وهذا جزء من نتائج مؤتمر مجمع الفقه الاسلامي:

هـ – للوقف في زمن وباء كورونا دور بارز في التكافل الاجتماعي من خلال تفريج الكربات وسد حاجات الأفراد والدولة تحقيقا لحفظ المقاصد الضرورية.

و – يجوز اقتراض الدولة من ريع الأوقاف عند الضرورة كجائحة كورونا[١٠٧] .

نصوص فقهاء القول الثاني : قال الحنفية: في المال الموقوف على الفقراء:... وفي الوجه الثالث المسألة على قسمين: إما أن رأى قاض من قضاة المسلمين جواز ذلك أو لم ير ففي القسم الأول جاز الصرف....

لا بطريق القرض[١٠٨] . وبهذا قال فقهاء المالكية حيث قالوا: تفرغ الأحباس بعضها في بعض[١٠٩].

وجاء في نوازل العلمي: الأحباس كلها-إذا كانت لله- بعضها من بعض، وذلك مقتضى فتوى أبي محمد العبدوسي[١١٠]، كما نقل فتاوى بهذا الشأن للبرزلي[١١١] وابن ماجشون[١١٢] [١١٣].

وجاء فيهما أيضاً: قال أصبغ [١١٤] وابن ماجشون: إن ما يقصد به وجه الله يجوز أن ينتفع ببعضه من بعض، وروى أصبغ عن ابن القاسم مثل ذلك في مقبرة قد عفت فيبني قوم عليها مسجداً: لم أر به بأساً، قال: وكذلك ما كان لله فلا بأس أن يستعان ببعضه على بعض، وقد رأى بعض المتأخرين: أن هذا القول أرجح في النظر، لأن استنفاد الزائد في سبيل الخير أنفع للمحبس، وأنمى لأجره. [١١٥]

---

(١٠٦) الفتاوى الهندية: ٢/ ٤٦٤.

(١٠٧) توصيات الندوة الطبية الفقهية الثانية لهذا العام، والتي عقدت عبر تقنية مؤتمرات الفيديو يوم ١٦ ابريل ٢٠٢٠، تحت عنوان «فيروس كورونا المستجد وما يتعلق به من معالجات طبية وأحكام شرعية».

(١٠٨)الفتاوى الهندية :٢/ ٤٦٤.

(١٠٩) مسائل أبي الوليد ابن رشد :٢/ ٢٤١.

(١١٠) **العبدوسي** : عبد الله بن محمد العبدوسي إمام فقيه، عالم صالح، محدث حافظ، ولى الفتيا بالديار المغربية، وانتهت إليه الرياسة فيها، مؤلفاته: منها الفتاوى (نقلها الونشريسي في المعيار المعرب إلا أنه لم يجمعها في ديوان، سنة تسع وأربعين وثمانمائة،السخاوي: الضوء اللامع ٥/ ٦٧.

(١١١) **الإمام البُرْزُلي** المالكي أبو القاسم بن أحمد بن محمد البَلَوي القيرواني، المعروف بالبرزلي: أحد أئمة المالكية في المغرب، سكن تونس، وانتهت إليه الفتوى فيها. وكان ينعت بشيخ الإسلام، ولد في حدود سنة ٧٤١ هـ الموافق ١٣٤٠ وعمر طويلا قال السخاوي : توفي ب تونس عن مئة وثلاث سنين. من كتبه جامع مسائل الأحكام مما نزل من القضايا للمفتين .(5/172). والحكام، والديوان الكبير في الفقه توفي سنة ٨٤٤ هـ الموافق ١٤٤٠،الأعلام للزركلي

(١١٢) **ابن الماجشون**: العلامة الفقيه مفتي المدينة أبو مروان، عبد الملك بن الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة بن الماجشون التيمي مولاهم المدني المالكي، **تلميذ الإمام مالك،كان مفتي أهل المدينة في زمانه** توفي ٢١٣ هج وقيل : سنة أربع عشرة، الذهبي :سير أعلام النبلاء١٠/ ٣٥٩ ..

(١١٣) نوازل العلمي: ٢ / ٣١٣ – ٣١٤.

(١١٤) **أصبغ بن الفرج** بن سعيد بن نافع الفقيه المالك المصري له وقال عبد الملك بن الماجشون في حقه: ما أخرجت مصر مثل أصبغ، قيل له: ولا ابن القاسم قال: ولا ابن القاسم.مؤلفات منها كتاب الأصول في عشرة أجزاء، وتفسير غريب الموطأ، وكتاب آداب الصيام،توفي يوم الأحد لأربع بقين من شوال سنة خمس وعشرين ومائتين، ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢/ ٥٦ .،دار ابن كثير، دمشق - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

(١١٥) نوازل العلمي: ٢ / ٣٤٤ – ٣٤٥.

وقال العبدوسي في الجواب عن جمع أحباس فاس: يجوز جمعها، وجعلها نقطة واحدة وشيئاً واحداً لا تعدد فيه، وأن تجمع مستفادات ذلك كله، ويقام منه ضروري كل مسجد من تلك المستفادات المجتمعة [١١٦] .

وأفتى بعض علماء الحنابلة :بجواز عمارة وقف من ريع وقف آخر على جهته. قال في المبدع: ويصرف ثمنه- أي الموقوف في حالة بيعه- في مثله وزاد: أو بعض مثله قاله أحمد، لأنه أقرب إلى غرض الواقف،

ثم قال: وظاهر كلام الخرقي أنه لا يتعين المثل، واقتصر عليه في المغني، والشرح، إذ القصد النفع، لكن يتعين صرف المنفعة في المصلحة التي كانت الأولى أن تصرف إليها، لأن تغيير المصرف مع إمكان المحافظة عليه لا يجوز، وكذلك الفرس إذا لم يصلح للغزو بيع واشتري بثمنه ما يصلح للجهاد، وعنه رواية أخرى: يصرفه على الدواب الحبس، وما فضل من حصره وزيته جاز صرفه إلى مسجد آخر، والصدقة به على فقراء المسلمين.. واختاره الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وقال أيضاً: وفي سائر المصالح، وبناء مساكن لمستحق ريعه القائم بمصلحته[١١٧] .

فهذه الفتاوى تجعل النظر إلى جميع الجهات نظرة واحدة، قائمة على ذمة واحدة، حسب المصالح المعتبرة، وهذا ما رجحه ابن تيمية: فتتبع مصلحة الوقف، ويدار مع المصلحة حيث كانت.[١١٨] .

الخلاصة:

أن الوقف المتشابه يجوز جمع إنتاجه المالي في صندوق واحد،،ويجوز أيضاً بيع وقف قليل الإنتاج وضم ثمنه إلى وقف منتج أو لمصلحة راجحة، بل يجوز جمع جميع الأوقاف في ذمة واحدة ينفق منها على غيرها، على حسب مصلحة الوقف،والله أعلم .

أنظر بحث: استثمار الوقف وطرقه القديمة والحديثة إعداد أ. د. علي محيي الدين القره داغي مجلة مجمع الفقه الإسلامي (١٣/ ٤٩٤ التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة.

المبحث الثالث : الإنفاق من مال الوقف على المستشفيات التي ليس لها وقف،أثناء كورونا.

المطلب الأول: حكم الإنفاق على المستشفيات غير الموقوفة

اختلف العلماء في حكم الإنفاق على المستشفيات غير الموقوفة، على قولين:

(١١٦) المصدر السابق: ٢ / ٣٤٤ - ٣٤٥.

(١١٧) المبدع في شرح المقنع،: ٥ / ١٨٧- ١٨٨، بتصرف غير مخل.ترجمة ابن تيمية في الصفحة التالية. **ابن تيمية**:هو أحمد بن عبد الحليم الحراني،تقي الدين أبو العباس ولد بحران سنة 661 هج،العلامة الفقيه المفسر شيخ الإسلام،من مصنفاته: **مجموع الفتاوى و منهاج الإستقامة وتعارض العقل والنقل**، توفي في سجن دمشق سنة ٧٢٨ هج،صلاح الدين الصفدي:فوات الوفيات١/ ٧٤: دار صادر- بيروت ط١ ١٩٧٣ م.

(١١٨) مجموع الفتاوى: ٣١ / ٣٦١. جمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة – السعودية عام النشر: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤ م .

القــول الأول : ينفــق الحاكــم مــن خزينــة الدولــة فــإن عجــز فمــن الصدقــات والتبرعات،وهــو قــول المالكيــة.[١١٩]

القول الثاني : ينفق من مال الوقف بمشورة القضاة، وهووجه عند المالكية[١٢٠]، ووجه عند الشافعية [١٢١] ورجحه ابن تيمية من الحنابلة[١٢٢] .

نصوص فقهاء القول الأول :

وأمــا المالكيــة فقــد جعلــوا مــا لا وقــف عليــه أن ينفــق عليــه الســلطان مــن خزينــة الدولــة، فــإن عجــز يتوجــه الخطــاب للعامــة ويصبــح مــن فــروض الكفايــات، وفي تفصيــل ذلــك يقــول العلامــة الونشريــسي: « لابــد لمتــولي النظــر في الحبــس مــن مراعــاة قصــد المحبِّــس واتبــاع شرطــه إن كان جائــزاً, فــما خصــه المحبــس بنــوع لا يــصرف في غــير ذلــك النــوع, والأنــواع التــي لا حبــس عليهــا يجــب عــلى الإمــام وهــو الســلطان أن يفعلــه مــن بيــت المــال, فــإن عجــز الإمــام أو أهــل النظــر فيــه توجــه الخطــاب عــلى الجماعــة مــن بــاب فــروض الكفايــات التــي إن تــرك الجميــع أثمــوا، وإن قــام بهــا البعــض ســقط عــن الباقــين الفــرض[١٢٣] .

وهــذا الــذي قالــه الونشريــسي طبقــه أهــل الكويــت فقــد شــارك في المســاعدة كل مــن لــه قــدرة عــلى العطــاء بنفســه أو مالــه كل عــلى حســب اســتطاعته فتحــدث بهــا النــاس بــل وبمثــل هــذا يرفــع اللــه الوبــاء والبــلاء فجزاهــم اللــه خــيراً.

نصــوص فقهــاء القــول الثــاني:كان الحِكْــرُ حــلاًّ لمواجهــة البلايــا والأوبئــة، والحكــر: وهــو عَقْــدُ إجــارةٍ يُقصَــدُ بــه اســتبقاءُ الأرض مُقــرَّرةً للبنــاء والغــرس، أو لأحدهــما [١٢٤].

ففــي القاهــرة، ســنة ثــلاث وثلاثــين وثمــان مئــة للهجــرة؛ كان الطاعــون قــد حــلّ بمــصر، وأفنــى خلقــاً لا يُحصَــوْنَ، فجمــعَ السُــلطان المملــوكيُّ القضــاةَ الأربعــةَ، واســتفتاهم وقــال: «إنْ دام هــذا الطاعــونُ عــلى النّــاس خَرِبَــتْ مــصر»

فقالــوا: يــا مولانــا السُــلطان! لا تهتــمَّ؛ فــإنّ بمــصرَ أربعــةً وعشريــن ألــف حِكْــر فلــو مــات في كلّ يــومٍ مِــن كلّ حكــرٍ واحــدٌ، مــا تأثّــرتْ لــه مــصر، ومــوتُ الحِكْــر هنــا بمعنــى بَيْــع عقــارات الوَقْــف الخــيريّ التــي حُكّــرت، أو العقــارات الأميريَّــة المُحَكَّــرَة، وصرف الثمــن، في هــذا الظــرف الطــارئ؛ لــدرء هذه المفســدة العامــة، ومــن إطلاقــات الحِكْــر أنّــه يُطْلَــق عــلى الأرض دون الأَنْقــاض[١٢٥] .

وقــد ســئل العلامــة الونشريــسي عــن: المصالــح التــي تــصرف فيهــا فضلــة الحبــس (الوقــف.. ؟ فــكان مــما أجــاب: الشــطر الــذي يَفضُــل يــصرف في مثلهــا...، وهــذا هــو الــذي ارتضــاه بعــض العلــماء.... وإن

(١١٩) الونشريسي : المعيار المُعْرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب، (٥/ ٣٦٣).تحقيق محمد عثمان، دار الكتب العلمية – بيروت،

(١٢٠) فتاوى الونشريسي (٥/ ٣٦٣).

(١٢١) نهايــة المحتــاج إلى شرح المنهــاج (٥/ ٣٩٦) الجويني:نهايــة المطلــب في درايــة المذهــب (٨/ ٣٥١-٣٥٤) دار المنهاج،الطبعــة: الأولى، ١٤٢٨هـــ-٢٠٠٧م.نهايــة المحتــاج إلى شرح المنهــاج (٥/ ٣٩٦)

(١٢٢) مجمــوع الفتــاوى: ٣١ / ٣٦١. نقــلاً عــن بحــث: اســتثمار الوقــف وطرقــه القديمــة والحديثــة إعــداد أ. د. عــلي محيــي الديــن القــره داغي،مجلــة مجمــع الفقــه الإســلامي (١٣/ ٤٩٤) التابــع لمنظمــة المؤتمــر الإســلامي بجــدة.

(١٢٣) فتاوى الونشريسي (٥/ ٣٦٣).

(١٢٤) ابن عابدين: حاشية رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار ٤/ ٣٩١،

(١٢٥) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢: ١٣١. الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة: ١٤٠٤ -، م.١٩٨٤

صرف في غير ذلك مما هو مصلحة للمسلمين، فقد قيل ذلك وعمل به بعض قضاة قرطبة رحمهم الله، فهذا ما ظهر لي، والقاضي يجتهد ويُراعي الأصلح [١٢٦].

ولا مصلحة أهم الآن من مواجهة جائحة كورونا بمعالجة الناس وحمايتهم من الموت الجماعي، وتعويض المتضررين جراء الوباء على الصعيد الاجتماعي والاقتصاري.

والأمة الإسلام حية لا تموت فقد يجود الخيرون بما يخفف على الناس ويكون سبباً في رفع البلاء بالصدقة والنفقة يذكر ابن كثير فيقول: ولما كان الطاعون بـ»بلاد الشام» سنة (٧٤٩هـ)، كثرت الموتى، وزاد ضمان الموتى جدًّا، فتضرر الناس ولا سيما الصعاليك، فإنه يؤخذ على الميت شيء كثير جدًّا، فرسم نائب السلطنة بإبطال ضمان النعوش والمغسلين والحمالين، ووقف نعوشًا كثيرة في أرجاء البلد.[١٢٧] .

وقرر الشافعية: أن مخالفة شرط الواقف مع الضرورة جائزة إذ من المعلوم أنه لا يقصد تعطيل وقفه وثوابه...[١٢٨] . وفي مسألة الوقف منقطع الأول: إذا قال القائل: وقفت داري هذه على من سيولد لي، ولا ولد له، أو وقفتُ على المنتظَرين دون الموجودين منهم، فهذا الوقف لا مصرف له من جهة الأول.

وللأئمة: في صحة هذا الوقف قولان مرتبان على القولين في الوقف المنقطع الآخر، فمن صححه جعل أحد الوجوه- أن الوقفَ يصرف إلى الأقربين بالمحبِّس.، والثاني - أنه يصرف إلى المساكين. والثالث: أنه يصرف إلى المصالح العامة.[١٢٩].

وقال الشوكاني[١٣٠]: ومن وضع مالاً في مسجد أو مشهد لا ينتفع به أحد جاز صرفه في أهل الحاجات ومصالح المسلمين ومن ذلك ما يوضع في الكعبة وفي مسجد النبي صلى الله عليه وسلم.[١٣١] .

- المصالح العامة المقصود بها الحاجات الأساسية للمجتمع، وهي التي لا ملك فيها لأحد، والتي لا يختص بالانتفاع بها أحد، فملكها لله، ومنفعتها لخلق الله، وأولاها وأحقها: الدفاع عن البلاد والتكوين الحربي، وتوفير الأمن في المجتمع، وتحقيق التكافل الاجتماعي،ويشمل العدد والعدة على أحدث المخترعات البشرية، ويشمل المستشفيات، وإعداد دعاة يظهرون جمال الإسلام وسماحته ويشمل العمل على دوام الوسائل التي يستمر بها حفظة القرآن كما نزل [١٣٢].

---

(١٢٦) فتاوى الونشريسي (٥/ ٣٦٣). بتصرف. **أحمد بن يحيى الونشريسي** المعروف بأبو العباس الونشريسي، ولد حوالي سنة (٨٣٤هـ / ١٤٣٠م، من علماء الجزائر الأعلام وفقهائها البارزين في القرن التاسع الهجري، قال عنه أحمد بابا: «شيخ الإسلام ومفتي الأنام الفرد العلامة الحافظ القدوة العارف المجتهد المعمر ابن سعيد بن محمد العقباني التلمساني قاضي بجاية، وتلمسان وله في ولاية القضاء مدة تزيد على أربعين سنة»، من كتبه :**المعيار المُعْرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب**، **ايضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك**،توفي سنة (٩١٤هـ)،الزركلي :الأعلام ١/ ٢٦٩- ٢٧٠.

(١٢٧) البداية والنهاية (١٤/ ٢٢٦) مطبعة السعادة – القاهرة، د ت

(١٢٨) **الرملي:** نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج (٥/ ٣٩٦)،الجويني: نهاية المطلب في دراية المذهب (٨/ ٣٥١) .

(١٢٩) الجويني: نهاية المطلب في دراية المذهب (٨/ ٣٥١)

(١٣٠) **الشوكاني** : محمد بن علي بن محمد الشوكاني،، أحد أبرز علماء أهل السنة والجماعة وفقهائها، ولد، في هجرة شوكان في اليمن ١١٧٣ هـ ونشأ بصنعاء، له مؤلفات كثيرة تجاوزت ١١٤ منها :**نيل الأوطار في الحديث**،**إرشاد الفحول إلى إلى تحقيق الحق من علم الاصول**، وولي قضاءها سنة ١٢٢٩ هـ ومات حاكمًا بها سنة (١٢٥٠ هـ)،محمد بن علي الشوكاني. أحمد فريد المزيدي: الرسائل الفقهية للإمام الشوكاني. (ط. الأولى (٢٠٠٥. بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية. ص. ٧-١١

(١٣١) الشوكاني: الدراري المضية شرح الدرر البهية (٢/ ٢٩٩) دار الكتب العلمية، الطعبة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(١٣٢) مجموع الفتاوى: ٣١ / ٣٦١. نقلًا عن بحث: استثمار الوقف وطرقه القديمة والحديثة إعداد أ. د. علي محيي الدين القره داغي مجلة مجمع الفقه الإسلامي (١٣/ ٤٩٤) التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة.

وهـذا مـا رجحـه ابـن تيميـة مـن أن يربـط التـصرف في أمـوال الوقـف بالمصالـح الراجحـة أكـثر مـن غيرهـا، حيـث قـال - بعـد جـواز تغيـير الوقـف وبيعـه -: فتتبـع مصلحـة الوقـف، ويـدار مـع المصلحـة حيـث كانـت، وقـد ثبـت عـن الخلفـاء الراشـدين - كعمـر وعثـمان - أنهـما غـيرا صـورة الوقـف للمصلحـة، بـل فعـل عمـر مـا هـو أبلـغ مـن ذلـك حيـث حـول مسـجد الكوفـة القديـم فصـار سـوق التمارين، وبنـى لهـم مسـجداً آخـر في مـكان آخـر، واللـه أعلـم[١٣٣] .

الخلاصـة: جوازتغيـير صـورة الوقـف بيعـاً وإعـادة إعـمار أو نقـل إلى مـكان آخـر، كل ذلـك حسـب مصلحـة الوقـف، وأثنـاء الأوبئـة والجوائـح ككورونـا وتحويـل الـصرف إلى جهـة أخرى،كالإنفـاق عـلى المصابـين والمتضرريـن والمستشـفيات حسـب المصلحـة والحاجـة.

المطلب الثاني: الترجيح

يترجـح الإنفـاق عـلى المـرضى الفقـراء والمستشـفيات مـن مـال الوقـف أثنـاء جائحـة كورونـا للأسـباب التالية :

- توجـد مصلحـة راجحـة للمسـلمين بسـبب الجمـود الإقتصـادي الهائـل الـذي ضرب العـالم مـن أقصـاه إلى أقصـاه.

- اسـتناداً إلى فعـل عمـر بـن الخطـاب رضي اللـه عنـه حيـث حـول مسـجد الكوفـة القديـم فصـار سـوق التمارين وبنـى لهـم مسـجداً آخـر في مـكان آخـر.

- اسـتناداً إلى فعـل السُـلطان المملـوكيُّ عنـد حلـول الطاعـون بمـصر حيـث جمـع القضـاةَ الأربعـةَ، واسـتفتاهم فقالـوا : بجـواز بيـع الوقـف وصرفـه عـلى الآفـات والأوبئـة. - بنـاء عـلى جمـع الوقـف كلـه في نقطـة واحـدة ومصلحـة واحـدة حسـب المصلحـة الراجحـة .

(١٣٣) شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، ص ١٠٥..بتصرف .

الخاتمة

نتائج البحث:

مـرض الفـيروس التاجـي ٢٠١٩ المعـروف اختصـارا بكوفيـد ١٩ : هـو التهـاب في الجهـاز التنفـسي بسـبب فـيروس تاجـي جديـد، وقـد أعلنـت منظمـة الصحـة أن هـذا الوبـاء جائحـة عالميـة في العالميـة رسـميا ١١ مـارس ٢٠٢٠م.

جـواز الدفـع للمتضرريـن مـن آثـار كورونـا مـن مـال الـزكاة ومـن سـهم في سـبيل اللـه بالتحديـد بعـد أن حلـت جائحـة كورونـا وتركـت آثـاراً بشـعة عـلى كل الأصعـدة فقـد مـات أكـثر مـن مليـوني شـخص، وتـضرر الإقتصـاد العالمـي أيمـا تـضرر، وتبـع ذلـك خسـائر ماديـة ضخمـة عـلى صعيـد الـشركات والأفـراد والمسـتأجرين وغـير ذلـك كثـير مـن المصالـح العامـة .

يترجـح جـواز تعجيـل الـزكاة لعـام أو عامـين مـع كـون المـال بلـغ نصاباً نظـراً لقـوة أدلـة القائلـين بـه، وبسـبب جائحـة كورونـا التـي تجعلنـا نقـدم المصلحـة العامـة والراجحـة وهـي معالجـة آثـار هـذه الجائحـة وهـي كثـيرة جـداً.

يجوز دفع الزكاة لعلاج المرضى بكورونا وعلى المستشفيات التي تعالجهم.

أن دفـع الـزكاة لعـلاج المصابـين بمـرض كورونـا ليـس أمـراً طارئـاً، ويوجـد مـن آراء الفقهـاء مـا يـدل عـلى جـوازه. ولا يتعـارض مـع الكفايـة المعتـبرة في القـدر المحـدد للفقـيرلأن عـلاج الفقـير يدخـل في الكفايـة.

التعريف المختار للوقف هُوَ تَحْبِيسُ الْأَصْلِ وَتَسْبِيلُ الْمَنْفَعَةِ .

أن الوقـف المتشـابه يجـوز جمـع إنتاجـه المـالي في صنـدوق واحد،،ويجـوز أيضـاً بيـع وقـف قليـل الإنتـاج وضـم ثمنـه إلى وقـف منتـج أو لمصلحـة راجحـة، بـل يجـوز جمـع جميـع الأوقـاف في ذمـة واحـدة ينفـق منهـا عـلى غيرهـا، عـلى حسـب مصلحـة الوقـف .

يترجـح الإنفـاق عـلى المـرضى الفقـراء والمستشـفيات مـن مـال الوقـف أثنـاء الجوائـح والأوبئـة والزلازل المدمـرة وخاصـة جائحـة كورونا.

هـذا وصـل اللهـم عـلى سـيدنا محمـد وعـلى آلـه وصحبـه أجمعـين، وأخـر دعوانـا أن الحمـد للـه رب العالمـين.

فهرس المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم
٢. كتب التفسير
٣. تفسير المنار،الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة : ١٩٩٠ م،
٤. مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: الرازي،دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ
٥. كتب الحديث وعلومه
٦. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد : ابن عبد البر تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب، عام النشر: ١٣٨٧ هـ
٧. جامع الترمذي : موسوعة الحديث الشريف،الكتب الستة دار السلام- الرياض،١٤٢٩ هـ.
٨. سنن ابن ماجة : موسوعة الحديث الشريف،الكتب الستة دار السلام- الرياض،١٤٢٩ هـ.
٩. سنن أبي داود: : موسوعة الحديث الشريف،الكتب الستة دار السلام- الرياض،١٤٢٩ هـ.
١٠. سنن النسائي: موسوعة الحديث الشريف،الكتب الستة دار السلام- الرياض،١٤٢٩ هـ.
١١. صحيح البخاري:محمد بن اسماعيل،موسوعة الحديث الشريف،الكتب الستة دارالسلام- الرياض،١٤٢٩ هـ.
١٢. صحيح مسلم:مسلم، موسوعة الحديث الشريف،الكتب الستة دار السلام- الرياض،١٤٢٩ هـ.
١٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري :ابن حجر ، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ هـ
١٤. المسند :الامام أحمد، المحقق: شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
١٥. مصنف عبد الرزاق: عبد الرزاق بن همام الصنعاني،: تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ.
١٦. شرح سنن أبي داود المطبعة العلمية - حلب الطبعة: الأولى ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م. معالم السنن: الخطابي:
١٧. الموطأ: الامام مالك بن أنس:دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان،عام النشر: ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م.
١٨. النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير،: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي.
١٩. كتب الحنفية
٢٠. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: الكاساني، دار الكتب العلمية،والمعرفة، مطبعة شركة المطبوعات العلمية بمصر: ١٤٠٦ هـ.
٢١. حاشية رد المحتارعلى الدر المختار شرح تنوير الأبصار :محمد أمين ابن عابدين،شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر،الطبعة: الثانية ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦ م،
٢٢. الفتاوى العالمكيرية المعروفة بالفتاوى الهندية: نظام الدين البرنهابوري، مطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر، الطبعة: الثانية، ١٣١٠ هـ.
٢٣. فتاوى قاضيخان، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت.
٢٤. المبسوط :السرخسي، مطبعة السعادة – مصر د ت.
٢٥. الهداية شرح بداية المبتدي:علي الفرغاني المرغيناني،: المحقق: طلال يوسف الناشر: دار احياء التراث العربي - بيروت – لبنان،د ت.
٢٦. كتب المالكية
٢٧. الإشراف على نكت مسائل الخلاف:القاضي عبد الوهاب، تحقيق: الحبيب بن طاهر،، طبعة دار ابن حزم، ط ١، ١٤٢٠هـ)، ١٩٩٩م.
٢٨. بداية المجتهد ونهاية المقتصد :ابن رشد، دار الحديث – القاهرة، تاريخ النشر: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م .
٢٩. التبصرة: اللخمي، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط١، ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١م.
٣٠. حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني: العدوي المالكي، المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر - بيروت، د ت،.
٣١. الذخيرة القرافي:. دار الغرب الإسلامي- بيروت الطبعة: الأولى، ١٩٩٤ م،
٣٢. شرح الزرقاني: محمد الزرقاني، بيروت،، دار الكتب العلمية، ١٩٩١م

٣٣. شرح مختصر خليل، محمد بن عبد الله الخرشي،، دار الفكر. بيروت،د ت.
٣٤. الشرح الكبير وحاشية الدسوقي: الشيخ الدردير، دار الفكر الطبعة: د. ط د. ت.
٣٥. الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني :أحمد بن غنيم النفراوي،،.بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥م.
٣٦. المدونة: الامام مالك بن أنس، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٣٧. مسائل أبي الوليد ابن رشد :، تحقيق: محمد الحبيب التجكاني، الناشر: دار الجيل، بيروت - دار الآفاق الجديدة، المغرب، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
٣٨. المعيار المُعْرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب: الونشريسي ،.تحقيق محمد عثمان، دار الكتب العلمية – بيروت،
٣٩. منح الجليل شرح مختصر خليل :محمد عليش، دار الفكر - بيروت الطبعة: الأولى،: ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م
٤٠. مواهب الجليل لشرح مختصر خليل :الحطاب ،،دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٤١٢ هـ
٤١. نوازل العلمي: تحقيق المجلس العلمي بفاس،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب.

٤٢. كتب الشافعية
٤٣. الأم :الشافعي، دار الفكر – بيروت، الطبعة: الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م.
٤٤. أسنى المطالب في شرح روض الطالب ومعه حاشية الرملي الكبير: زكريا الأنصاري . دار الكتاب الإسلامي،د ط، د ت.
٤٥. البيان في مذهب الإمام الشافعي :العمراني، المحقق: قاسم محمد النوري، دار المنهاج – جدة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ- ٢٠٠٠ م
٤٦. تحفة المحتاج في شرح المنهاج ابن حجر الهيثمي: المكتبة التجارية الكبرى بمصر،بدون طبعة،عام النشر: ١٣٥٧ هـ - ١٩٨٣ م
٤٧. الحاوي الكبير: الماوردي المحقق الشيخ علي محمد معوض - الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٩ م.
٤٨. روضة الطالبين وعمدة المفتين :النووي. تحقيق: زهير الشاويش،المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق- عمان،الطبعة: الثالثة، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.
٤٩. المجموع شرح المهذب :النووي، إدارة الطباعة المنيرية، مطبعة التضامن الأخوي- القاهرة، عام النشر: ١٣٤٤ - ١٣٤٧ هـ. النووي: المجموع شرح المهذب، دار الإرشاد، تحقيق وإكمال محمد نجيب المطيعي،
٥٠. مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج :الشربيني، حققه وعَلّق عليه: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م
٥١. نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج :محمد بن أحمد بن حمزة الرملي، دار الفكر، بيروت ط أخيرة - ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م
٥٢. نهاية المطلب في دراية المذهب: الجويني دار المنهاج،الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
٥٣. كتب الحنابلة
٥٤. الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف :المرداوي (المطبوع مع المقنع والشرح الكبير)
٥٥. الإنصاف :المرداوي، مطبعة السنة المحمدية الطبعة: الأولى، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م.
٥٦. حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي: الناشر: (بدون ناشر الطبعة الأولى - ١٣٩٧ هـ).
٥٧. الشرح الكبير على متن المقنع : ابن قدامة، عام النشر١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، تصوير: دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت،، مطبعة المنار، عام النشر: ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣،
٥٨. الشرح الكبير: المرداوي (المطبوع مع المقنع والإنصاف) (٧/ ١٩٠) تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي - د عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة، القاهرة -،الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م
٥٩. شرح منتهى الإرادات المسمى: دقائق أولي النهى لشرح المنتهى: البهوتي عالم الكتب، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م،
٦٠. كشاف القناع عن متن الإقناع :البهوتي . راجعه وعلّق عليه: هلال مصيلحي مصطفى هلال ، مكتبة النصر الحديثة بالرياض، الطبعة: د ت ط ، وصَوّرتْها: دار الفكر ببيروت، ودار عالم الكتب.د ت،
٦١. كشاف القناع: البهوتي، وزارة العدل في السعودية الطبعة: الأولى، (٢٠٠٠ - ٢٠٠٨ م)

٦٢. المبدع في شرح المقنع: ابن مفلح، دار الكتب العلمية، بيروت – الطبعةالأولى، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م.
٦٣. المغني: ابن قدامة، المحقق: د عبد اللّه بن عبد المحسن التركي،د عبد الفتاح محمد الحلو،دار عالم الكتب، الرياض،ط٣، ١٤١٧هـ– ١٩٩٧ م.
٦٤. المغني : ابن قدامة، طبع مكتبة القاهرة. تحقيق: طه الزيني ومحمود عبد الوهاب فايد وعبد القادر عطا . الطبعة: الأولى، ١٩٦٨ م – ١٩٦٩ م
٦٥. الفقه المقارن ومتفرقات:
٦٦. الإسلام عقيدة وشريعة :شلتوت،دار الشروق – مصر، ط ١٨، ٢٠٠١ م
٦٧. الأموال :أبو عبيد القاسم بن سلام،تحقيق محمد خليل هراس، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ.
٦٨. بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة: ١٤٠٤ -، ١٩٨٤م التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ)،
٦٩. البداية والنهاية : ابن كثير، مطبعة السعادة – القاهرة، د ت.
٧٠. الدراري المضية شرح الدرر البهية: الشوكاني،دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
٧١. الروضة الندية شرح الدرر البهية: صدّيق حسن خان، دار ابن عفان، القاهرة ١٩٩٩م، الطبعة الأولى، تحقيق علي حسين الحلبي، وطبعة دار المعرفة أيضاً.
٧٢. فقه الزكاة :القرضاوي، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ.
٧٣. المحلى بالآثار: ابن حزم،المحقق: عبدالغفار سليمان البنداري، دار الفكر – بيروت،د ت.
٧٤. مصرف وفي سبيل الله بين العموم والخصوص: سعود الفنيسان.،مكتبة التوبة، ط١، ١٤٢٤هـ)،
٧٥. نوازل الزكاة دراسة فقهية تأصيلية لمستجدات الزكاة: د عبد الله بن منصور الغفيل. الناشر: دار الميمان للنشر والتوزيع، الرياض، القاهرة – الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.
٧٦. المعاجم وكتب التراجم
٧٧. أبجد العلوم:القنوجي، المحقق: عبد الجبار الزكار، وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق – دار الكتب العلمية سنة : ١٩٧٨م.
٧٨. الأعلام: الزركلي دار العلم للملايين، بيروت. ١٩٩٠م
٧٩. تتمة الأعلام للزركلي: محمد خير رمضان يوسف – دار ابن حزم– بيروت– ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م،
٨٠. التعريفات :الجرجاني ،دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة الأولى – ١٤٠٥ هـ
٨١. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، عبد القادر:، دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٠م
٨٢. الرسائل الفقهية للإمام الشوكاني:محمد بن علي الشوكاني. أحمد فريد المزيدي: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان،الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٥م.
٨٣. سير أعلام النبلاء : الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط مؤسسة الرسالة ط٣، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م.
٨٤. شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد،دار ابن كثير، دمشق – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م
٨٥. طبقات الشافعية الكبرى: السبكي ،دار المعرفة– بيروت،د.ت،
٨٦. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع :السخاوي:،بيروت،دار مكتبة الحياة.د.ط،د.ت،
٨٧. فوات الوفيات :صلاح الدين الصفدي، دار صادر – بيروت الطبعة: الأولى١٩٧٣ م.
٨٨. القاموس المحيط: الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط٨،١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م
٨٩. لسان العرب: ابن منظور، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة،١٤١٤م،
٩٠. ١٩٧٩م.. معجم تهذيب اللغة :الأزهري ،تحقيق: محمد مرعب،دار إحياء التراث العربي بيروت(ط١،، ٢٠٠١م
٩١– معجم مقاييس اللغة :أحمد فارس، دار الفكر،بيروت، ١٣٩٩هـ –
٩٢. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خالكان،دار صادر – بيروت، الطبعة: ١، ١٩٩٤ م .
٩٣. المجمعات الفقهية والمجلات العلمية.
٩٤. البيان الختامي للجلسة التكميليّة للدورة الطارئة الثلاثين للمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث المنعقدة (نيسان ٢٠٢٠ بتقنية التواصل الشبكي شعبان ١٤٤١هـج

٩٥. توصيات الندوة الثامنة، لقضايا الزكاة المعاصرة المنعقدة في قطر في الفترة من (٢٣-٢٦ ذو الحجة ١٤١٨ هـ/ الموافق ٢٠-٢٣/٤/١٩٩٨ م) تنظيم الهيئة الشرعية العالمية للزكاة.
٩٦. فتاوى وتوصيات ندوات قضايا الزكاة المعاصرة القرار الرابع بشأن جمع وتقسيم الزكاة والعشر في باكستان في الدورة الثامنة .
٩٧. مجلة الأزهر: محمد حسام الدين: فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف- - السنة الثالثة والستون- الجزء الخامس- ١٤١١هـ = ١٩٩٠م
٩٨. مجلة مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة.: استثمار الوقف وطرقه القديمة والحديثة إعداد أ. د. علي محيي الدين القره داغي
٩٩. مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة التعاون الاسالمي توصيات الندوة الطبية الفقهية الثانية لهذا العام، والتي عقدت عبر تقنية مؤتمرات الفيديو يوم ١٦ ابريل ٢٠٢٠،تحت عنوان «فيروس كورونا المستجد كوفيد ـــ ١٩ وما يتعلق به من معالجات طبية وأحكام شرعية.

فهرس المواقع الالكترونية

الزكاة للمصابين بكورونا، نظرة في أقوال الفقهاء - إسلام أون لاينhttps://islamonline.ne:
مجلة البيان.https://albayan.co.uk/article2.aspx?ID= 2479
موقع دار الافتاء المصريةhttps://www.dar-alifta.org/ar/fatawa/A9 ،
موقع شبكة الجزيرة :https://is.gd/K9eZ8e
موقع المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث /https://www.e-cfr.org/blog/2020/04/17
.موقع منظمة الصحة العالمية http:/www.emro.who.int/ar/healthopics/corona-virus
موقع ويكيبيدياhttps://ar.wikipedia.org/wiki/
http://www.dd sunnah.net/news/view/action/view/id/961
http://allwatannews.net/Bahrain/article/882681

سياق كلمة «أظلم» في النّظم القرآني
(دراسة نحويّة-بلاغيّة-تفسيريّة

The context of the word “dark” in the Qur’anic systems (grammatical–rhetorical–interpretive study

عبد البصير عبد المجيد أحمد*[1]

ملخص البحث مع التّرجمة
بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله والصّلاة والسّلام على رسول الله ’، وبعد: فالظّلم هو وضع الشّيء في غير موضعه والتّعدّي من الحقّ إلى الباطل وهو الجور.

لذلك كان الظّلم من أبشع الصّفات الّتي يتّصف بها الإنسان، فهي تضيع الحقوق، وتمنع الأمن والأمان، وقد حذّر منه سبحانه وتعالى في الحديث القدسيّ الّذي رواه أبو ذر ؓ عن النّبيّ ’ عن ربّه عزّ وجلّ قال: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا...**»[2].

وقال تعالى: (إنّه لا يحبّ الظالمين [الشورى: ٤٠]، والمقصود جميع أنواع الظّلم الذي ذكرها ربّنا في القرآن الكريم، وما ذكره النّبيّ ’ في الأحاديث النّبويّة الشّريفة، وخصّص الله عزّ وجلّ أنواعًا في الظّلم بأنْ ذكرها بوزن «أفعل» ومعنى ذلك: لا أحدَ أظلم، وذكرها في القرآن وهي: ١- منع ذكر الله في بيوته. ٢- كتم الشّهادة. ٣- الافتراء والكذب على الله.

٤- تحليل الحرام، وتحريم الحلال. ٥- الإعراض عن التّذكرة. ٦- التّكذيب بالرّسل.

وتوعد فاعله بالعقاب الشّديد يوم القيامة.

In the name of Allah, the Most Merciful, the Compassionate.

All praise is due to Allah and may peace and blessings be upon the Messenger of Allah.

Oppression is putting something in the wrong place and going from right to wrong, which is tyranny. Therefore, oppression is one of the worst characteristics that a human being can have, it wastes rights, and prevents security and safety. Allah warned against it in the Hadith Qudsi narrated by Abu Dharr from the Prophet (peace be upon him who said, “O My servants, I have

(١) *- باحث في الدراسات الإسلامية وفقه اللغة-

(٢) مسلم، صحيح مسلم، كتاب: البرّ والصّلة والآداب، باب: تحريم الظّلم، رقم الحديث: ٢٥٧٧، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، بيروت-دار إحياء التراث العربي، لاط، لات، ج٤، ص١٩٩٤.

forbidden oppression for Myself and have made it forbidden amongst you, so do not oppress one another....” (Sahih Muslim

Allah Almighty said, “Indeed, He does not love the oppressors.” (Surah Ash-Shura: ٤٠ and what is meant is all types of oppression that Allah mentioned in the Noble Quran, and what the Prophet (peace be upon him mentioned in the authentic Hadiths. Allah Almighty specified certain types of oppression that He mentioned in the Quran, which means that no one else is more oppressive than those who do these actions. These include not mentioning Allah in one’s own homes, concealing testimony, false accusations and lying against Allah, allowing what is forbidden (haram and prohibiting what is permissible (halal, ignoring reminders, and denying the messengers. Those who commit these types of oppression will face severe punishment on the Day of Judgment.

مفاتيح كلمات البحث وترجمتها:

الظّلم، أظلم، النّظم، المساجد، الذّكر، الشّهادة، الكذب، الافتراء، الحلال، الحرام، الضّلال، الإجرام، العقاب، التّكذيب، الرسل، الإسلام.

Injustice, darkness, systems, mosques, remembrance, testimony, lies, slander, permissible, forbidden, misguidance, criminality, punishment, denial, messengers, Islam.

المقدّمة:

الحمد لله العدل الصّمد الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، جعل العدل اسمًا من أسمائه، وأمر به عباده فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل: ٩٠]، وأشهد أنْ لا إله إلّا الله وحده، جعل الخلافة في الأرض لعمارتها، وأمر بالعدل بين النّاس في الأحكام فقال: ﴿... وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ... ٥٨﴾[النّساء: ٥٨]، وأشهد أنّ محمدًا رسول الله ’ أرسله الله بالهدى ودين الحقّ ليخرج النّاس من جور السّلطان إلى اتباع العدل الرّحمن فيسعدوا بحياة ملؤها الأمن والأمان.

أمّا بعد: فلمّا وجدت في كتاب الله عزّ وجلّ آيات كثيرات تكلّمتُ عن الظّلم وعقوبته، وجاءت بالتّهديد والوعيد لأهله، رأيت أنْ أكتب في بحثي هذا في الآيات الّتي أتت بصيغة منتهى الظّلم وجاءت على وزن «أفعل» فدرستها دراسة نحويّة وبلاغيّة مستندًا على المراجع والمصادر التي فسّرتِ القرآن أو كتبت بالقرآن، مبيّنًا خطورة الظّلم، ووعيد الظّالمين.

وقد ورد في كتاب الله كلمة «أظلم» بصيغة التّفضيل سبع عشرة مرّة، واحدة منها بمعنى الظّلام، ﴿... وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْ ...﴾ ٢٠ [البقرة: ٢٠]، والباقي بمعنى الظّلم، وهي موضوع البحث بعنوان: **سياق كلمة: أظلم في النّظم القرآني (دراسة نحويّة-بلاغيّة-تفسيريّة**، واخترت هذا الموضوع في زمن كَثُرُ ظلمُ الطّغاة على أصعدة عدّة وأهمها: الهجمة على السّنّة النّبويّة من

خلال الطّعن بصحيحي البخاري ومسلم وكذلك كتب السنن والمسانيد والمصنفات بحجج واهية لا تمدّ إلى العلم بصلة، وهذا من الافتراء على الله الذي بيّن في القرآن وجوب اتّباع النّبيّ ' فقال: ﴿... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ...﴾ ﴿٧﴾ [الحشر: ٧]، لذا نرى أنّ أكثر المواضع التي ذُكرت فيه كلمة «أظلم» في القرآن عند الافتراء والكذب على الله تعالى، بالإضافة إلى أسباب أخرى تؤدي إلى الظّلم

وقد تضمن هذا البحث مقدمة، وستة مباحث وخاتمة، سائلاً المولى أنْ ينفعني بما أكتبه وقارئَه، وأنْ يرزقني الإخلاص بالقول والعمل، ويعينني على طاعته، إنّه وليّ التّوفيق، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمهيد:

نهى الله عزّ وجلّ عن الظّلم، وشدّد العقوبة على الظّالمين، وذكر عقوبة الظّلم في غير موضع من القرآن الكريم، والأحاديث النّبويّة، والقدسيّة، قال تعالى:﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ [المائدة: ٢٩]، عَنْ أَبِي مُوسَى ¢، قَالَ: قال رسول الله ': «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ لي لي أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾[هود: ١٠٢]»[٣].

وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلاَ تَظَالَمُوا...»[٤].

وقد ورد معنى الظّلم في القرآن الكريم متنوعًا بين المفرد والجمع، والمذكر والمؤنث، والمعرفة والنكرة، والفعل بنوعيه الماضي والمضارع، والمعلوم والمجهول، والوصف بين اسم الفاعل واسم التفضيل، وسأكتب في هذا البحث عن الظّلم الذي جاء بصيغة اسم التّفضيل على وزن «أفعل» وتكون الدّراسة نحويّة، بلاغيّة، تفسيريّة.

تعريف الظّلم لغة واصطلاحًا:

الظّلم لغة: «وَأَصْلُ (الظُّلْمِ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. وَيُقَالُ: مَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ. وَفِي الْمَثَلِ: مَنِ اسْتَرْعَى الذِّئْبَ فَقَدْ ظَلَمَ»[٥].

وقيل: «وضع الشَّيْء فِي غير مَوْضِعه يُقَال ظلم الشَّعْر إِذا ابْيضّ فِي غير أَوَانه»[٦].

جاء في لسان العرب: «وركِبَ فُلان أُمَّ جُنْدَبٍ إِذَا رَكِبَ الظُّلْمَ. يُقَالُ: وَقَعَ الْقَوْمُ فِي أُمِّ جُنْدَبٍ إِذَا

(٣) البخاري، صحيح البخاري، كتاب: تفسير القرآن: باب: قوله تعالى وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى بظلم، رقم الحديث: ٤٦٨٦، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النّجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ)، ج٦، ص٧٤.

(٤) مسلم، صحيح مسلم، كتاب: البرّ والصّلة والآداب، باب: تحريم الظّلم، رقم الحديث: ٢٥٧٧، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، بيروت-دار إحياء التراث العربي، لاط، لات، ج٤، ص١٩٩٤.

(٥) الرازي، مختار الصّحاح، تحقيق: يوسف الشّيخ محمّد، بيروت-المكتبة العصريّة، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠ه-١٩٩٩م، ص١٧٩.

(٦) زكريا الأنصاري، الحدود الأنيقة والتّعريفات الدّقيقة، تحقيق: د. مازن المبارك، بيروت- دار الفكر المعاصر، الطبعة: الأولى، ١٤١١ه، ص٧٣.

ظُلِمـوا كأنهـا اسـمٌ مِـنْ أَسـماءِ الإِسـاءَة والظُّلْـم والداهيـة»[٧].
وَاصْطِلَاحًا «التَّعَدِّي عَن الْحق إِلَى الْبَاطِل وَهُوَ الْجور»[٨].
وقيل: «هو التّصرف في ملك الغير ومجاوزة الحدّ»[٩].

معنى النّظم:

ومعنـى النّظـم: «تعليـق الكلـم بعضهـا ببعـض، وجعـل بعضهـا بسـبب مـن بعـض. والكلـم ثـلاث: اسـم، وفعـل، وحـرف، وللتّعليـق فيـما بينهـا طـرق معلومـة، وهـو لا يعـدو ثلاثـة أقسـام: تعلّـق اسـم باسم، وتعلّق اسم بفعل، وتعلّق حرف بهما»[١٠].

وهـذا التّعريـف عامًّـا في كلام العـرب، ويُنـزل عـلى النّظـم القـرآني لأنّـه نـزل بلغـة العـرب فقـد كان كتـاب الجرجـاني[١١] «دلائـل الإعجـاز» قائـمٌ في الأصـل، وفي عمـق التّصـور وكتابـة النّظريـة البلاغيّـة، عـلى النّظـم القـرآني، ويـدرك مـن خلالـه حقيقـة الإعجـاز البلاغـي في النّـص القـرآني[١٢].

ويُعـدّ النّظـم القـرآني وجـه مـن وجـوه إعجـاز القُـرْآن الـذي عجـزت البشريـة جمعـاء عـن الإتيـان بمثلـه إلى يومنـا هـذا، قـال البلاقـلاني[١٣] في القـرآن:

«بديـع النّظـم عجيـب التّأليـف، مُتَنَـاهٍ في البلاغـة إلى الحـدّ الـذي يعلـم عجـز الخلـق عنـه»[١٤].

وقـال القـاضي عياض[١٥]فيـه واصفًـا إعجـاز القـرآن: «صُـورَةُ نَظْمِـهِ العَجِيـبِ وَالْأُسْـلُوبُ الْغَرِيـبُ الْمُخَالِفُ لِأَسَـالِيبِ كَلَامِ الْعَـرَبِ وَمَنَاهِـجِ نَظْمِهَـا وَنَثْرِهَـا الَّـذِي جَـاءَ عَلَيْـهِ وَوَقَفَـتْ مَقَاطِـعُ آيِـهِ وَانْتَهَـتْ فَوَاصِـلُ كَلِـمَاتِ إِلَيْـهِ وَلَـمْ يُوجَـدْ قَبْلَـهُ وَلَا بَعْـدَهُ نَظِـيرٌ لَـهُ وَلَا اسْـتَطَاعَ أَحَـدٌ مُمَاثَلَـةَ شَيءٍ مِنْـهُ بَـلْ حَـارَتْ فِيـهِ عُقُولُهُـمْ وَتَدَلَّهَـتْ دُونَـهُ أَحْلَامُهُـمْ وَلَـمْ يَهْتَـدُوا إِلَى مِثْلِـهِ فِي جِنْـسِ كَلَامِهِـمْ مِـن نَـثْرٍ أَوْ نَظْـمٍ أَوْ سَـجْعٍ أَوْ رَجَـزٍ أَوْ شِـعْرٍ»[١٦].

ومـما سـبق يتّضـح لنـا أهميـة الـكلام عـن النّظـم القـرآني، الـذي يتبـيّن مـن خـلال دراسـة الآيـة

(٧) ابن منظور، لسان العرب، بيروت-دار صادر، الطبعة: الثالثة -١٤١٤ هـ)، ج١، ص٢٥٨.

(٨) زكريا الأنصاري، الحدود الأنيقة والتّعريفات الدّقيقة، ص٧٣.

(٩) الشرّيـف الجرجـاني، التّعريفـات، تحقيـق: جماعـة مـن العلـماء بـإشراف النـاشر، بـيروت- دار الكتـب العلميـة، الطبعـة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م، ص١٤٤.

(١٠) الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، بيروت- دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى،١٤٢٢هـ -٢٠٠١م، ص٧.

(١١) عبـد القاهـر بـن عبـد الرحمـن الجرجـانيّ أبـو بكـر النحـويّ فـارسيّ الأصـل، عـالم بالنحـو والبلاغـة، أخـذ النحـو بجرجـان عن الشـيخ أبى الحسـين محمـد بـن الحسـن بـن محمـد بـن عبـد الـوارث الفـارسيّ، مـن تصانيفـه: كتـاب المقتصـد في شرح الإيضـاح، وشرح كتـاب العوامـل، تـوفي سـنة: ٤٧١هـ- ١٠٧٨م. انظـر: جـمال الديـن القفطـي، إنبـاه الـرواة عـلى أنبـاه النحـاة، ت: محمـد إبراهيـم، القاهـرة-دار الفكـر العـربي، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٢م، ج٢، ص١٨٨- ١٨٩.

(١٢) انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: ياسين الأيوبي، بيروت-المكتبة العصريّة، الطبعة: ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، ص٨.

(١٣) أبـو بكـر الباقـلاني، القـاضي أبـو بكـر محمـد بـن الطيـب بـن محمـد بـن جعفـر بـن القسـم، المعـروف بالباقـلاني البـصري المتكلـم المشـهور؛ كان عـلى مذهـب الشـيخ أبي الحسـن الأشـعري، سـكن بغـداد، وكان في علمـه أوحـد زمانـه، مـن كتبـه: الإنصـاف، ومناقـب الأئمـة، تـوفي سـنة: ٤٠٣هـ-١٠١٣م. انظـر: وفيـات الأعيـان، ج٤، ص٢٦٩-٢٧٠، الـزركلي، الأعـلام، ج٦، ص١٧٦.

(١٤) الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، مصر- دار المعارف، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٧م، ص٦٩.

(١٥) عيـاض بـن مـوسى بـن عيـاض بـن عمـرون اليحصبـيّ السـبتيّ، أبـو الفضـل، عـالم المغـرب وإمـام أهـل الحديـث في وقتـه، كان مـن أعلـم النّـاس بـكلام العـرب وأنسـابهم وأيّامهـم، ولـد في سـبتة، وتـوفي بمراكـش سـنة: ٥٤٤هـ-١١٤٩م، مـن تصانيفـه: الشـفا بتعريـف حقـوق المصطفـى، مشـارق الأنـوار، انظـر: الـزركلي، الأعـلام، دار العلـم للملايـين، الطبعـة: ٢٠٠٢م، ج٥، ص٩٩.

(١٦) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، الحاشية: أحمد بن محمد بن محمد الشمني، دار الفكر، ١٤٠٩هـ-١٩٩٨م، ج١، ص ٢٦٤.

نحويًّا وبلاغيًّا، ونرتقي بأنفسنا لتتبين مدى عظمة هذا الكلام المُنزل من الله تعالى، ونرى أنّ الكلمة الواحدة في القرآن لها مدلولات متعددّة، وتأتي بأحكام شتّى.

المبحث الأول: علاقة الظّلم بالمساجد والذّكر:

للمساجد في حياة المسلم وتربيته تأثير كبير، فهي الّتي خرّجت الرّجال الّذين نشروا دين الله في كلّ زمان ومكان، فتحققت كلمة التّوحيد في قلوب العباد، فخرجوا من الظّلمات إلى النّور، ومن عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، وهو الأمر الّذي خلق الله المخلوقات لأجله، وما كان ذلك إلاّ باتّباعهم أوامر الله الّتي أمرهم بها، ولازموا ذكره، وأقاموا الصّلاة، وآتَوُا الزّكاة، قال تعالى:﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النور: ٣٦ – ٣٧].

ولأهمية المساجد ودورها الفعّال فقد توعّد الله عزّ وجلّ مَن يمنع ذكر الله فيها، فهي بيوت الله سبحانه وتعالى، وقد جاء هذا الوعيد في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [البقرة: ١١٤]، ففي هذه الآية جاء الظّلم على وزن أفعل، ومعناه: لا أحدَ أظلم ممّن منع مساجد الله أنْ يذكر فيها اسمه، ومجيء الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أنّ الظّلم بلغ منتهاه، وأنّه بمنزلة لا يُلحق به سائر أنواع الظّلم[١٧].

ولا يُراد بالاستفهام هنا حقيقته، وإنّما هو بمعنى النّفي، فهو استفهام إنكاري، ولمّا كان أصل «مَنْ» نكرة موصوفة أُشربت معنى الاستفهام، ولمّاكان الاستفهام الإنكاري في معنى النّفي صار الكلام من وقوع النّكرة في سياق النّفي، فلذلك فُسر بمعنى لا أحدَ أظلم.

واسم الاستفهام «مَن: في محل رفع على الابتداء، و»أظلم» خبره، والمصدر المؤول من «أنْ يذكر فيها اسمه» قيل: هو بدل من مساجد، وقيل: إنّه مفعول له بتقدير كراهية أنْ يُذكر، وقيل: التّقدير: مِن أنْ يُذكر[١٨].

ومَن يمنع الذّكر في المساجد يسعى إلى خرابها، لأنّ عمارة المساجد تكون بالذّكر، وإقام الصلّوات، والدّعاء، والاعتكاف، ويكون بتعطيلها عن جميع الطّاعات الّتي بُنيت لها المساجد كتعلّم العلم وتعليمه، والحثّ على الجهاد، والصّدقة، وبرّ الوالدين، وصلة الأرحام الّتي تَبني المجتمع وتمنعه من الانحراف، والإفساد في الأرض، وربما كان المراد بالخراب الهدم[١٩].

وقيل المراد بهؤلاء القوم هم اليهود، وقيل النّصارى، وهذه الآية «عطف على الآية الّتي سبقتها ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ ...﴾[البقرة: ١١٣]، باعتبار ماسبق ذلك من الآيات الدّالة على أفانين أهل الكتاب في الجراءة، وسوء المقالة، أي أنّ

(١٧) انظر: ابن عطية، : المحرر الوجيز، تحقيق:عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت-دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ه، ج١، ص ١٩٩. وانظر: الشّوكاني، فتح القدير، بيروت-دار الكتب العلمية، دمشق- الكلم الطّيب، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ه، ج١، ص١٥٣.

(١٨) انظر: أبو حيّان، البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت-دار الفكر، ١٤٢٠، ج١، ص٥٧١، وانظر: التّحرير والتنوير، ابن عاشور، تونس- الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ج١، ص٦٧٩.

(١٩) انظر: الشّوكاني، فتح القدير، ج١، ص١٥٣.

قولهم هذا وما تقدّمه ظلم ولا كظلم مَنْ منع مساجد الله، وهذا استطراد واقع معترضًا بين ذكر أحوال اليهود والنّصارى لذكر مساوئ المشركين في سوء تلقّيهم دعوة الإسلام الذي جاء لهديهم ونجاتهم»[٢٠].

وقوله تعالى: «خائفين» نصب على الحال، وهو حالهم إذا دخلوا المساجد، قال الزمخشري[٢١]:

«رُوي أنّه لا يدخل بيت المقدس أحد من النّصارى إلا متنكرًا مسارقة.

وقال قتادة: لا يوجد نصرانيّ في بيت المقدس إلا أُنهك ضربًا وأبلغ إليه في العقوبة»[٢٢].

وهذا حال الظّالمين عمومًا لأنّ الظّالم مخطأ، والمخطأ يكون مرتبكًا أثناء فعلته الشنيعة، ولا بدّ إلّا أنْ ينال الظّالم عقوبته الّتي يستحقها، فختم الله هذه الآية بقوله: «لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» وهي جملة استئنافيّة وليست معطوفة على مَن قبلها، وذلك لأنّ مقصود الاستئناف اهتمامًا به، بخلاف المعطوف لكونه تابعًا لا يهتم به السّامعون كمال الاهتمام، فإنّ الخزي خوفٌ، والخزيُ الذّل والهوان، وقوله تعالى: «وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» عُطفت على ما قبلها لأنها تتميمٌ لها إذِ المقصود من مجموعها أنّ لهم عذابين عذابًا في الدّنيا، وعذابًا في الآخرة[٢٣].

وطالما كان منع الذّكر في المساجد أشدّ أنواع الظّلم ناسب أنْ يكون وعيده بتعظيم العذاب لفاعليه، والعبرة ليست بخصوص السّبب أي ليست خاصّة بمن نزلت بهم وهم اليهود والنّصارى إنّما بعموم اللفظ، فيشمل العذاب كلّ من يجترئ على هذا القبيح.

المبحث الثاني: كتم الشّهادة من أبشع الظلم:

قبل أنْ نشرع في الكلام عن الشّهادة نعرفها لغة واصطلاحًا:

فالشّهادة لغة: «الشَّهَادَةُ خَبَرٌ قَاطِعٌ. تَقُولُ: شَهِدَ عَلَى كَذَا مِنْ بَابِ سَلِمَ وَرُبَّمَا، قَالُوا: شَهْدَ الرَّجُلُ بِسُكُونِ الْهَاءِ تَخْفِيفًا. وَقَوْلُهُمْ: أَشْهَدُ بِكَذَا أَيْ أَحْلِفُ. وَالْمُشَاهَدَةُ الْمُعَايَنَةُ. وشَهِدَهُ بِالْكَسْرِ شُهُودًا أَيْ حَضَرَهُ فَهُوَ شَاهِدٌ وَقَوْمٌ شُهُودٌ أَيْ حُضُورٌ وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ»[٢٤].

«وأصل الشَّهَادَة: الإخْبار بمَا شاهَدَه. وَمِنْهُ: يأْتي قَوْمٌ يَشْهَدون وَلَا يُسْتَشْهَدون»[٢٥].

واصطلاحًا: «الإخبار عن أمر حضره الشهود وشاهدوه إما معاينة، كالأفعال، نحو: القتل، والزنا، أو سماعًا، كالعقود، والإقرارات»[٢٦].

وفي التّعريفات: «إخبار عن عيان بلفظ الشّهادة في مجلس القاضي بحقّ للغير على آخر»[٢٧].

---

(٢٠) التحرير والتنوير، ابن عاشور ج١، ص٦٧٨.

(٢١) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب، ولد في زمخشر، من قرى خوارزم، وسافر إلى مكة فجاور بها زمنًا فلقب بجار الله، وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية، من قرى خوارزم، فتوفي فيها سنة:٥٨٣هـ – ١١٤٤م، من مؤلفاته: الكشاف في تفسير القرآن، وأساس البلاغة. انظر: الزركلي، الأعلام، ج٧، ص١٧٨.

(٢٢) الزمخشري، الكشّاف، بيروت-دار الكتاب العربي، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧هـ، ج١، ص١٨٠.

(٢٣) انظر: التّحرير والتّنوير، ابن عاشور ج١، ص٦٨٢.

(٢٤) الرازي، مختار الصّحاح، ص١٦٩.

(٢٥) ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٢٤٠.

(٢٦) أبو الفضل الحنفي، الاختيار لتعليل المختار، تحقيق: عبد اللطيف محمد عبد الرحمن،بيروت-دار الكتب العلميّة، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ج٢، ص١٤٩.

(٢٧) الشّريف الجرجاني، التّعريفات، ص١٢٩.

وقد ذكر الله عزّ وجل الشّهادة في كتابه العزيز الشّهادة في غير موضع، وهي أنواع:

أنْ يشهد الإنسان على نفسه، وعلى غيره إمّا نفسًا، وإمّا حكمًا، وإمّا حقًّا من حقوق العباد، وأهمّ هذه الشّهادات وأرفعها منزلة، وأنفعها للنّفس الشّهادة بالوحدانيّة لله تعالى الّتي شهد الله بها لنفسه، وثنّى بملائكة قدسه، وثلّث بأهل العلم وهم خاصّة الله سبحانه وتعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قائما بالقسط ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]، وكلّ هذه الأوامر لخدمة الحقّ وإثباته، ليتحقق العدل بين عباد الله وينتفي الظّلم، بل وأُمرنا أن نُظهر الشهادة ولا نكتمها حتّى لا تَضيع الحقوق، قال تعالى:﴿... وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ آثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴿٢٨٣﴾﴾ ... [البقرة: ٢٨٣]، فكيف إذا كانت الشّهادة تتعلق بالله جلّ جلاله، فإنّ كتمانها من أظلم الظّلم، فقد جاء ذكرها في القرآن بصيغة التّفضيل قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٤٠].

قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وشعبة، وأبو جعفر، وروح بضمير الغائب «أم يقولون»، وابن عامر، وحفص، وحمزة، الكسائي، ورويس، وخلف العاشر بضمير المخاطب «أم تقولون» فبضمير الغائب تكون «أم» منقطعة بمعنى «بل» للإضراب، وهي إضراب للانتقال من غرضٍ إلى غرض، وفيها تقدير استفهام للتّوبيخ والإنكار، فلم يبلغوا العلم بتاريخ تشريعهم، فزعموا جهلاً أنّ إبراهيم وذريته من الأنبياء كانوا على اليهوديّة أو النّصرانيّة. وفيمن قرأ بالمخاطب تكون «أم» متّصلة معادِلة لقوله تعالى:﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ ... ﴿١٣٩﴾﴾ [البقرة:١٣٩]، فقال تعالى: « ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ﴾» يعني أنّ اللّه شهد لهم بملة الإسلام في قوله:﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧]،

ومعنى « ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ﴾» للتقرير، أيْ قد أعلمنا الله أنّ إبراهيم لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، ووصفهم الله بعدم التّعقل لأنّهم يتكلمون عن غير علم في قوله:﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾[آل عمران: ٦٥][٢٨].

وختم الله هذه الآية بقوله تعالى:»وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ»، فيه إشارة خاصّة من الله إلى الأحبار والرّهبان الّذين تركوا عامّة أمتهم مسترسلين في عقائد فاسدة، لا يُنكرون منكرًا ولا يغيّرون عليهم من أجل مصالحهم الخاصّة، وإنْ طال الخطأ على النّاس وهم عليه تعودوه، وصعب تغيره، فهم من أظلم النّاس[٢٩].

فكان التّهديد والوعيد الشّديدين لهم جزاء أعمالهم، أي أنّ علم الله محيط بعلمكم وسيجزيكم عليه وذلك في قوله تعالى: «وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ»[٣٠].

وكتم الشّهادة يحتمل معنيين: أحدهما: أنّ أهل الكتاب لا أحدَ أظلم منهم، لأنّهم كتموا هذه الشّهادة.

والثاني: أنّ الكلام عنهم وُجّه إلينا تحذيرًا لنا حتّى لا نفعل فعلتهم، ونرتكب أثمهم، وكذلك فيه

(٢٨) انظر: الزمخشري، الكشّاف، ج١، ص١٩٧. وانظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج١، ص٧٤٧-٧٤٨.

(٢٩) انظر: التّحرير والتّنوير، ج١، ص٧٤٨.

(٣٠) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي محمّد سلامة، دار طيبة للنّشر والتّوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠ه- ١٩٩٩م، ج١، ص ٤٥٢.

التّعريض بكتمانهم شهادة اللّه لسيدنا محمّد ’ بالنّبوّة في كتبهم[٣١].

وهذا المبحث يبيّن لنا حرص الشريعة الإسلاميّة على أهمية حقوق الإنسان وأنّه لا يجوز الكلام بغير علم على المشرّعين، وهم الرسل لأنّ صونهم هو صون التّشريع.

المبحث الثّالث: أظلم الظّلم الافتراء على الله:

إنّ الله أنزل الشّرائع على عباده منذ خلق الخلق المكلَّفين وفضَّلهم على غيرهم من المخلوقات بالعقل، والعاقل لا تستوي حياته، ولا يأمن عيشُه إلّا بنظام يعرّفه حقوقَه وواجباته، والله أعلم بما نحتاجه في حياتنا، فهو أعلم بنا وأخبر لأنّه الخالق الصّانع لهذا الكون كلّه ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: ١٤]، فالكذب والافتراء على الله يعني الخلل في نظام الكون، الذي يؤثر على حياة الأفراد والأسرة والمجتمع والدّولة.

فالالتزام بشرع الله الذي عرفناه من خلال القرآن الكريم، وسنّة النّبي ’ والحفاظ عليه فرض علينا، والافتراء والكذب بلاء علينا يوصلنا إلى وعيد شديد من الله عزّ وجلّ.

والآيات التي توعّد الله المفترين عليه في القرآن كثيرة، ولكن جاءت بسياق «أظلم» في ستة مواضع وهي على التّرتيب:

١- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ [الأنعام: ٢١].

٢- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾[هود: ١٨].

تقدّم أنّ الاستفهام هنا إنكاري وذلك في جميع الآيات، وهذه الآية هي عطف على جملة ﴿...ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾ ، والمراد بهم المشركون الذين افتروا عقيدة الشّرك في الجاهليّة بما فيها من أكاذيب، بتكذيبهم على القرآن، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السّبب، فالآية عامّة بكلّ من يفتري الكذب على الله بأيّ نوع كان، وموقع «إنّ» في هذا المقام يفيد معنى التّعليل على الجملة المحذوفة، كما تقرر في كلام عبد القاهر، وموقع ضمير الشّأن معها أفاد الاهتمام بهذا الخبر اهتمام تحقيق لتقع الجملة الواقعة تفسيرًا له في نفس السّامع موقع الرّسوخ.

وجملة: «إنّه لا يفلح الظّالمون» تذييل، ولذلك فُصلت، أيْ تحقق أنّهم لا أظلم منهم فهم غير مفلحين، لأنّه لا يفلح الظّالمون فكيف بمن بلغ ظلمه النّهاية، فاستغنى بذكر العلّة عن المعلول[٣٢].

٣- ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٩٣﴾[الأنعام: ٩٣]، أي لا أحد أظلم ممّن يدّعي لله شريكًا، أو ادّعى النّبوة كمسيلمة الكذّاب الذي نزلت به هذه الآيات لتفضحه رغم أنّ العرب كانت تعرف كذبه، وقيل: نزلت في عبد الله بن سعد، كَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ ’، فيغيّر فيما يمليه عليه الرسول’، وكان يقول: إنْ كان محمّد ’ يُوحى إليه فقد أوحي إليّ، وإنْ كان الله ينزّله فقد أُنزلت مثلَ ما أُنزل، فتوعدهم الله بالعذاب الذي يحمل في طياته الإهانة والمذلة وبيّن سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أنّ

(٣١) انظر: الزّمخشري، الكشّاف، ج١، ص١٩٧.

(٣٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتّنوير، ج٧، ص١٧٢.

الكبر يوصل بالظّالم إلى منتهاه، فالاستكبار يؤدي بصاحبه إلى الظّالم[٣٣].

٤- ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٧].

قال ابن عاشور[٣٤]: «وقوله: «أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ» تدرّج في الاعتلال جاء على ماتكنّه نفوس العرب من شفوفهم بأنفسهم على بقيّة الأمم، وتطلّعهم إلى معالي الأمور، وإدْلالهم بفطنتهم وفصاحة ألسنتهم وحدّة أذهانهم وسرعة تلقيهم، وهم أَخْلَقاء بذلك كلّه، وفي الإعراب عن هذا الاعتلال منهم تلقين لهم، وإيقاظ لإفهامهم أنْ يغتبطوا بالقرآن ويفهموا ما يعود عليهم به من الفضل والشّرف بين الأمم، كقوله تعالى:﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾[الأنبياء: ١٠]، وقد كان الّذين اتبعوا القرآن أهدى من اليهود والنّصارى ببون من الدّرجات.

ولقد تهيّأ المقام بعد هذا التّنبيه العجيب لفاء الفصيحة في قوله «فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ»، وتقديرها: فإذا كنتم تقولون ذلك ويهجس في نفوسكم فقد جاءكم بيان من ربكم، يعني القرآن، يدفع عنكم ما تستشعرون من الانحطاط عن أهل الكتاب»[٣٥].

وبعد كلّ هذا العطاء والمنّ الربانيّ بمعجزة القرآن عليهم صدفوا عن الآيات أي أعرضوا عنها فحقّ عليهم سوء العذاب بسبب إعراضهم عمّا ينفعهم في الدّنيا والآخرة، وتكبرهم على الحقّ وهم يعلمونه.

٥- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف: ٣٧].

فلا ظلم أشنع من الكذب على الله عزّ وجلّ، ومعنى قوله تعالى: «أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ» ينالهم ما كُتب لهم من العذاب، وبيّن السّدي ذلك العذاب فقال: «سواد الوجوه وزرقة العيون»، ويؤكّد هذا قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٠٦]

ومعنى «حتّى» أنّها للتأويل على معنى الانتهاء، يعني: أنهم يستوفون أعمارهم وأرزاقهم إلى الموت،

فإذا فُنيت وفرغوا منها جاءتهم رسلهم يتوفونهم[٣٦].

٦- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى لى أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾[يونس: ١٧].

وقد قدمنا الكلام عن قوله تعالى: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى لى أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ»، ثمّ ختم الله عزّ وجلّ الآية واصفهم بالإجرام وعدم الفلاح في الدّنيا والآخرة، والإجرام يكون بحقّ نفسه، وبحقّ غيره، أمّا حقّ النّفس فلأنّه سيُحرم الخير في الدّنيا ظانًّا نفسه أنّه يعمل لجلب الرزق والنّفع لنفسه، قال تعالى:﴿... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ ... ﴿٣﴾﴾[الطلاق: ٢ – ٣].

(٣٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٠١-٣٠٢.

(٣٤) محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس،مولده ووفاته ودراسته بها، عُين شيخًا للإسلام مالكيًا، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، من مصنفاته: مقاصد الشريعة الإسلامية، والوقف وآثاره في الإسلام، توفي: ١٣٩٣ه-١٩٧٣م. انظر: الزركلي، الأعلام، ج٦، ص١٧٣-١٧٤.

(٣٥) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج٨، ص ١٨١.

(٣٦) انظر: الواحدي، التفسير البسيط، تحقيق: أصل تحقيقه في (١٥ رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود)، الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطّبعة الأولى، ١٤٣٠ه، ج٩، ص١١٦.

أمّا إجرامه بحقّ غيره: فلأنّ الفساد والإفساد في الأرض يعمّ عقابه الصّالح والطّالح، والكذب على الله وآياته من أعظم الفساد، فعَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، ~ أَنَّ النَّبِيَّ ’، دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: «لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ»(٣٧).

وقد جاء في كتاب الله أنّ ادّعاء النّبوة بمن يدّعي أنّ الوحي ينزل عليه وينبئهم عن الله هو نوع من أنواع الافتراء والكذب على الله عزّ وجلّ، ووعده الله بالعذاب الهون بسبب قول الزّور الذي ادّعاه، وذلك جزاء استكباره وحبّ الظّهور الذي جرّه إلى أظلم الظّلم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣]، نقل غير واحد من المفسرين عن ابن عبّاس وعكرمة وقتادة قالوا: نزلت في مسيلمة الكذّاب، والأسود العنزي(٣٨).

وكذلك جاء في التّنزيل أنّ التكّذيب بالصّدق معطوف على التّكذيب بالله سبحانه وتعالى ﴿فَمَنْ لى لِي كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٢ – ٣٣]، فقد جاء في معنى الصّدق في هذه الآية عدّة تفاسير، منها: وأنّ التكذيب بالصّدق أي بالقرآن، وصدّق به المؤمنون، أو بلا إله إلّا الله، وصدّق به: يعني برسول الله ’، ومنهم من قال الصّدق هو جبريل عليه السّلام(٣٩).

ورغم اختلاف هذه التّفاسير إلّا إنّها تصدق عليها جميعًا، فإنّ التّكذيب بواحدة منها هو كذب على الله وافتراء عليه.

وكذلك فسّروا «الحقّ» بالنّبيّ ’، والقرآن الكريم في قوله تعالى:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ لى لي جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [العنكبوت: ٦٨]، فقد كذّبوا بهما عندما جاءهم النّبيّ ’ رسولاً وهو ينذرهم بالقرآن الكريم، ويحذرهم الكفر والاستكبار والعصيان، فكذّبوا به فوجبت لهم جهنّم مثوىً ومستقرًّا إلى حين(٤٠).

فالمتمعن بالآيات الّتي تتكلم عن الافتراء والكذب على الله كلّها تذكر الكفر والتكذيب بالحقائق، وتبيّن أنّ الكذب على الله إجرام وظلم وكفر وتكبّر، وقدّ توعّد الله فاعليه بأنواع العقاب والعذاب في الدّنيا والآخرة، قال رسول الله ’: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(٤١).

وقوله تعالى:﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ لت وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا لى لي عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

---

(٣٧) البخاري، صحيح البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج، رقم الحديث: ٣٣٤٦، ج٤، ص١٣٨.

(٣٨) انظر: الواحدي، التفسير البسيط، ج٨، ص٢٨٥، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص ٣٠٢.

(٣٩) انظر: ابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطّيب، المملكة العربية السعودية- مكتبة نزار مصطفى الباز، الطّبعة: الثّالثة، ١٤١٩ه، ج١٠، ص ٣٢٥١.

(٤٠) انظر: الفيروزآبادي، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، بيروت- دار الكتب العلمية، لا ط، لا ت، ص ٣٣٨. وانظر: الواحدي، التّفسير البسيط، ج١٧، ص ٥٦٢.

(٤١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ما يكره من النّياحة على الميت، رقم الحديث: ١٢٩١، ج٢، ص٨٠.

المبحث الرابع: تحليل الحرام، وتحريم الحلال أشدّ أنواع الظّلم:

التّحليل والتّحريم المطلق حقّ لله تعالى، لا يجوز للعبد أنْ يتدخل فيه بل على العبد أنْ يقف عند هذه الحدود الّتي رسمها الله له، قال تعالى:﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يونس: ٥٩]، وذلك لأنّ الله أعلم وأخبر بما يتناسب مع عبيده، والتّعدي على حقوق الله هو نوع من أنواع الافتراء والكذب على الله، وقد ذكر الله عزّ وجلّ هذا الصّنف من النّاس﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

ففي هذه الآية الكريمة يبيّن الله تعالى جهل العرب قبل الإسلام فيما حرّموا من الأنعام، «قال المفسرون إنّ المشركين من أهل الجاهلية كانوا يحرّمون بعض الأنعام فاحتج الله تعالى على إبطال قولهم بأنْ ذكر الضّأن والمعز والإبل والبقر، وذكر من كلّ واحد من هذه الأربعة زوجين ذكرًا وأنثى»[٤٢].

فالله عزّ وجلّ لم يحرم شيئًا من هذا لا ذكرًا ولا أنثى

وفي قوله تعالى: «ءَآلذَّكَرَيْنِ» الهمزة للإنكار والمراد بالذّكرين: الذّكر من الضّأن والذّكر من المعز، «والمعنى إنكار أنْ يحرّم الله تعالى من جنس الغنم ضأنها ومعزها شيئًا من نوعي ذكورها وإناثها»[٤٣].

وقوله تعالى: «أَمْ كُنتُمْ تر « منقطعة للإضراب الانتقالي، فتؤذن باستفهام مقدّر بعدها حيثما وقعت، وهو إنكاريٌّ تقريريٌّ بقرينة السّياق.

وهل كنتم شهداء على هذه الوصيّة التي وصاكم الله بها، فـ«إذ» ظرف لـ«شهداء» مضاف إلى جملة «وصاكم».

والإشارة في قوله «بهذا» إلى التّحريم المأخوذ من قوله: «حرّم» وذلك لأنّ في إنكار مجموع التّحريم تضمّنًا لإبطال تحريم معيّن ادّعوه، فلذلك صحت الإشارة إلى التّحريم على الإجمال، وخصّ بالإنكار حالة المشاهدة تهكّمًا بهم[٤٤].

«وقوله تعالى: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا « مترتّب على الإنكار في قوله: «ئر حَرَّمَ» إلى قوله: «إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا»، أيْ فيترتب على ذلك الإبطال والإنكار أنْ يتوجّه سؤال من المتكلِّم مشوب بإنكار عمّن اتّصف بزيادة ظلم الظّالمين الّذين كذبوا على الله ليضلّوا النّاس، أيْ لا أحد أظلم ممّن افترى على الله كذبًا، فإذا ثبت على هؤلاء المخاطبين قد افتروا على الله كذبًا، ثَبت أنّهم من الْفَرِيق الّذي هُوَ أظلم الظّالمين»[٤٥].

---

(٤٢) الرّازي، مفاتيح الغيب، بيروت-دار الكتب العلميّة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ه-٢٠٠٠م، ج٣، ص١٧٨.

(٤٣) الزمخشري، الكّشاف، ج٢، ص ٧٤.

(٤٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٨، ص١٣٤.

(٤٥) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٨، ص١٣٥.

والتّشريع بما لم يأذنْ به الله تعالى هو نوع من أنواع الشّرك عياذًا بالله، قال تعالى:﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [الشورى: ٢١].

قال ابن كثير:(٤٦) «أي هم لا يتّبعون ما شرع الله لك من الدّين القويم بل يتّبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجنّ والإنس من تحريم ما حرّموا عليهم من البحيرة والسّائبة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة والدّم والقمار إلى نحو ذلك من الضّلالات والجهالة الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التّحليل والتّحريم والعبادات الباطلة والأقوال الفاسدة»(٤٧).

فيجب على كلّ مخلوق أنْ يتّبع ما أحلّ الخالق له، ويجتنب ما حرّم عليه، فهو أخبر بما خلق، وأعلم.

المبحث الخامس: الإعراض عن التّذكرة ظلم للنّفس وفتح الطّريق إلى الإجرام والضّلال الأبدي:

من طبيعة الإنسان النّسيان، والغفلة لانشغاله الدّائم في أموره الدّنيويّة، فقد أمر الله نبيّه ﷺ بالتّذكرة فقال تعالى: ﴿...فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وقال تعالى:﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ [الغاشية: ٢١].

وبالمقابل توعّد الله سبحانه المعرض عن التّذكرة بالعذاب ووصفهم بأشنع الأوصاف فتارةً بالمجرم، وأخرى بالضّال.

وقد جاء القرآن الكريم بآيتين في سياق عجيب، ونَظم بديع، أذكرهما وأبيّن فيهما روعة التّدرج في الوصف بما يطابق العمل:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٢٢].

وفي سورة الكهف: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾[الكهف: ٥٧]

في هذا السّياق القرآني يذكر ربُّنا جلّ جلاله أنّه لا أحد أظلم منه لأنّه ظلم نفسه بحرمانها من التّأمّل بما ينفعها، وظلم الآيات بتعطيل مَن أُريد انتفاعهم بها، فمثلًا: إنْ لم ينتفع الأب أو الأمّ من الذّكرى لن يشاهد الأولاد أثر الالتزام على الوالدين ليَرْبُوا على ذلك، وظَلَمَ الرّسول ﷺ بتكذيبه والإعراض عنه، رغم أنّ تكذيبه لا يضرّ الرسولَ ﷺ شيئًا، وظَلَمَ حقَّ ربّه إذّ لم يمتثل ما أراده منه.(٤٨)

ففي سياق سورة السّجدة ذكر الله ظلم المعرضين عند التّذكرة وألحقها بحرف العطف «ثمّ» الذي يفيد الترتيب مع التّراخي، والمعنى أنّ الإنسان عمومًا والمسلم خصوصًا إذا سمع الذكرى في المرّات الأولى لا يعرض عنها مباشرة، بل يكون هذا الإعراض مع تراخي الزّمن، ولكن عندما يكثر

(٤٦) إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع الحافظ عماد الدين أبو الفداء ابن الخطيب شهاب الدين أبي حفص القرشي البصرويّ الدمشقي الشافعي، مولده بقرية شرقي بصرى من أعمال دمشق، كان قدوة العلماء والحفاظ وعمدة أهل المعاني والألفاظ، من مؤلفاته: البداية والنهاية، وتفسير القرآن العظيم، توفي سنة: ٧٧٤ه، انظر: الداوودي، طبقات المفسرين، بيروت-دار الكتب العلمية، ج١، ص١١١.

(٤٧) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٧، ص١٩٨.

(٤٨) انظر ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج٢١، ص٢٣٤.

الإعـراض عـن الآيـات مـرةً تلـو الأخـرى، يألـف القلـب المعـاصي، ويصـير قليـل التأثـر بالعـبر والمواعـظ، فـتراه يُعـرض مجـرد تذكـيره باللـه سـبحانه وتعـالى، وهـذا مـا جـاء بـه السّـياق في سـورة الكهـف بـــ الفـاء التـي تفيـد التعقيـب والترّتيـب «فأعـرض عنهـا» إلى أنْ يصـل بـه الحـال إلى التكـبر عـلى آيـات الخالـق كـما في قولـه تعـالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ لى لي بِٱلۡإِثۡمِ ﴿٢٠٦﴾ [البقـرة: ٢٠٦].

فـكان العقـاب في السـورتين شـديدًا، ولكـنْ في سـورة الكهـف أشـدّ وأخطـر، ففـي سـورة السـجدة قـال تعـالى: «إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ» وهـي جملـة مسـتأنفة اسـئنافًا بيانيًّـا ناشـئًا عـن تفظيـع ظلـم الّـذي ذُكِّـر بآيـات ربّـه فأعـرض عنهـا، لأنّ السّـامع بترقّـب جـزاء الظـالم، ووصـف مَـن هـو أظلـم النّـاس لنفسـه وللرسـول ولآيـات ربّـه بالمجرمـين، وعـدل عـن ذكـر ضميرهـم لزيـادة تسـجيل فظاعـة حالهـم بأنّهـم مجرمـون، والظّلـم للنّفـس إجـرام بحقّهـا[٤٩].

والمجـرم يـؤوب إلى اللـه عـزّ وجـلّ راجيًـا توبتـه وعفـوه، طامعًـا بحلمـه وكرمـه سـبحانه وتعـالى، أمّـا العقوبـة التـي ذكرهـا اللـه في الآيـة الأخـرى فهـي مـن أقـصى العقوبـات وهـي نتيجـة إعراضـه المتكـرر عـن آيـات اللـه، وإذا ذُكـر بهـا نـسي أفعالـه السـيئة وكأنّـه بـرئ مـن التقصـير في حـقّ نفسـه دون التّفكـر بالعاقبـة التـي سـيؤول إليهـا، وهـي تهديـد اللـه لـه بأنّـه لـو دعـي إلى الحـقّ وطريـق الهدايـة لا يمكـن لـه أنْ يسـتجيب لأنّ اللـه عـزّ وجـلّ جعـل عـلى قلبهـم أغطيـة وغشـاوة فـلا يدخـل الحـقّ إليهـا، وجعـل في آذانهـم صمـم معنـويّ عـن الرّشـاد، وهـذا الصّنـف مـن النّـاس تُقلـب عندهـم الحقائـق، فـيرون الحـقّ باطـلًا، والباطـلَ حقًـا.

قـال ابـن عاشـور: «وأكّـد نفـي اهتدائهـم بحـرف توكيـد النّفـي وهـو «لـن»، وبلفـظ «أبـدًا» المؤكّـد لمعنـى «لـن»، وبحـرف الجـزاء المفيـد تسـبُّب الجـواب عـلى الـشّرط، وإنّمـا حصـل معنـى الجـزاء باعتبـار تفـرّع جملـة الـشّرط عـلى جملـة الاسـئناف البيـانيّ، أيْ ذلـك مُسـبَّب عـلى فطـر قلوبهـم عـلى عـدم قبـول الحـقّ»[٥٠].

فمـن هـذه الآيـات الّتـي تحمـل في طيّاتهـا التّهديـد والعـذاب الأليـم نـرى أنّ إعـراض المجرمـين عـن ربّ العالمـين، لا تكـون مـن مؤمـن إيمانًـا حقيقيًـا باللـه تعـالى لأنّهـا تناقـض قولـه تعـالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا ... ﴿٥١﴾﴾[النـور: ٥١].

المبحث السّادس: الظّلم والتّكذيب بالرّسل والإسلام:

عندمـا نذكـر الرّسـل نذكـر الإسـلام لارتباطهـما ببعـض ارتباطًـا وثيقًـا، فـكلّ الرّسـل والأنبيـاء جـاؤوا بديـن واحـد وهـو الإسـلام، فقـد جـاء في القـرآن الكريـم مـا يؤكّـد هـذا المعنـى بلفـظ عـامّ وخـاصّ، أمّـا العـامّ ففـي قولـه تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عند ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ... ﴿١٩﴾﴾ [آل عمـران: ١٩]، وقـال تعـالى: ﴿وَمَـن يَبۡتَـغِ غَـيۡرَ ٱلۡإِسۡـلَٰمِ دِينًـا فَلَـن يُقۡبَـلَ مِنۡـهُ وَهُـوَ فِي ٱلۡأٓخِـرَةِ مِـنَ ٱلۡخَاسِرِيـنَ ﴿٨٥﴾﴾[آل عمـران ٥٨]،يؤكّـد الله عـزّ وجـلّ أنّ دينـه الإسـلام، والأنبيـاء كلّهـم أتَـوا بديـن اللـه، وفي الآيـة الأخـرى، يقـول ابـن عاشـور: «عُطِـف عـلى جملـة «أفغـير ديـن اللـه يبغـون» ومـا بينهـما اعـتراض كـما علمـت وهـذا تأييـس لأهـل الكتـاب مـن النَّجـاة في الآخـرة، وردٌّ لقولهـم: نحـن عـلى ملّـة إبراهيـم، فنحـن ناجـون عـلى كلّ حـال»[٥١].

(٤٩) انظر: الزمخشري، الكشّاف، ج٣، ص٥١٥. وانظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج٢١، ص ٢٣٤.

(٥٠) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج١٥، ص٣٥٦.

(٥١) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج٣، ص٣٠٢.

أمّا الآيات الخاصّة ففي قوله تعالى في سيدنا إبراهيم ’:﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾[آل عمران: ٦٧].

وقال حكاية عن سيدنا موسى ’:﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤].

وقال حكاية عن سيدنا يوسف ’: ﴿ ... تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾[يوسف: ١٠١].

وقال الحواريّون: ﴿ ... نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾[آل عمران: ٥٢].

وقد وصف الله المكذبين بالرّسل وبما جاؤوا به من عند الله بأظلم الظّالمين، قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [النّجم: ٥٢]، ووصفهم بأنّهم طغوا وتجبّروا من أجل إرضاء أهوائهم.

فقد ذكر للمكذّبين برسول الله ’ هلاك الأمم السّابقة، قوم عاد، وثمود، ونوح، ولوط ليعتبروا بمن سبقهم، وشدّد الأمر بقوله «أظلم» أي لا أحد أظلم منهم.

أمّا التّكذيب بالإسلام فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الصف: ٧]، قال ابن عبّاس ¢ في قوله تعالى: «وَهُوَ بر إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ» «إِلَى التَّوحِيد وهم الْيَهُود دعاهم النّبيّ ’»[٥٢]. ولكن كذبوه استكبارًا وعنادًا، وأخلفوا بالعهود والمواثيق، جاهدين على الإسلام بكلّ ما أوتوا من قوّة، فظلموا أنفسهم، وكُتبوا من الظّالمين الّذين لم تُكتب لهم الهداية.

الخاتمة:

ختامًا لهذا البحث أضع نقاطًا عدة استخلصتها من خلال الرّحلة البحثيّة التي بيّنت فيها خطورة الظّلم، ودرستها من خلال النّحو والبلاغة، معتمدًا على جمالية السّياق القرآني في عرض المراد منه، وهو ما أُمرنا به من التّدبر لكتاب الله تعالى﴿أفلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، وهذه بعض النّقاط الّتي أسجلها:

١- تكرار النّهي عن الظّلم في آيات كثيرة دليل على خطورة الظّلم في الدّنيا والآخرة، قال ’: **«كُلُّ ذُنُوبٍ يُؤَخِّرُ اللَّهُ مِنْهَا مَا شَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِلَّا الْبَغْيَ، وَعُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ، أَوْ قَطِيعَةَ الرَّحِمِ، يُعَجِّلُ لِصَاحِبِهَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْمَوْتِ»**[٥٣].

٢- ورود كلمة الظّلم على وزن «أفعل» تعني: لا أحد أظلم.

٣- إبراز أهمية المساجد، والتّحذير التّعدّي عليها لأنّه من أظلم الظّلم.

٤- جعل الله كاتمَ الشّهادة من الظّالمين حفاظًا على الحقوق، فللحقوق في الإسلام اعتبار كبير، نظرًا لكرامة الإنسان.

٥- حفظ الشّريعة الغرّاء تكون بالصّدق الذي جاء به النّبيّ ’، وأعظم الظّلم الكذب على الله وآياته.

٦- الحلال والحرام حقّ لله تعالى، وتحليل الحرام، أو تحريم الحلال شرك بالله تعالى، ﴿ أَمْ لَهُمْ

(٥٢) : الفيروزآبادي، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص٤٦٩.

(٥٣) البخاري، الأدب المفرد، باب: البغي، رقم الحديث: ٥٩١، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت- دار البشائر الإسلامية، الطبعة: الثالثة: ١٤٠٩ه- ١٩٨٩م، ص٢٠٧.

شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ... ﴿٢١﴾ [الشورى: ٢١].

٧- الإعراض عن آيات الله عند التّذكرة بها ظلم وإجرام في حقّ النّفس.

٨- الإسلام دين الله تعالى، وهو دين جميع الأنبياء، والتّكذيب بالإسلام الذي جاء به الرّسل هو من أظلم الظّلم.

٩- حرّم الله الظّلم على نفسه، ثمّ أمر عباده بالابتعاد عنه فهو العدل سبحانه وتعالى.

١٠- التّحذير من الظّلم عمومًا، وأظلم الظّلم خصوصًا لأنّ عاقبته شديدة أليمة.

والله من وراء القصد

فهرس المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم.

٢- البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النّجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣- مسلم، صحيح مسلم، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، بيروت-دار إحياء التراث العربي، لاط، لات.

٤- الرازي، مختار الصّحاح، تحقيق: يوسف الشّيخ محمّد، بيروت-المكتبة العصريّة، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠ه-١٩٩٩م.

٥- زكريا الأنصاري، الحدود الأنيقة والتّعريفات الدّقيقة، تحقيق: د. مازن المبارك، بيروت- دار الفكر المعاصر، الطبعة: الأولى، ١٤١١ه.

٦- ابن منظور، لسان العرب، بيروت-دار صادر، الطبعة: الثالثة -١٤١٤ هـ.

٧- الشّريف الجرجاني، التّعريفات، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، بيروت- دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

٨- الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، بيروت- دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى،١٤٢٢هـ -٢٠٠١م.

٩- الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، مصر- دار المعارف، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٧م.

١٠- القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، الحاشية: أحمد بن محمد بن محمد الشمني، دار الفكر، لاط، ١٤٠٩ه-١٩٩٨م.

١١- ابن عطية، : المحرر الوجيز، تحقيق:عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت-دار الكتب العلمية، الطّبعة: الأولى، ١٤٢٢ه.

١٢- الشّوكاني، فتح القدير، بيروت-دار الكتب العلمية، دمشق- الكلم الطّيب، الطّبعة: الأولى، ١٤١٤ه.

١٣- أبو حيّان، البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت-دار الفكر، لاط، ١٤٢٠.

١٤- التّحرير والتّنوير، ابن عاشور، تونس- الدار التونسية للنّشر، لاط، ١٩٨٤م.

١٥- الزّمخشري، الكشّاف، بيروت-دار الكتاب العربي، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧ه.

١٦- أبو الفضل الحنفي، الاختيار لتعليل المختار، تحقيق: عبد اللطيف محمد عبد الرحمن،بيروت-دار الكتب العلميّة، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦ه-٢٠٠٥م.

١٧- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي محمّد سلامة، دار طيبة للنّشر والتّوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠ه- ١٩٩٩م.

١٨- الواحدي، التفسير البسيط، تحقيق: أصل تحقيقه في (١٥ رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود،

الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطّبعة الأولى، ١٤٣٠ه.
١٩- ابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطّيب، المملكة العربية السعودية- مكتبة نزار مصطفى الباز، الطّبعة: الثّالثة، ١٤١٩ه.
٢٠- انظر: الفيروزآبادي، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، بيروت- دار الكتب العلمية، لا ط، لا ت.
٢١- الرّازي، مفاتيح الغيب، بيروت-دار الكتب العلميّة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ه-٢٠٠٠م.
٢٢- البخاري، الأدب المفرد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت- دار البشائر الإسلامية، الطبعة: الثالثة: ١٤٠٩ه-١٩٨٩م.

الخلاف الاصطلاحي الفقهي في موقف النّحاة من القراءات القرآنيّة

د. يوسف الجاجيّة(١)

ملخّص البحث

يقوم التّشريع الإسلامي على أسس وركائز علميّة، تؤصّلها مصطلحات يدرسها أهل العلم ويضعون لها المفاهيم الاصطلاحيّة الملائمة، قد تختلف بعض هذه المصطلحات بين القدماء والمحدثين، وهي محطّ اهتمام أهل النّحو، بخاصّة في نظرتهم إلى القراءات القرآنيّة المتعدّدة، بمصطلحاتها المتنوّعة.

لذا ينبغي علينا إن أردنا دراسة مواقف النّحاة وخلافاتهم في القراءات القرآنيّة، أن نتعمّق في دراسة علم المصطلح، كذلك في دراستنا الأحاديث النّبويّة وما يُروى عن الصّحابة ممّا يدلّنا على بعض التّلاوات الشّاذّة.

انطلاقًا من موقف النّحاة من القراءات غير المتواترة، واستدلالهم بها في القياس النّحويّ، درسنا موقف النّحاة، ومدلولات المصطلحات في القرآن الكريم، وانطلقنا من المناهج العلميّة الآتية: (التّاريخيّ، المقارن، الاستقرائيّ، لندرس إشكاليّات بحثنا، ونثبت فرضيّاته أو نفنّدها، وقد خلصنا إلى أنّه لم يتوافر لنصّ، ما توفّر للقرآن الكريم من تواتر رواياته، وعناية العلماء بضبطها وتحريرها، متنًا وسندًا، وضبطها بالمشابهة عن أفواه العلماء الفصحاء.

الكلمات – المفاتيح: المصطلحات – النّحاة – القراءات القرآنيّة – المتواترة – الشّاذّة.

Research Summary

Islamic legislation is based on scientific foundations and pillars, rooted in terms studied by scholars and for which they develop appropriate terminological concepts; some of these terms may differ between the ancients and the moderns, and they are the focus of interest of grammarians, especially in their view of the multiple Qur'anic readings, with their various terms.

Therefore, if we want to study the attitudes of grammarians and their differences in the Qur'anic readings, we must delve deeper into the study of terminology, as well as in our study of the hadiths of the Prophet and what is narrated from the Companions, which indicates some abnormal recitations.

Based on the position of grammarians of non-frequent readings and their reasoning in grammatical measurement, we studied the position of grammarians, and the implications of terms in the Holy Qur'an, and we proceeded from the following scientific approaches: historical, comparative, and inductive, to study the problematic issues of our research, and prove its hypotheses or refute them. We have concluded that there is no equivalent to the recurrent narrations present in the Holy Qur'an, as well as the meticulousness of scholars in editing the content and their standardization based on the similarities found in the statements of eloquent scholars.

Keywords: terminology; scholars; Quranic readings, frequent; abnormal.

(١) Yousef.jajiyeh@jinan.edu.lb ٠٠٩٦١٣٦٣١٩٤٤

المقدّمة

حين ندرس موقف النّحاة من القراءات القرآنيّة، يجب علينا التّعمّق في دراسة علم المصطلح، لنستطيع تمييز أنواع القراءات من بعضها، كذلك أنواع الأحاديث التي تدلّنا على بعض القراءات التي قرأ بها الصّحابة، ولم تُثبّت في القرآن الكريم الذي وصل إلينا بالتّواتر، هذا ولا ننسى الإشارة إلى أنّ علم "المصطلح" لم تكن له مدرسة خاصّة مستقلّة به، ولم يتمّ إفراده بعلم يختصّ به من دون سائر العلوم، عدا مصطلحات الحديث النّبويّ الشّريف، حين نشأ مصطلح الجرح والتّعديل، لتمييز الحديث الصّحيح من الضّعيف من الموضوع، والمرفوع من الحسن، وما إلى ذلك.

في العصر الحديث، بدأ ما يمكن لنا أن نُسمّيه "ثورة مصطلحيّة"، أسّست تأسيسًا واضحًا سليمًا، يسهل على الدّارسين، لكلّ أنواع العلوم والفنون، ومن ذلك علوم البحث العلمي ومناهجه وأساليبه وطرائقه؛ لذا كان بحثنا يهتمّ بالمصطلح، بما يتعلّق بعلوم القراءات، علوم الحديث، علوم التّفسير، أصول النّحو العربي ومبادئ النّحاة العرب.

إشكاليّات البحث

- هل موقف النّحاة من القراءات القرآنيّة واحد؟
- هل يَعُدُّ النّحاة القراءات غير المتواترة، من القرآن الكريم، وبالتّالي يستدلّون بها؟
- هل مدلولات المصطلحات في القرآن الكريم هي نفسها في الأصول النحويّة؟
- هل يقع التّواتر في كلمات القرآن الكريم وآياته، بنوعيه: اللفظي، والمعنوي؟
- هل يتّفق أهل العلم جميعًا على وجوب تحقّق التّواتر اللفظي في القرآن الكريم؟

فرضيّات البحث

-تبعًا للخلافات النّحويّة في المسائل كافّة، نتوقّع وجود خلاف بينهم، في نظرتهم إلى القراءات القرآنيّة.

-القراءات غير المتواترة هي من القراءات الشّاذّة، لا يجوز لنا القراءة بها، من المنطقي إذًا، ألا يعدّها النّحاة من القرآن الكريم، وألّا يستدلّوا بها.

-تختلف المصطلحات ما بين المتقدّمين والمتأخّرين أحيانًا، ما يتسبّب في خلاف في تأصيل مدلولاتها بين المفسّرين والنحويين.

-التّواتر اللفظي واقع حكمًا في القرآن الكريم، وإلّا ما وصل إلينا بالتّلاوات المعلومة، لكن يستحيل وجود تواتر معنوي في القرآن الكريم.

-التّواتر اللفظي شرط أصيل في شروط القرآن الكريم، لا خلاف بين أهل العلم عليه.

مناهج البحث

- المنهج التاريخي: نرصد من خلاله المصطلحات المختصّة ببحثنا، وكيف نظر إليها المفسّرون من جهة، والنّحاة من جهة.

- المنهج المقارن: نقارن من خلاله المصطلحات، شكلاً ومضمونًا، وبيان النظرة الاختلافيّة حولها، كذلك التّوافقيّة، بين النّحاة والمفسّرين والقرّاء.

- المنهج الاستقرائي: نعتمده لدراسة الحالة وتطوّرها، وأسباب ظهور بعض الخلافات، وعللها.

بادئ ذي بدء، نعرّف مصطلح "القرآن" اصطلاحًا، بأنّه: "هو كلام الله تعالى المنزّل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم باللسان العربي، للإعجاز بأقصر سورة منه، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتّواتر، المتعبّد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة النّاس".[٢]

نحن نقرأ القرآن الكريم، وفق رواياتٍ عشر، لنا أن نختار منها ما نريد، على أنّه لا ينبغي لنا أن نقرأ برواية شاذّة غير متواترة، هذا من النّاحية الدّينيّة، أمّا من النّاحية النّحويّة، فيقول الإمام السّيوطيّ: "أمّا القرآن، فكلّ ما ورد أنّه قُرئ به جاز الاحتجاج به، سواء كان متواترًا أم آحادًا أم شاذًّا".[٣]

فإذا أردنا أن نُحدّد خصائص القرآن الكريم أو نحاول تحديدها، لتبيّن لنا ما يأتي: القرآن كلام الله تعالى، هو كتاب معجِز، فيه شفاء للمؤمنين وراحة لهم، نُقل إلينا بالتّواتر، أي بطريق النقل الذي يُفيد العلم والقطع بصحّة الرّواية، وهو أمر ثابت للقرآن بطريق الكتابة والمشافهة في جميع الأزمان، من لدن نزول الرّوح الأمين به على قلب سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا. فقد كان في زمنه عليه الصّلاة والسّلام كتّاب للوحي يكتبون كلّ ما ينزل على رسول الله. ثم يحفظه الصحابة في الصّدور تعلّقًا به، وحرصًا على الانتفاع بمقتضاه وإطاعة أوامره والتزام أحكامه، وقد ظلّ هذان الأمران معًا قائمَين بتوالي العصور وتتابعهما إلى الآن مصداق ذلك قوله تعالى: âإنّا نحن نزّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون[٤]ãَ، وهذا يترتّب عليه أنّ ما ليس بمتواتر، كالقراءة الشّاذّة والحديث القدسيّ، لا يُعدّ من القرآن.[٥]

ونظرًا إلى ثبوت القرآن الكريم بطريق القطع واليقين، فإن نصوصه قطعيّة الثّبوت بلا خلاف من أحد.

ثمّ إنّ من خصائص القرآن أنّ جميع كلماته عربيّة، ليس فيها شيء من لغة الأعاجم، لورود بعض الآيات القرآنيّة التي تؤكّد أنّ القرآن نزل عربيًّا، وليس بأعجميّ، وإن كان قد ورد بعض الخلاف هنا، في وجود كلمات أعجميّة في القرآن الكريم، مثال: "وزير"، "تابوت"، حتّى لفظ الجلالة "الله"، اختلفوا حوله، أكَلِمَةٌ عربيّة هي أو أنّها عبريّة، إلّا أنّ هذا يرجع إلى قوّة اللغة العربيّة، بما يُمكّنها من استقبال بعض الكلمات الدّخيلة، وتطويعها لتكون عربيّة استخدامًا، من دون أن تُنكرها الأذن.

إذًا، بالنّظر إلى هذين الأمرين معًا، تواتر تلاوة الآيات، وعربيّة آياتها وكلماتها، تتأصّل حدود

(٢) علي بن محمد الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام، المحقق: عبد الرزاق عفيفي، دار الصميعي، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ١/٨٢.

(٣) جلال الدين السيوطي: الاقتراح في علم أصول النحو، قدّم له وضبطه وشرحه وعلق عليه، أحمد سليم الحمصي ومحمد أحمد قاسم، جروس برس، ط١، ١٩٨٨م. ص ٣٦.

(٤) سورة الحجر (١٥)، الآية رقم (٩).

(٥) عبد العلي محمد السهالوي: فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت. تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلميّة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ٢/٩.

بحثنا في التّوقّف عند المصطلحات من جهة، وكيف تقبّلها النّحاة، وفي النّظر في القراءات الشّاذّة، والتّساؤل عن سبب قبول النّحاة بها.

هذه المصطلحات: "التّواتر"، "الآحاد"، "الشّاذّ"، نجدها مدار جدل بين الأصوليين والنّحاة، سواءً في طريق الاستدلال بها على الأحكام الشّرعيّة، والاستشهاد بها في إثبات القواعد النّحويّة، فقبل أن نُبَيّن موقف الأصوليين والنّحاة، لا بدّ من تبيّن هذه المصطلحات.

أوّلًا: التّواتر لغة:

هو من المصطلحات التي استخدمها الأصوليّون والمحدِّثون والنحاة. واستعمال النّحاة لهذا المصطلح كان متأخّرًا عن استعمال الأصوليين والمحدثين، فالتّواتر لغة، "التّتابع"، وهو مجيء الواحد بعد الآخر، تقول تواتر المطر أي تتابع نزوله، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمّ أرسلْنا رُسُلنا تترًا﴾[٦]، أي متتالين.[٧]

ثانيًا: التواتر عند المحدثين[٨]

يمكن لنا تحديد التّواتر في عُرف المحدثين، بأنّه: "ما رواه عدد كثير تُحيل العادة تواطؤه على الكذب"[٩]، وشروط التّواتر عند المحدثين، يحدّدها الطّحّان بالآتي:

أ-أن يرويه عدد كثير، وقد اختُلف في أقلّ الكثرة على أقوال، المختارة أنّه عشرة أشخاص.

ب-أن تُوجد هذه الكثرة في جميع طبقات السّند.

ج-أن تُحيل العادة تواطؤهم على الكذب.

د-أن يكون مستند خبرهم الحِسَّ، كقولهم، سمعنا أو رأينا أو لمسنا... فإن كان مستند خبرهم العقل، كالقول بحدوث العالم مثلًا، فلا يُسمّى الخبر حينئذٍ متواترًا.

ثالثًا: أقسام التواتر

التواتر على قسمين[١٠]:

١-المتواتر اللفظي: أي ما تواتر لفظه ومعناه مثل حديث "من كذب عليّ متعمدًا فليتبوّأ مقعده من النار".

(٦) سورة المؤمنون (٢٣)، رقم الآية ٤٤.

(٧) - ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، لا ت. مادة تواتر.

(٨) التواتر بين القراء والمحدثين، ملتقى أهل الحديث.http://www.ahlalhadeeth.com/vb/، في ٩/١٠/٢٠١٠.

(٩) محمود الطحان: تيسير مصطلح الحديث، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، ص ١٩

(١٠) التواتر بين القراء والمحدثين، ملتقى أهل الحديث. http://www.ahlalhadeeth.com/vb

٢-المتواتر المعنوي: وهو ما تواتر معناه دون لفظه.

هـذا هـو التواتـر عنـد المحدثـين باختصـار، وعنـده يقـف علـماء النّحـو في استشـهاداتهم ومصادرهـم، لكـنّ الإشـكاليّة هنـا تطـرح نفسـها، لا يوجـد تواتـر معنـويّ عنـد القـرّاء؛ لأنّ القـرآن منقـول بلفظـه ومعنـاه معًـا، فكيـف يقـع التّوافـق أو الخـلاف، مـا بـين النّحويـين والقـرّاء؟ والإجابـة أنّ ذلـك يكـون بالتّواتـر اللفظـيّ، المحتّـم وقوعـه في القـرآن الكريـم، حتّـى يصـل إلينـا برواياتـه المتواتـرة، بـل حتّـى الرّوايـات الشّـاذّة يسـتدلّ بهـا النّحـاة كذلـك.

رابعًا: التّواتر عند القرّاء[١١]

يذهـب بعـض الباحثـين إلى أنّ شرط التّواتـر عنـد القـرّاء، مختلـف فيـه، بـين مـن يشـترط التّواتـر، كأصـل واضـح في ثبـوت القـرآن الكريـم، هـؤلاء يذهبـون إلى أنّ عـدم اشـتراط التّواتـر في ثبـوت القـرآن الكريـم قـول حـادث؛ لإجـماع الفقهـاء والمحدثـين وغيرهـم، ولم يُخالـف مـن المتأخّريـن إلّا مـكيّ واحـد، وتبعَـهُ بعـض المتأخّريـن، بـل كيـف يكـون التواتـر شرطًـا، ومـن المحتمـل أن تتواتـر القـراءة عنـد قـومٍ مـن دون سـواهم، فهـل يُلغـي هـذا كونهـا متواتـرة؟

أمّـا الـرأي المخالـف، فيكتفـي بصحّـة السّـند، ولا يـرى التّواتـر شرطًـا يُعتـدّ بـه؛ لأنّـه إذا أُثبـت التواتـر لا يُحتـاج فيـه إلى الرّكنـين السّـابقين مـن الرّسـم وغـيره، إذ مـا ثَبُـتَ مـن أحـرف الخـلاف متواتـرًا عـن النّبـيّ صـلّى اللـه عليـه وسـلّم وجـب قبولـه، وقُطـع بكونـه قرآنًـا، سـواء وافـق الرسـم أم خالفـه، وإذا اشـترطنا التّواتـر في كلّ حـرف مـن حـروف الخـلاف، انتفـى كثـير مـن حـروف الخـلاف الثّابـت عـن هـؤلاء السّـبعة وغيرهـم.

قـال الطّاهـر بـن عاشـور[١٢]: إن الـشّروط الثّلاثـة[١٣] هـي شروط قبـول القـراءة إذا كانـت غـير متواتـرة عـن النّبـيّ صـلّى اللـه عليـه وسـلّم، بـأن كانـت صحيحـة السّـند إليـه، ولكنّهـا تبلـغ حـدّ التّواتـر، فهـي بمنزلـة الحديـث الصّحيـح، وأمّـا القـراءة المتواتـرة فهـي غنيّـة عـن هـذه الـشّروط؛ لأنّ تواترهـا يجعلهـا حجّـة في العربيّـة ويُغنيهـا عـن الاعتضـاد بموافقـة المصحـف عليهـا.

وقـد ذكـر السّـيّد المرتـضى[١٤] مـن أئمّـة الشـيّعة أنّ مـن الأدلّـة عـلى عـدم نقصـان القـرآن تواتـره مـن طـرق الإماميّـة بجميـع حركاتـه وسـكناته، وحروفـه وكلماتـه، وآياتـه وسُـوره، تواتـرًا قطعيًّـا عـن الأئمّـة الطّاهريـن عليهـم السّـلام عـن جدّهـم رسـول اللـه صـلّى اللـه عليـه وسـلّم.

خامسًا: أنواع القراءات

يحـرّر الإمـام السّـيوطي هـذه المسـألة في كتـاب الإتقـان في علـوم القـرآن، ذاكـرًا إتقـان الإمـام ابـن

(١١) المرجع نفسه.

(١٢) التواتر بين القراء والمحدثين، ملتقى أهل الحديث. http://www.ahlalhadeeth.com/vb

(١٣) التواتر، وموافقة العربية ولو بوجه، وموافقة الرسم العثماني.

(١٤) بعنوان: تواتر القرآن htt://www.al-mniloni.com/library/

الجـزري لهـا قائـلاً[١٥]: "وقـد تحـرّر لي منـه أنّ القـراءات أنـواع:

الأوّل- المتواتـر: وهـو مـا نَقَلَـه جمـعٌ لا يمكـن تواطؤهـم عـلى الكـذب، عـن مثلهـم إلى منتهـاه، وغالـب القـراءات كذلـك.

الثّـاني- المشـهور: وهـو مـا صـحّ سـندُه ولم يبلـغ درجـة التّواتـر، ووافـق العربيّـة والرّسـم، واشـتهر عنـد القـرّاء، فلـم يَعـدّوه مـن الغلـط ولا مـن الشّـذوذ، ويُقـرأ بـه، عـلى مـا ذكـر ابـن الجـزري، ومثالـه: مـا اختلفَـتِ الطّـرق في نقلـه عـن السّـبعة، فَـرَواهُ بعـض الـرّواة عنهـم دون بعـض، وأمثلـة ذلـك كثـيرة في فـرش الحـروف مـن كتـب القـراءات كالـذي قبلـه، ومـن أشـهر مـا صُنّـف في ذلـك "التيسـير" للـدّاني، وقصيـدة الشّـاطبي، وأُوعيـة "النـشر في القـراءات العـشر"، وتقريـب النـشر، كلاهـما لابـن الجـزري.

الثّالـث- الآحـاد: وهـو مـا صـحّ سـنده وخالـف الرّسـم أو العربيـة، أو لم يشـتهر الاشـتهار المذكـور، ولا يُقـرأ بـه، وقـد عقـد الترمـذي في جامعـه، والحاكـم في مسـتدركه لذلـك بابًـا، أخرجـا فيـه شـيئًا كثـيرًا صحيـح الإسـناد، مـن ذلـك مـا أخرجـه الحاكـم، مـن طريـق عاصـم الحـدريّ، عـن أبي بُكـرة: أنّ النّبـيّ صـلّى اللـه عليـه وسـلّم قـرأ: "متكئـين عـلى رفـارف خـضرٍ وعباقـري حسـان". وأخـرج مـن حديـث أبي هريـرة: أنـه صـلّى اللـه عليـه وسـلّم قـرأ: "فـلا تعلـم نفـسٌ مـا أخفـي لهُـم مـن قُـرّاتِ أَعْـيُنٍ". وأخـرج عـن ابـن عبّـاس أنـه صـلّى اللـه عليـه وسـلّم قـرأ: "لَقَـدْ جَاءَكُـمْ رَسُـوْلٌ مِـنْ أَنْفسِـكُمْ"، أي أعظمكـم قـدرًا[١٦].

الرّابـع- الشّـاذ: وهـو مـا لم يَصـحّ سـندُه، وفيـه كتـب مؤلّفـة، مـن ذلـك قـراءة: مَلَـكَ يـومَ الديـن" بصيغـة المـاضي، ونصـب (يَـوْمَ و (إيـاك يُعْبَـدُ ببنائـه للمفعـول".[١٧]

الخامس- الموضوع: كقراءات الخزامي.[١٨]

ثـمّ يذكـر السـيوطي نوعًـا سادسًـا لم يسـبق أن ذكـره أحـد حسـب رأيـه؛ فيقـول "وظهـر لي سـادس يشـبهُه مـن أنـواع الحديـث المُـدْرَج: "وهـو مـا زِيـدَ في القـراءات عـلى وجـه التّفسـير، كقـراءة سـعد بـن أبي وقّـاص (ولـه أخ أو أخـت مـن أم أخرجهـا سـعيد بـن منصـور وقـراءة ابـن عبّـاس (ليـس عليكـم جنـاح أن تبتغـوا فضـلاً مـن ربكـم في مواسـم الحـج. أخرجهـا البخـاري. وقـراءة ابـن الزبـير (ولتكـن منكـم أمـة يدعـون إلى الخـير ويأمـرون بالمعـروف وينهـون عـن المنكـر ويسـتعينون باللـه عـلى مـا أصابهـم قـال عمـرو فـما أدري أكانـت قراءتـه أم فَـسَّر؟ أخرجـه سـعيد بـن منصـور، وأخرجـه ابـن الأنبـاري وجـزم بأنّـه تفسـير"[١٩]. وأخـرج عـن الحسـن أنّـه كان يقـرأ (وإن منكـم إلّا واردهـا، الـورود: الدّخـول. قـال ابـن الأنبـاري قولـه (الـورود: الدّخـول تفسـير مـن الحسـن لمعنـى الـورود. وغلـط فيـه بعـض الـرّواة فألحقـه بالقـرآن"[٢٠].

قـال ابـن الجـزريّ في آخـر كلامـه: "وربمّـا كانـوا يُدخلـون التّفسـير في القـراءة إيضاحًـا وبيانًـا؛ لأنّهـم محقّقـون لمـا تلقّـوه عـن النّبـيّ صـلّى اللـه عليـه وسـلّم قرآنًـا، فهـم آمنـون مـن الالتبـاس، وربمـا كان بعضهـم يكتبـه معـه[٢١].

وأمّا من يقول: إنّ بعض الصحابة كان يجيز القراءة بالمعنى، فقد كذب.

(١٥) جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م- ١٤٢٤هـ- لاط، ص ١٥٥.

(١٦) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ص ١٥٦.

(١٧) المرجع نفسه.

(١٨) المرجع نفسه.

(١٩) المرجع نفسه.

(٢٠) المرجع نفسه.

(٢١) - المرجع نفسه.

وأمّـا المشـهور عنـد المحدثـين فهـو "مـا لـه طـرق محصـورة بأكـثر مـن اثنتـين، ولم يبلـغ حـدّ التّواتـر، أي لم يُفِـد بمجـرَّدِه العلـم. وهـو المسـتفيض عـلى رأي جماعـة مـن أئمّـة الفقهـاء. وقيـل: المسـتفيض يكـون عـدد طرفيـه ووسـطه سـواءً، والمشـهور أعـمّ مـن ذلـك. وقـد يُطلَـق المشـهور على مـا اشـتُهر على الألسـنة مطلقًـا، أي وإن لم يكـن لـه إسـناد واحـد".[٢٢]

مـن خـلال المقارنـة مـع المشـهور عنـد القـرّاء يتبـيّن أنّهـما يشـتركان في أنّهـما دون المتواتـر، وصحيحـا السّـند، وخارجـان عـن الغلـط والشّـذوذ. والسّـيوطي في أصـول النّحـو يذهـب إلى هـذا المعنـى، فيـدلّ عـلى أنّ المشـهور في اللغـة هـو المقبـول، أضـف إلى أنّ القـراء أضافـوا إلى المشـهور مـن القـراءة موافقـة العربيّـة والرّسم.

سادسًا: المصطلحات عند المحدثين

الأوّل: الآحاد:

أمّـا مصطلـح الآحـاد، فقـد ذكـره القـرّاء والنّحـاة والمحدثـون، وأشرنـا إلى معنـاه عنـد القـرّاء، أمّـا المحدثـون فيعرّفونـه بأنّـه "سـوى المتواتـر"[٢٣].

وينقسم باعتبار الطرق (أي السند إلى ثلاثة أقسام: مشهور، وعزيز، وغريب"[٢٤].

الثّاني: المشهور:

عند المحدثين، المصطلح ذاته عند القرّاء، ما رواه الثّلاثة فأكثر، من دون أن يبلغ حدّ التّواتر.

الثّالث: العزيز:

مـا رواه اثنـان فقـط، كحديـث "المسـلم مـن سـلم المسـلمون مـن لسـانه ويـده". وقـد حـدّه التهانـوي بقولـه: "مـا لا يرويـه أقـلّ مـن اثنَـين عـن أقـلّ منهـما في كلّ طبقـة، وليـس شرطـه شرطًـا للصّحيـح خلافًـا لمـن زعمـه".[٢٥] كحديـث: "لا يُؤمـن أحدُكـم حتّـى أكـونَ أحـبّ إليـه مـن ولـده ووالـده والنّـاس أجمعـين".

الرّابع: الغريب:

ما رواه واحد فقط، "كحديث إنّما الأعمال بالنّيّات"...

سابعًا: رتب الآحاد:

ينقسم مصطلح الآحاد باعتبار الرّتبة إلى خمسة أقسام:
صحيح: لذاته، ولغيره، وحسن لذاته، ولغيره، وضعيف.
أ-الصّحيح لذاته:

(٢٢) ظفر أحمد التهانوي: قواعد في علوم الحديث، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، بيروت، ط١٠، ٢٠٠٧م، ص ٣٢.

(٢٣) المكتبة الإسلامية، مصطلح الحديث، http://٢١٢,١٦٢,١٣٤,١٨/islamlib/

(٢٤) - المرجع نفسه.

(٢٥) - التهانوي، قواعد في علوم الحديث، ص ٣٢.

"مـا رواه عـدلٌ تـامُّ ضابـطٌ، بِسـندٍ متّصـل، وسَـلِمَ مـن الشّـذوذ والعلّـة القادحـة"، كحديـث: "مَـن يُـرِدِ اللـه بـه خـيراً يُفقِّهـه في الدّيـن".[٢٦]

وتُعرف صحّة الحديث بأمور ثلاثة:

الأوّل: أن يكـون مصنّفـه التـزم فيـه الصّحّـة، إذا كان مصنّفـه ممّـن يُعتمـد قولـه في التّصحيـح كصحيحي البخاري ومسـلم.

الثّاني: أن ينصّ على صحّته إمامٌ معتمدٌ قولُهُ في التّصحيح، وليس معروفًا بالتّساهل فيه.

الثّالث: أن ينظر في رواته وطريقة تخريجهم له، فإذا تمّت فيه شروط الصحّة حُكم بصحّته.

ب- الصّحيح لغيره:

"الحسـن لذاتِـه؛ إذا تعـدّدَت طرقُـه"[٢٧]، كحديـث "اتّبـع علينـا بـلا قلائـص مـن قلائـص الصّدقـة إلى محلّهـا". فـكان يأخـذ البعـير بالبعيريـن والثّلاثـة. فقـد رواه أحمـد مـن طريـق محمـد بـن إسـحاق، ورواه البيهقـي مـن طريـق عمـرو ابـن شـعيب، وكلّ واحـد مـن الطريقـين بانفـراده حسـن، فبمجموعهـما يصـير الحديـث صحيحًـا لغـيره.

وإنّمـا سـمّي صحيحًـا لغـيره؛ لأنّـه لـو نظـر كلّ طريـق بانفـراد لم يبلـغ رتبـة الصّحّـة، فلـمّا نظـر إلى مجموعهـما قَـوِيٍ حتّـى بلغهـا.

ج- الحسن لذاته:

"ما رواه عدلٌ خفيفُ الضبط بسند متّصل، وسلمَ من الشّذوذ والعلّة القادحة".[٢٨]

فليـس بينـه وبـين الصّحيـح لذاتـه فـرق سـوى اشـتراط تمـام الضّبـط في الصّحيـح، فـلا حسـن دونـه. كحديـث: "مفتـاح الصّـلاة الطّهـور، وتحريمهـا التّكبـير، وتحليلهـا التّسـليم".

د- الحسن لغيره:

الضّعيـف إذا تعـدّدت طرقُـه عـلى وجـه يجـبر بعضهـا بعضًـا، بحيـث لا يكـون فيهـا كـذّاب، ولا مُتَّهـم بالكـذب، كحديـث عمـر بـن الخطّـاب رضي اللـه عنـه، قـال: "كان النّبـيّ صـلّى اللـه عليـه وسـلم إذا مـدّ يدَيـه في الدّعـاء لم يردّهـما حتّـى يمسـح بهـما وجهـه."[٢٩]

وإنّمـا سُـمّي حسـنًا لغـيره؛ لأنّـه لـو نظـر إلى كلّ طريـق بانفـراد لم يبلـغ رتبـة الحسـن، فلـمّا نُظـر إلى مجمـوع طرقـه قـوي حتّـى بلغهـا.

هـ- الضعيف:

"ما خلا عن شروط الصّحيح والحسن"[٣٠]، كحديث "احترسوا من النّاس بسوء الظّنّ".

والسّـؤال هنـا الـذي نطرحـه مـاذا يترتّـب عـلى أخبـار الآحـاد يـا تـرى (سـوى الضّعيـف؟ الجـواب: يترتّـب عليهـا أمـران اثنـان، هـما "الظّـنّ" و"العمـل"، فالظّـنّ: وهـو رجحـان صحّـة نسـبتها إلى مـن نُقلت عنـه، ويختلـف ذلـك بحسـب مراتبهـا السّـابقة، وربمّـا تُفيـد العلـم إذا احتفّـت بهـا القرائـن، وشـهدت بهـا الأصـول"[٣١]، والعمـل: بمـا دلّـت عليـه بتصديقـه إن كان خـيرًا، وتطبيقـه إن كان طلبًـا.

(٢٦) - المكتبة الإسلاميّة، مصطلح الحديث، http://islamlib/٢١٢,١٦٢,١٣٤,١٨/

(٢٧) - المرجع نفسه.

(٢٨) المكتبة الإسلامية، مصطلح الحديث http://islamlib/٢١٢,١٦٢,١٣٤,١٨/

(٢٩) المرجع نفسه.

(٣٠) المرجع نفسه.

(٣١) المرجع نفسه.

أمّـا الضّعيـف فـلا يُفيـد الظّـنّ ولا العمـل، ولا يجـوز اعتبـاره دليـلاً، ولا ذكـره غـير مقـرون ببيـان ضعفـه، إلّا في التّرغيـب والتّرهيـب[٣٢].

سابعًا: الشّذوذ (أو الحديث الشّاذّ

"وهـو أن يُخالـف الثّقـة مـن هـو أرجـح منـه، إمّـا بكـمال العدالـة، أو تمـام الضّبـط، وكـثرة العـدد، أو ملازمـة المـرويّ عنـه، أو نحـو ذلـك". أو "مـا رواه الثّقـة الصّـدوق مخالفًـا لمـن هـو أرجـح منـه".[٣٣]

وإذا أمعنّـا النّظـر في هـذه المصطلحـات بـين القـرّاء أو الأصوليـين والمحدثـين، نجـد خلافًـا في مفهـوم المصطلحـات مـن حيـث الإجـمال، وتقاطعًـا في بعـض أجـزاء التّعريـف، وهـذا إن دلّ عـلى شيء، فعـلى أنّ لـكل علـم مصطلحاتـه ذات المدلـولات الخاصّـة بـه.

فالآحـاد عنـد القـرّاء هـو غـير الآحـاد عنـد المحدثـين، إذ اقتـصر الأوّل عـلى مـا صـحّ سـندُه، وخالـف الرّسـم أو العربيّـة، أو لم يشـتهر الاشـتهار المذكـور، ولا يُقـرأ بـه، في حـين أنّـه عنـد المحدثـين ينقسـم إلى قسـمين بحسـب الاعتبـارات (السّـند والرّتبـة، وكلّ قسـم ينقسـم إلى أقسـام: (فـالأوّل إيجـاد ثلاثـة: المشـهور والعزيـز والغريـب. والثّـاني إلى خمسـة: كالصّحيـح لذاتـه ولغـيره والحسـن لذاتـه ولغـيره والضّعيـف، وكلّ واحـد مـن هـذه الأقسـام أو المصطلحـات لـه مفهـوم محـدّد عنـد أهـل العلـم.

وأمّـا المشـهور فهـو منـدرج تحـت الآحـاد عنـد المحدثـين، بينـما اتّخـذ مفهومًـا خاصًّـا عنـد القـرّاء وخـرج عـن الآحـاد. وأمّـا الشّـاذّ عنـد القـرّاء، فهـو "مـا لم يصـحّ سـنده"، بينـما عنـد أهـل الحديـث هـو "أن يخالـف الثّقـة مـن هـو أرجـح منـه"، ففـي الأوّل عـدم صحّـة السّـند، وفي الثّـاني مخالفـة الثّقـة مـن هـو أرجـح منـه.

وبالمقابلـة فـإنّ مصطلحـات " التّواتـر" و"الآحـاد" و"الشّـذوذ" عنـد النّحـاة والأصوليـين تتّفـق في مفهومهـا العـامّ مـع ورود بعـض الإشـكالات التـي طرحهـا الـرّازي، يقـول الإمـام الـرّازي "فالنّقـل المحـض... إمّـا تواتـر أو آحـاد... ومـن شرط التّواتـر اسـتواء الطّرفـين والواسـطة، وهـذا غـير متحقّـق واعتـبر الأصوليّـون الخـبر الواحـد حجّـة في الـشّرع، ولم يُقيمـوا الدّلالـة عـلى ذلـك في اللغـة وكان هـذا أولى، وكان مـن الواجـب عليهـم أن يتفحّصـوا عـن أحـوال جرحهـم وتعديلهـم، كـما فعلـوا ذلـك في روايـة الأخبـار، ولكنّهـم تركـوا ذلـك مـع شـدّة الحاجـة إليـه، فـإنّ اللغـة والنّحـو يجريـان مجـرى الأصـل للاسـتدلال بالنّصـوص".[٣٤]

ثـمّ طـرح الإمـام الـرّازي إشـكاليّة أخـرى في المتواتـر، وهـي اختـلاف النّـاس في معـاني الألفـاظ الأكثر انتشـارًا وتـداولاً ودورانًـا عـلى ألسـنة المسـلمين، كلفظـة (اللـه)، فـإنّ بعضَهـم زعـم أنّهـا "عبريّـة"، وقال قـوم هـي "سريانيّـة"، وقـال آخـرون هـي "عربيّـة" والذيـن قالـوا بعروبتهـا اختلفـوا هـل هـي مشـتقّة أم لا؟ والذيـن قالـوا بالاشـتقاق اختلفـوا اختلافًـا شـديدًا، وهـل تفيـد في دلالتهـا القطـع أو الظّـنّ، وكذلـك اختلفـوا في لفـظ الصّـلاة والـزكاة والصّيـام والإيمـان والكفـر، فـإذا كان الحـال بهـذه الألفـاظ الأكـثر شـهرة فـما الظّـنّ بسـائر الألفـاظ؟

(٣٢) المكتبة الإسلامية، مصطلح الحديث http://islamlib/٢١٢,١٦٢,١٣٤,١٨/

(٣٣) التهانوي، قواعد في علوم الحديث، ص ٤٢.

(٣٤) الإمام الرازي نقلاً من الاقتراح، السيوطي، ص ٦١.

والجـواب عـلى هـذا الإشـكال هـو أنّ "التّواتـر"، وإن لم يكـن متحقّقًـا بالمعنـى عـلى سـبيل التّفصيـل، هـو متحقّـق بـه عـلى سـبيل الإجـمال، فالـكلّ مجمعـون عـلى أنّ لفظـة (اللـه تُطلـق عـلى الإلـه المعبـود بحـقّ[٣٥].

وأمّا الإشكال الأوّل فالجواب عليه: أنّ اللغة والنّحو والتصريف تنقسم إلى قسمين[٣٦]:

الأوّل: القسـم المتواتـر: والعلـم الـضّروري حاصـل بأنّـه كان في الأزمنـة الماضيـة موضوعًـا لهـذه المعاني، فإنّـا نجـد أنفسـنا جازمـة بـأنّ السّـماء والأرض كانتـا مسـتعملتين في زمنـه صـلّى اللـه عليـه وسـلّم في معناهـما المعـروف، وكذلـك المـاء والهـواء والنّـار وأمثالهـا، وكذلـك لم يـزل الفاعـل مرفوعًـا والمفعـول منصوبًـا، والمضـاف إليـه مجـرورًا؛ دلالتـه قطعيّـة؛ مثالـه: ألفـاظ القـرآن ونحـوه وتصريفـه.

الثّاني: قسم الآحاد: وهو الألفاظ الغريبة، وهو قليل جدًّا؛ ودلالته ظنّيّة.

فمصطلحـا "القطـع" و"الظّـنّ" أو "الدّلالـة القطعيّـة" و"الدّلالـة الظنّيّـة" في المصطلحـات التـي سـبق أن اسـتخدمها علـماء الأصـول بمباحـث كثـيرة في المصـادر الأصليّـة والمصـادر التّبعيّـة، أخـذت مسـاحة واسـعة وأهمّيّـة بالغـة؛ وهـذا واضـح مـن خـلال اسـتقراء مصـادر التّشريـع الإسـلامي ودلالتهـا عـلى الأحـكام.

فالقـرآن (كمصـدرٍ أسـاسٍ للشّريعـة وإن كان قطعـي الثّبـوت، لـوروده إلينـا بطريـق التّواتـر المفيـد للقطع بصحّـة المنقـول. إلاّ أنّ دلالـة نصوصـه عـلى الأحـكام، قـد تكـون قطعيّـة الدّلالـة أو ظنّيّـة الدّلالة.

فالنّـصّ القطعـيّ الدّلالـة: هـو اللفـظ الـوارد في القـرآن الـذي يتعـيّن فهمـه ولا يحتمـل إلاّ معنـى واحـدًا.[٣٧]، وذلـك كآيـات المواريـث والكفّـارات والحـدود مثـل قولـه تعـالى: âيوصيكُـمُ اللـه في أولادِكـم للذَّكـر مثـل حـظِّ الأنثيـينِ فـإن كُـنَّ نسـاءً فـوقَ اثنتَـيْنِ فلهـنَّ ثلثـا مـا تـرك وإن كانـت واحـدةً فلهـا النّصـفُ[٣٨]، وقولـه تعـالى: âالزّانيـة والـزّاني فاجلـدوا كلَّ واحـدٍ منهـما مائـة جلـدةٍ[٣٩]، وقولـه: â والذيـن يُظاهـرون مـن نسـائهم ثـمَّ يعـودون لمـا قالـوا فتحريـر رقبـةٍ مـن قبـل أن يتماسَّـا[٤٠]، فالثّلثـان والنّصـف والمئـة والرّقبـة، ألفـاظ قطعيّـة في مدلولاتهـا، ولا تحتمـل معنـى آخـر.

أمّـا النّـصّ الظّنّـي الدّلالـة: "فهـو اللفـظ الـوارد في القـرآن الـذي يحتمـل أكـثر مـن معنـى واحـد في مجـال التّأويـل"،[٤١] مثـل اللفـظ (المشـترك، كالقـروء في قولـه تعـالى: âوالمطلّقـات يتربَّصْـنَ بأنفسـهنَّ ثلاثـة قـروء[٤٢]، فلفـظ "القـرء" في اللغـة العربيّـة مشـترك بـين معنيـين: "الطّهـر" و"الحيـض"، فيُحتمـل أن يُـراد ثلاثـة أطهـار أو ثلاثـة حيضـات، وتكـون الدّلالـة عـلى أحـد المعنيـين ظنّيّـة لا قطعيّـة.

و"القطـع" و"الظّـنّ" لهـما تفريعـات عنـد الأصوليـين، وفيهـما أبحـاث، والفائـدة منهـما في ترتّـب: "العلـم"؟ أو "العمـل"؟ أو كليهـما عـلى حـدّ سـواء؟ لكننـا نجـد هذيـن المصطلحـين عنـد علـماء الأصـول مذكورَيـن بطريقـة عرضيّـة، أشـار إليهـا السـيوطي في الاقـتراح، في ذكـر المتواتـر والآحـاد كـما أشرنـا.

(٣٥) الاقتراح، ص ٦٠-٦١.

(٣٦) - المرجع نفسه، ص ٦٤، بتصّرف.

(٣٧) وهبي الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط٣، ٢٠٠٥م، ج١ /٤٢٣-٤٢٤.

(٣٨) سورة النساء (٤)، الآية: (١١).

(٣٩) سورة النور (٢٤)، الآية: (٢).

(٤٠) سورة المجادلة (٥٨)، الآية: (٣).

(٤١) وهبي الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي، ١/ ٤٢٤.

(٤٢) سورة البقرة (٢)، الآية: (٢٢٨).

لكنّهما لم يأخذا حقّهما في الدّراسة والبحث والتّحديد، إلّا أنّنا نتلمّس أنّهما داخلان في الفكر اللغوي ومنهج النّحاة. وقد كتب د. محمد معاذ مصطفى الخنّ أطروحة دكتوراه في القطعيّ والظنّيّ في الثّبوت والدّلالة عند الأصوليين، دار الكلم الطّيّب؛ النّاتج عن الظّنّ والقطع والعلم والعمل على اعتبار أنّه من مترتّبات الدّلالة عند المحدثين، كما أوردت في الحديث عن خبر الآحاد والمتواتر.

وأختم الكلام عن التّواتر والآحاد والشذوذ، بما حرّرَه السّيوطي عن ابن الأنباري بعد تعريف النّقل، وقد أخرج منه ما جاء من كلام غير العرب من المولّدين وغيرهم، وما جاء شاذًّا في كلامهم، ومثل للشّذوذ بالجزم بـ"لن"، والنّصب بـ"لم"، والجرّ بـ"لعل"، ونصب الجزءَينِ بها، وبـ"ليت"، ثمّ بيّن أنّ النقل ينقسم إلى تواتر وآحاد. فأمّا "التّواتر" فلغة القرآن وما تواتر من السّنّة وكلام العرب، وهذا القسم دليل قطعيّ من أدلّة النّحو يفيد العلم.(٤٣)

وبهذا يكون تعامل مع "المتواتر" على اعتبار أنّ له مفهومًا واحدًا في "القرآن" و"السّنّة" "وكلام العرب"، يعني عند القرّاء والأصوليين والمحدثين والنّحاة من حيث الثّبوت، ومن حيث الدّلالة القطعيّة. وإفادة هذه الدلالة ما يترتّب عليها من مقتضى هذا العلم، ومفهوم التّواتر ما رواه جمع عن جمع إلى منتهاه يستحيل تواطؤهم على الكذب، وهكذا يُقطع بصحّة المستشهد به، من ناحية الثّبوت، والاستدلال به.

وأما الآحاد فيقول السّيوطي: "هو ما تفرّد بنقله بعض أهل اللغة ولم يوجد فيه شرط التواتر، وهو دليل مأخوذ به، والأكثرون على أنّه يفيد الظّنّ".(٤٤)

ويُفهم منه ما ذكرناه سابقًا بأنه دون التّواتر، سواءً كان في القرآن أم الحديث أم اللغة، وإن فصّل فيه المحدثون أكثر، ووضعوا له تسميات متعدّدة، وأيضًا متّحد في دلالته على "الظّنّ" لا اليقين، ويفيد العمل به.

وقد شرط لقبول اللغة ما شرط لقبول الحديث، وهذا يدلّ على أنّ اللغة سار بها علماؤها في النّقل سير المحدثين، يقول السّيوطي (في حديثه عن شرط الآحاد: "وأمّا الآحاد فأن يكون ناقله عدلاً، رجلاً كان أو امرأة، حرًّا كان أو عبدًا، كما يُشترط في نقل الحديث؛ لأن باللغة معرفة تفسيره وتأويله، فاشترط في نقلها ما اشترط في نقله، فإن كان ناقل اللغة فاسقًا لم يُقبل نقلُه، ويُقبل نقل العدل الواحد وأهل الأهواء، إلّا أن يكونوا ممّن يتديَّن بالكذب".(٤٥)

من خلال النّصّ نفهم شروط الآحاد الآتية:

أ-العدالة.

ب-العدل الواحد.

ج-أهل الأهواء باستثناء الكذّابين منهم.

وهذه الشّروط تُعتبر مصطلحات مصاحبة للنّقل لا بدّ من تبيّنها. وقد جاء في "البيوقونيّة" في مصطلح الحديث في تعريف "الصّحيح" [من الرّجز]:

يَرْوِيْهِ عَدْلٌ ضَابِطٌ عَنْ مِثْلِهِمُعْتَمَدٌ فِي ضَبْطِهِ وَنَقْلِهِ(٤٦)

(٤٣) السيوطي، الاقتراح، ص ٦٤.

(٤٤) السيوطي، الاقتراح، ص ٦٤- ٦٥.

(٤٥) المرجع نفسه، ص ٦٥.

(٤٦) عمر بن فتوح البيقوني الدمشقي الشافعي (المتوفى ١٠٨٠هـ: شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث، جمع وترتيب عبد الله سراج الدين، مكتبة دار القلم، ٢٠٠٩م، ص ٣٦، ٢٢٧.

وهـذا الـشّرط الأوّل، وهـو "العدالـة" يتعلّـق بـذات الـرّاوي، يقـول ابـن الصّـلاح في مقدّمتـه: "يشـترط فيمـن يحتـجّ بروايتـه أن يكـون مسـلمًا بالغًـا عاقـلاً سـالمًا مـن أسـباب الفسـق وخـوارم المـروءة متيقّظًـا غـير مغفّـل، إن حـدّث مـن حفظـه ضابطًـا لكتابـه، وإن كان يـروي بالمعنـى اشـترط أن يكـون عالمًـا باللغـة بمـا يحيـل ذلـك"[٤٧]، وأمـا أهـل الأهـواء فسـأذكرهم في ذكـر مـن يحتـجّ بهـم.

ثامنًا: شروط القراءة الصّحيحة

بعدمـا أشرنـا إلى معنـى المصطلحـات المتواتـر والآحـاد والشّـاذّ، لا بـدّ مـن تبـيّن شروط القـراءة الصّحيحـة المعتـبرة عنـد علـماء الأمـة، وهـي ثلاثـة:

١-"صحّة السّند.

٢-موافقة الرّسم العثماني، ولو احتمالاً.

٣-موافقة العربيّة، ولو بوجه.

فـإذا اختـلّ الـشّرط الأوّل كانـت القـراءة باطلـة، وإذا اختـلّ الـشّرط الثّـاني كانـت شـاذّة، وإذا اختـلّ الثّالـث كانـت ضعيفـة، وعـلى هـذا فـلا تبطـل القـراءة إلا باختـلال السّـند".[٤٨]

وسأعرض للقراءة الشّاذة بكونها محطّ جدل عند الأصوليين والنّحاة، وهل يُحتجّ بها أم لا؟

أ- القراءة الشّاذّة

اختلـف العلـماء في المنقـول إلينـا آحـادًا كمصحـف ابـن مسـعود وغـيره، هـل هـو قـرآن أم لا؟ فالقـراءة الشّـاذّة: "هـي التـي لم يُثبتهـا قـرّاء الأمصـار لعـدم تواترهـا"[٤٩]، وهـي التـي صـحّ سـندها، ولكنّهـا لم تحتمـل رسـم المصحـف مـع موافقتهـا للوجـه الإعـرابي والمعنـى العـربي، مثـل قـراءة ابـن مسـعود في كفّـارة اليمـين: "فمـن لم يجـد فصيـام ثلاثـة أيـام- متتابعـات" فزيـادة متتابعـات لم تتواتـر فليسـت مـن القـرآن[٥٠]، ومثـل مـا ورد في قـراءة بعضهـم في نفقـة الوالـدات: "وعـلى الـوارث- ذي الرحـم المحـرم- مثـل ذلـك" فزيـادة "ذي الرحـم المحـرم" لم تتواتـر.

قـال ابـن الأثـير الجـزري[٥١] القـراءة الشّـاذّة هـي التـي لم يصـحّ سـندها مثـل: âفاليـوم ننجِّيـكَ ببدنـك لتكـون لمـن خلفـك آيـة[٥٢]ةَ، بتسـكين النّـون الثّانيـة في كلمـة "نُنْجيـك" شـذوذًا، وقـراءة حفـص (نُنَجِّيـكَ بفتحهـا.

وقـد اتّفـق علـماء القـراءات عـلى أنّ القـراءات السّـبع هـي متواتـرة بإجـماع المسـلمين، وهـي قـراءة أبي عمـرو، ونافـع، وعاصـم، وحمـزة، والكسـائي، وابـن كثـير، وابـن عامـر، وأمّـا مـا وراء السّـبعة إلى العـشرة، وهـي قـراءة يعقـوب، وأبي جعفـر، وخلـف، فهـي مختلـف فيهـا، فقيـل إنّهـا متواتـرة وهـو الأشـهر، وقيـل

(٤٧) شرح البيقونيـة (العدالـة والضبـط شـبكة الدعـوة والتبليـغ، بقلـم عبـد الغنـي الأحـول، ١٤٣٢هـ.www.binotih.com/go/ http:// وانظـر المرجـع السـابق، ص ٣٦-٣٧.

(٤٨) محمود مصطفى عبود هرموش، غاية المأمول في توضيح الفروع للأصول، مكتبة البحوث الثقافية، طرابلس- لبنان، ط١، ١٩٩٤، ص ٢٢٥.

(٤٩) - الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي، ص ٤٠٩.

(٥٠) - ابـن بـدران: المدخـل إلى مذهـب الإمـام أحمـد بـن حنبـل، المحقـق عبـد اللـه بـن عبـد المحسـن الـتركي، مؤسسـة الرسـالة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م. المدخـل إلى مذهـب أحمـد، ص ٨٨ نقـلاً عـن المرجـع السـابق، ص ٤٠٩.

(٥١) نقلاً من أصول الفقه، الزحيلي، ص ٤٠٩.

(٥٢) سورة يونس (١٠، الآية (٩٢).

إنّها ليست متواترة، وأمّا ما وراء العشر فهي قراءات شاذّة بالاتفاق.[٥٣]

ب- حكم القراءة الشّاذّة

"ما نُقل آحادًا ليس بقرآن قطعًا.[٥٤] ولكن، هل يصحّ الاحتجاج به؟ اختلف فيه العلماء، فقال الحنفيّة والحنابلة "إنّ القراءة الشّاذّة يصحّ الاحتجاج بها على أنّها حجّة ظنّيّة؛ إذ لا بدّ من أن تكون مسموعة من النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكلّ مسموع عنه صلّى الله عليه وسلّم حجّة، ودليل السّماع أنّ النّاقل عدل، وعدالته تمنعه من الاختراع، وإلّا لما ساغ له كتابته وإثباته في مصحفه، وإذا ثبت أنّه مسموع من النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فيكون سنّة، والسّنّة يجب العمل بها".[٥٥]

وقال المالكيّة والشّافعيّة "إنّ القراءة الشّاذّة ليست حجّة، ودليلهم أنّها ليست بقرآن، إذ لم تتواتر، بل وليست سنّة؛ لأنّها نُقلت على أنّها قرآن ولم تنتقل على أنها سنّة، فلا يُحتجّ بها".[٥٦]

وقد ردّ الغزالي على مذهب الحنفيّة، فقال" "لا يُعدّ ذلك خبر آحاد؛ لأنّ خبر الواحد لا دليل على كذبه، وأمّا جعله من القرآن فهو خطأ قطعًا؛ لأنّه وجب على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يُبلِّغه طائفة من الأمّة تقوم الحجّة بقولهم، وكان لا يجوز له مناجاة الواحد به. فإن لم يكن من القرآن، احتمل أن يكون ذلك مذهبًا للصّحابيّ قد دلّ عليه. واحتمل أن يكون خبرًا، وما تردّد بين أن يكون خبرًا أو لا يكون، فلا يجوز العمل به، وإنّما يجوز العمل بما يُصرّح الرّاوي بسماعه من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقد أيّد الآمدي ذلك، فقال: "المختار إنّما هو مذهب الشّافعي، فلا يجب التّتابع في الصّيام في كفّارة اليمين".[٥٧]

وقال صاحب مسلم الثبوت والشوكاني في إرشاد الفحول ما نُقل آحادًا ليس بقرآن قطعًا؛ لأنّ القرآن ممّا تتوفّر الدّواعي على نقله؛ لكونه كلام الرّبّ سبحانه وكونه مشتملاً على الأحكام الشّرعيّة وكونه معجزًا، وما كان كذلك فلا بدّ أن يتواتر، فما لم يتواتر فليس بقرآن".[٥٨]

تاسعًا: القرآن والقراءات

العلماء مُجمعُون على حجيّة القرآن، وعلى أنّه أفصح ممّا نطقت به العرب، وأصحّ منه نقلاً، وأبعد منه عن تحريف، مع أنه نزل بلسان عربيّ مبين، وأنّه كتاب معجز وإعجازه متحقّق في

(٥٣) - المرجع نفسه، ص ٤٠٩. وانظر: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، لاط، ٢٠٠٣م- ١٤٢٤هـ)، ٨٣/١، وانظر محب الله بن عبد الشكور الهندي البهاري: مسلم الثبوت، المطبعة الحسينية المصرية، مطبعة كردستان العلمية، ١٣٢٦هـ)، ٨/٢، وجلال الدين المحلي، شرح المحلى في حل جمع الجوامع، مؤسسة الرسالة، د.ت. ١٦٦/١.

(٥٤) الزحيلي، أصول الفقه، ص ٤١.

(٥٥) المرجع نفسه. وانظر أيضًا محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي: مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر، مجمع الفقه الإسلامي بجدة - دار عالم الفوائد، ١٤٢٦هـ)، ١٨١/١.

(٥٦) المرجع نفسه، وانظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، المستصفى، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ٦٥/١، الآمدي، سيف الدين، الإحكام في أصول الأحكام، مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، لا ط، لا ت. ٨٣/١. كذلك: محمد بن علي ابن محمد بن عبد الله الشوكاني، إرشاد الفحول، دار المعرفة، لاط، لات. ص ٢٧.

(٥٧) - الزحيلي، أصول الفقه، ٤١٠، الغزالي، المستصفى، ٦٥/١، الآمدي، الإحكام، ٨٣/١.

(٥٨) - الزحيلي، أصول الفقه، ٤١١، الشوكاني، إرشاد الفحول، ٢٧.

ثلاثة أمور[٥٩]:

الأوّل: "التّحدّي" أي طلب المباراة والمعارضة.

الثّاني: أن يكون المقتضي الذي يدفع إلى التحدّي والمباراة قائمًا.

الثّالث: أن يكون المانع الذي يمنعه من المباراة منتفيًا.

فقد تحدّى الرسول صلّى الله عليه وسلم النّاس به، وكان المقتضى عند العرب الذين تحدّاهم قائمًا، والمانع عندهم منتفيًا، ومع هذا لم يعارضوه، ولم يأتوا بمثله.

أمّا التحدي فقد ورد في آي كثيرة، منها قوله تعالى: âوإن كنتم في ريبٍ ممَّا نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النّار التي وقودها النّاس والحجارة أُعدّت للكافرينَ[٦٠]، فقطع لهم أنّهم لن يفعلوا، وهي كلمة يستحيل أن تكون إلاّ عن الله ولا يقولها عربي في العرب أبدًا.

وقال سبحانه: âأم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين[٦١]ãَ.

وقال عزّ وجلّ: âقل لئن اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا[٦٢]ãَ.

وقال تعالى: âقل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتّبعه إن كنتم صادقين[٦٣]ãَ.

هذه الآيات تُظهر حجم التّحدّي بأن يأتوا بمثل القرآن كاملاً، ثُمّ خَفّف في التّحدّي، فجعلَه قائمًا على الإتيان بعشر سور، ثمّ خَفّفه وحصره في سورة واحدة مهما كانت قصيرة، وسمعوا التّحدّي فعجزوا أبد الدّهر، ولن يستطيعوا ذلك، ولو كان الإنس والجنّ بعضهم لبعضٍ مساعدًا ومساندًا.

وأمّا قيام المقتضى للمباراة والمعارضة عند العرب، "فإنّ النّبيّ أخبرهم أنّه رسول الله وجاءهم بِدينٍ يُبطل دينهم وتقليد آبائهم، وسفّه عقولهم وأحلامهم، وسخر من أوثانهم، وهزأ بعبادتهم، ودليله الصّارم هو "كتاب الله"، فكانوا أحوج النّاس إلى دحض ما ادّعاه وإبطال ما أتى به من عند الله، من دون أن يضطرّوا إلى شهر السّيف في وجهه، كما يبذل المحرج آخر وسعه، فاختاروا ذلك مكرهين، وأذعنوا لعظمة القرآن صاغرين من دون مباراة ولا معارضة[٦٤].

"وأمّا انتفاء المانع من معارضة القرآن؛ فلأنّه نزل بلسان عربيّ مبين؛ فأحرفه من أحرف العرب، وعباراته من أسلوب العرب، ومعانيه من مألوف العرب، وهم أرباب البلاغة والبيان، وملوك الفصاحة وفرسان الخطابة، وأساطين الشّعر، ومَعْينُ الحكم. ولهم في ذلك مواقف مشهورة وأسواق معروفة ومساجلات ومباريات فريدة؛ بل كان عندهم الكهّان والعرّافون والقصّاصون والمتنبّئون، ولم يُحدّد للمعارضة أجل معيّن، ولا نزّل القرآن جملة واحدة، وإنّما نزل منجّمًا على مدى ثلاث وعشرين سنة، ما يُسهّل المعارضة ويُتيح لهم الإعداد والتّمكين وإحراز السّبق، فعجزوا ووهنوا،

(٥٩) – الزحيلي، أصول الفقه، ٤١٤. نقلاً عن أصول الفقه: عبد الوهاب خلاف، ص ٢٥ وما بعدها.

(٦٠) سورة البقرة (٢: الآيتان: (٢٣، ٢٤).

(٦١) سورة هود (١١: الآية: (١٣).

(٦٢) سورة الإسراء (١٧: الآية: (٨٨).

(٦٣) سورة القصص (٢٨: الآية: (٤٩).

(٦٤) الزحيلي، أصول الفقه، ص ٤١٥.

ومـا قدمـوا عـلى الإتيـان بمثـل أقـصر سـورة أو آيـة مـن القـرآن الكريـم".[٦٥]

لـذا ورد عـن العـرب – عـلى مكانتهـم اللغويّـة- انبهارهـم بـه وإقرارهـم بمـا وصـل إليـه مـن درجـات في البيـان، تنقطـع دونهـا أعنـاق البلغـاء والفصحـاء، فتناهـوا عـن سـماعه، وتداعـوا إلى اللغـو فيـه حـذر التّأثّـر بـه، قـال تعـالى واصفًـا ذلـك: âوقـال الذيـن كفـروا لا تسـمعوا لهـذا القـرآن والغـوا فيـه لعلكـم تغلبـون[٦٦]á.

وأقـرّ النّحـاة أنّـه كلام اللـه أُجـريَ عـلى كلام العبـاد، فكُلّمـوا بكلامهـم، وجـاء القـرآن عـلى لغتهـم، وعـلى مـا يعنـون".[٦٧]

والنّحـاة لم يقتـصروا في استشـهادهم عـلى النّـص القـرآنيّ الموحّـد؛ بـل ضمّـوا إليـه قراءاتـه، والقـرآن والقـراءات حقيقتـان متغايرتـان، كـما يقـول الزّركـشيّ في البرهـان: "فالقـرآن هـو الوحـي المنـزّل عـلى محمّـد، صـلّى اللـه عليـه وسـلّم، بيانًـا وإعجـازًا، والقـراءات اختـلاف ألفـاظ الوحـي المذكـور كتابـةً أو نطقًـا أو ضبطًـا".[٦٨]

"فـكان ذلـك إيذانًـا بتعـدد الأوجـه الإعرابيّـة، وإقـرار قواعـد فرعيّـة تنحـرف عـن القاعـدة الأصليّـة، وفتـح بـاب "الجـواز" في النّحـو، وهـو بـاب دخـل منـه خـلاف كبـير وجـدل كثـير".[٦٩]

عاشرًا: موقف النّحاة من القراءات

المتأمّـل لمواقـف النّحـاة مـن القـراءات القرآنيّـة يجـد قاسـمًا مشـتركًا بينهـا، وهـي أنّ القـراءة أو القـراءات سـنّة متّبعـة باعتبارهـا توقيفيّـة، متوقّفـة عـلى أخذهـا مـن النّبـيّ صـلّى اللـه عليـه وسـلّم، لكـنّ الأمـر لم يقـف عنـد هـذا الحـدّ وحسـب بـل إنّ جـدلاً مـا أُثـيرَ حـول بعضهـا لمخالفتهـا القواعـد النّحويّـة التـي يراهـا أو لتعارضهـا مـع الأقيسـة العربيّـة والمناهـج العقليّـة، وبهـذا الاعتبـار تفـاوت النّحـاة بـين معتـدل ومتوسّـط ومفـرّط، وسـأعرض بإيجـاز لهـذه المواقـف كمواقـف الخليـل وسـيبويه والكسـائي والفـرّاء، وابـن جنّـي وأسـتاذه أبي عـلي الفـارسي، وابـن الأنبـاري، ثـمّ أختـم بالسّـيوطي مـع بعـض التّوقّـف عنـده.

أ-موقف الخليل وسيبويه وغيرهم من النّحاة من القراءات

إنّ موقفهـم قائـم عـلى أنّ القـراءة سـنّة متّبعـة، يقـول سـيبويه: "إلاّ أنّ القـراءة لا تخالـف؛ لأنّ القـراءة سـنّة".[٧٠]

وكـما أسـلفنا أنّ العربيّـة شرط في صحّـة القـراءة، إلاّ أنّـه لا تجـوز القـراءة بمـا جـاء في العربيّـة ولم يُقـرأ بـه، وهـذا لا يمنـع مـن الإشـارة إلى مـا يجـوز في العربيّـة مـن أوجـه إعرابيّـة، فكثـيرًا مـا يقـول

(٦٥) الزحيلي، أصول الفقه، ٤١٥- ٤١٦.

(٦٦) سورة فصلت (٤١، الآية: (٢٦).

(٦٧) سـيبويه، أبـو بـشر عمـرو بـن عثـمان بـن قنـبر: الكتـاب، تحقيـق عبـد السـلام محمـد هـارون، الهيئـة المصريـة العامـة للكتـاب، ط٢، ١٩٧٧م، ١/ ٢٣١. نقـلاً محمـود أحمـد نحلـة: أصـول النحـو العـربي، دار الكتـب العلميـة، بـيروت، ط١، ١٤٠٧هــ/١٩٨٧م، ص ٣٣.

(٦٨) محمـد بـن عبـد اللـه بـن بهـادر الزركـشي: البرهـان في علـوم القـرآن، المحقـق محمـد أبـو الفضـل إبراهيـم، دار إحيـاء الكتـب العربيـة عيـسى البـابي الحلبـي وشركائـه، ط١، ١٣٧٦هــ - ١٩٥٧م. ١/ ٣١٨ نقـلاً مـن أصـول النحـو، محمـود نحلـة، ص ٣٢.

(٦٩) محمود نحلة: أصول النحو، ص ٣٤.

(٧٠) سيبويه، الكتاب، ص ٤٩.

النّحويّ ولو قُرئ كذا لجاز في العربيّة. وهذا الموقف ناشئ عن الإيمان بأنّ للقراءة منهجًا قائمًا بنفسه، فهو منهج " قائم على الأخذ بما ثبت نقله وصحّ سنده، وليس معتمدًا على الأقيس والأشيع"[٧١]، أو ما يجوز في العربيّة، فالقراءة ليست اجتهادًا من القرّاء، بل هي سنّة متّبعة كما قلنا.

ولقد أكثر سيبويه من الاحتجاج بالقراءات القرآنية، واعتدّ بها اعتدادًا واضحًا، وقد أحصى شواهد القرآن الكريم في كتاب سيبويه من خلال (فهرست كتاب سيبويه الذي وضعه الأستاذ أحمد راتب النفاخ، فوجد عدّتها ستة وتسعين وثلاثمائة شاهد (٣٩٦) وشواهد القراءات منها نحو سبعة وخمسين ومائة شاهد (١٥٧) أي أنّ نسبتها تصل تقريبًا إلى ٤٠٪ من مجموع الشواهد القرآنيّة، وهي نسبة عالية تُبرز اهتماماته بالقراءات واعتماده عليها.[٧٢]

على أنّ سيبويه في استشهاده بالقراءات لم يكن يُلحّن قارئًا، أو يُخطّئ قراءة، بل كان يذكرها ليُبيّن بها وجهًا من العربيّة"، وأُثر عنه استشهاده بما عُرف من بعد بالقراءات الشّاذّة إذا لم تُخالف قياسًا معروفًا، فإذا خالفت القراءة القياس أعرض عن ذكرها، وتجنّب الإشارة إليها، أو ذكرها، وذكر رأي بعض أساتذته فيها من دون تعقيب منه".[٧٣]

أمّا الكسائيّ- وهو أحد القرّاء السبعة- فهو الذي فتح الباب لتخطئة القرّاء، وهذا ما أكّده تلميذه الفرّاء (ت٢٠٧هـ)، حيث يتوقّف في كتابه معاني القرآن مرارًا ليقول: "إنّ الكسائيّ كان لا يُجيز القراءة بهذا الحرف أو ذاك".[٧٤]

أمّا موقف الفرّاء فكان أشدّ من موقف أستاذه، بل إنّه فتح الباب على مصراعيه للطّعن بالقراءات والقرّاء، كما قال الدّكتور شوقي ضيف: "وأنّ من سار على هذا النهج من البصريين اللاحقين له، قد ساروا على دربه وعلى هدى خطاه".[٧٥]

أما المبرّد فقد اجترأ على تخطئة القراءات القرآنيّة إذا اصطدمت بالقواعد النّحويّة، ومن ذلك "أنّه وصف قراءة نافع (معايش بالهمزة بأنّها "غلط")، ورمى القارئ بالجهل بالعربيّة، ووصف قراءة (ثمّ لْيقطع بأنّها "لحن" ووصف قراءة (ثلاثمائة سنين بأنّها خطأ "وغير جائزة")، وقراءة (عزيرُ بنُ الله بأنّها "ضعيفة جدًّا")، وقراءة (هؤلاء بناتي هنّ أطهرْ لكم بأنّها " لحن فاحش"..."[٧٦]

أمّا أبو الطّيّب فقد حمل على حمزة والكسائي، وهما من القرّاء السّبعة، ورماهما بالجهل بكلام العرب، قال عن حمزة: "أهل الكوفة يتّخذونه إمامًا معظّمًا مقدّمًا، وليس يُحكى عنه شيء من العربيّة ولا النّحو، وإنّما هو صاحب قراءة... ولم يكن يعرف كلام العرب ولا النّحو، ولا كان يدّعي ذلك، وكان يلحن في القرآن ولا يعقله"[٧٧]. وكأنّما كان حمزة يقرأ القرآن من عند نفسه، مع أنّه

(٧١) مازن المبارك: الرماني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٢٧٢.

(٧٢) محمود نحلة: أصول النحو، ص ٣٤.

(٧٣) المرجع نفسه، ص ٣٤.

(٧٤) شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، ط٧، لات، ص ١٥٧.

(٧٥) المرجع نفسه، ص ٢١٩.

(٧٦) محمود نحلة: أصول النحو، ص ٣٩.

(٧٧) أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٢٧.

يقول: "ما قرأت حرفًا من كتاب الله إلّا بأثر"[٧٨]، ويقول عن الكسائي: "ولولا أنّ الكسائي دنا من الخلفاء فرفعوا ذكره لم يكن شيئًا، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل إلّا حكايات من الأعراب مطروحة؛ لأنّه كان يُلقّنهم ما يريد".[٧٩]

أمّا ابن جنيّ فموقفه موقف أثريّ نحويّ جامع، وهو الموقف الذي التزمه علماء القراءة والأثر، فهو لا يطعن في رواية القرّاء مع رفضه لها، كما لا يُجيز القراءة بما يُجيزه القياس إن لم يَرِد بها سماع مأثور؛ لأنّ الرّواية تُؤخَذ روايةً ولا تتجاوز، "وهو وإن ألّف كتاب المحتسب في توجيه القراءات الشّاذّة كغيره من النّحاة يَردّ ويُضعّف طائفة من القراءات السّبع، مع ذلك يبدو أسلم موقفًا من شيخه أبي علي الذي صنع كتاب الحجّة في توجيه القراءات السّبع".[٨٠] وقد حاول في كتاب المحتسب جمع القراءات الشّاذّة وجاهد في توجيهها، وهو مع ذلك هاجم فيه قراءات وضَعّف أخرى، وذكر أنّ بعضها لا يُعرف في اللغة، ولكنّه مع ذلك كلّه يبدو أقرب إلى الاعتدال من غيره بهذه القضية".[٨١]

فقد أوضح "أنّ الشّذوذ المنسوب إلى غير القراءات السّبع لا يعني أكثر من أنّه أمارة على غير القراءات السبع، وعليه فلا مانع من الاستشهاد بهذه القراءات في النّحو، ما دامت جامعة لأركان القراءة الصّحيحة".[٨٢]

أمّا ابن الأنباري فتتعدّد مواقفه من القراءات كما تعدّدت عند النحاة، وتراوحت هذه المواقف بين التّأويل أو التّضعيف، أو الإيحاء بأنّ القرّاء كانوا يقرؤون بالرّأي والقياس، لا لصحّة القراءة والسّماع عندهم.

وهو مع ذلك كلّه، يُقرّر أنّ القراءة سنّة متّبعة، ويقف ذلك الموقف الذّاتيّ المعروف من احترام القراءة، بل يدافع أحيانًا عن بعض القراءات التي رفضها النّحاة، وطعنوا فيها لمخالفتها أقيستهم.

لكنّ مواقفه، على العموم، تتمثّل في ثلاثة منها، وهي الأكثر شيوعًا عنده، وهي: تأويل القراءة، المفاضلة فيما بينها، وتضعيفها أو وصفها بالشّذوذ.

خلاصة الرّأي في استشهاد نحاة البصرة على وجه العموم بالقراءات أنّهم يقبلونها غالبًا، إذا لم تعارض قاعدة وضعوها، أو أرادوا أن يُخرّجوا بها شاهدًا من الشّعر أو كلام العرب، فإذا اصطدمت بما وضعوه من قواعد فإحدى ثلاث:

١-إمّا التأويل والتّخريج.

٢-وإما تضعيفها والطّعن عليها أو على من قرأ بها.

٣-وإمّا إغفالها والإغضاء عنها.

أمّا الكوفيّون فقد اختلفوا موقفًا عن البصريين، فقد أخذوا بالقراءات جميعًا، واحتجّوا بها فيما له نظير في العربيّة، فإن لم يكن له نظير ردّه بعضهم كما رأينا عند الفرّاء، وأباحه بعضهم وبنَوا عليه قواعد وأحكامًا، فقد قبلوا قراءة ابن عامر في سورة الأنعام: "وكذلك زُيِّن لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائهم"، وجوّزوا على أساس منها الفصل بين المتضايفين بغير الظّرف

(٧٨) ابن الجزري: النشر في القراءات العشر، تحقيق محمد علي الضباع، القاهرة، لا ط، لا. ت، ١/١٦٦.

(٧٩) – أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين، ص ٧٤.

(٨٠) – فاضل صالح السامرائي: ابن جني النحوي، دار النذير للطباعة والنشر، بغداد، سنة ١٩٦٩، ص ١٢٧.

(٨١) – المرجع نفسه، ص ١٢٨– ١٣٠.

(٨٢) محمد سالم صالح، أصول النحو، دراسة في فكر الأنباري، دار السلام، مصر، ط١، ٢٠٠٦م،٥٤– ٥٥.

والجـارّ والمجـرور.[٨٣]

حيـال هـذا العـرض نجـد الاتّفـاق والتّبايـن في الآراء، كـما قدّمنـا في بدايـة الحديـث عـن موقـف النّحـاة مـن القـراءات، وثمـة مآخـذ عـلى أولاء النّحـاة، وهـي:

١-غضّهـم مـن شـأن القـرّاء، واتّهـام بعضهـم (كحمـزة والكسـائي بعـدم العلـم والمعرفـة باللغـة، وحتّـى بالقراءة).

٢-اجتراؤهـم عـلى وصـف بعـض القـراءات- كـما رأينـا- بالقبـح، والشّـذوذ والخطـأ، وبأنّـه معيـب في الإعـراب، معيـب في الأسـماع، وكان يكفيهـم- إن لم يكـن بـدّ مـن ذلـك- أن يُغفلـوا ذكـر القـراءات التـي تُعـارض قواعدهـم.

وأمّـا ابـن مالـك فقـد اختلـف موقفـه عـن البصريـين، فقـد أخـذ بالقـراءات جميعًـا، واحتـج بهـا فيـما لـه نظـير في العربيـة، وقبـل مـا ردّه النحويّـون، كمثـال في قـراءة حمـزة: واتّقـوا اللـه الـذي تسـاءلون بـه والأرحـام[٨٤] ، وأجـاز عـلى أسـاسٍ منهـا العطـف عـلى الضّمـير المجـرور، مـن دون إعـادة حـرف الجـرّ، وكذلـك كان موقفـه مـن قـراءة ابـن عامـر: âقتـل أولادهـم شركاؤهـم[٨٥] ، وقـراءة حمـزة: âثـمّ لْيقطـعْ[٨٦] ، إذ كلاًّ منهـما اعتمـد عليـه في وضـع القواعـد والأحـكام.[٨٧]

وقـد خطّـأ الإمـام السّـيوطي مـن النّحـاة مـن عـاب عـلى عاصـم وحمـزة وابـن عامـر قـراءات بعيـدة في العربيّـة ونسـبوهم إلى اللحـن؛ يقـول: "كان قـوم مـن النّحـاة المتقدّمـين يَعيبُـون عـلى عاصـم وحمـزة وابن عامـر قـراءات بعيـدة في العربيّـة وينسـبونهم إلى اللحـن، وهـم مخطئـون في ذلـك، فـإنّ قراءتهـم ثابتـة بالأسـانيد المتواتـرة الصّحيحـة التـي لا مطعـن فيهـا، وثبـوت ذلـك دليـل عـلى جـوازه في العربيّـة".[٨٨]

ب- بعض الثغر في عمل النحاة

أمّـا بالنسـبة إلى القـراءات فقـد ذكـر السـيوطي تأكيـدًا مشـابهًا بقولـه "والحقيقـة الثابتـة أن بعـض هـذه القـراءات يطابـق تمامًـا اللهجـات التـي كانـت شـائعة عنـد العـرب في القـرن الأول بعـد الهجـرة فهي صيـغ عربيـة كانـت مألوفـة عنـد العـرب قبـل تـسرب النفـوذ الأعجمـي وقبـل أن يطـرأ تغيـير في اللغـة العربيـة التـي كانـت منتـشرة في شـمال بـلاد العـرب في عـصر ظهـور الإسـلام".[٨٩]

أمّـا النّحـاة فـكان تمسّـكهم بالمأثـور مـن كلام العـرب أشـدّ، واعتمادهـم لـه أكـثر... وهـذا النّهـج الـذي نهجـه النّحويّـون هـو الـذي يُفـسّر كـما يـرى الأسـتاذ سـعيد الأفغـاني كثـيرًا مـن الثّغـر النّافـذة إلى الصّميـم في عمـل النّمـوّ، فيقـول:

"والنّاقـد يجـد في وصـف النّحـاة وفي قواعدهـم عـلى كلام العـرب ثُغُـرًا عِـدّة ينفـذ منهـا إلى الصّميـم، فهـم يريـدون بنـاء قواعدهـم عـلى كلام العـرب نتفًـا نثريّـة وشـعريّة مـن هـذه القبيلـة ومـن تلـك، مـن أعـرابيّ في الشّـمال إلى امـرأة في الجنـوب، ومـن شـعر لا يُعـرف قائلـه إلى جملـة غـير منسـوبة، يجمعـون

(٨٣) ابـن الأنبـاري، أبـو الـبركات، عبـد الرحمـن بـن محمـد بـن أبي سـعيد: الإنصـاف في مسـائل الخـلاف بـين النحويـين البصريـين والكوفيـين، المكتبـة العصريـة، بـيروت، ط١، ٢٠٠٣م-١٤٢٤هـ، ٢/ ٤٣١، وانظـر: محمـود نحلـة، أصـول النحـو، ص ٤٥.

(٨٤) سورة النساء (٤)، الآية: (١).

(٨٥) سورة الأنعام (٦)، الآية: (١٣٧).

(٨٦) سورة الحج (٢٢)، الآية: (١٥).

(٨٧) السيوطي: الاقتراح، ص ٣٧، ٣٨.

(٨٨) السيوطي: الاقتراح، ص ٣٧.

(٨٩) السـيوطي: المزهـر في علـوم اللغـة وأنواعهـا، تحقيـق: محمـد أحمـد جـاد المـولى يكـن، محمـد أبـو الفضـل إبراهيـم، عـلي محمـد البجـاوي، المكتبـة العصريـة، ١٩٩٨م. ص٢٠٨.

هـذا إلى أقـوال معروفـة مشـهورة، ويصفـون قواعـد تصـدق عـلى أكـثر مـا وصـل إليهـم بهـذا الاسـتقراء النّاقـص الـذي لا يسـتند إلى خطّـة محكمـة في الجمـع، ثـمّ يُسـدّدُون هـذه القواعـد بمقاييـس منطقيّـة يريـدون اطّرادهـا في الـكلام، حتّـى إذا أتـت بعضهـم قـراءة صحيحـة السّـند تُخالـف قاعدتـه القياسـيّة طعـن فيهـا، وإن كان قارئهـا أبلـغ وأعـرب مـن كثـير ممّـن يَحتـجّ النّحـويّ بكلامهـم، فـلا اسـتقراؤه كامـل أو كافٍ، ولا لشـواهده التـي اسـتند إليهـا بعـض مـا للقـراءة الصّحيحـة مـن القـوّة، ولا اللغـة تخضـع للمقاييـس المنطقيّـة التـي ابتدعهـا".[٩٠]

وممّـن أنكـر عـلى النّحـاة موقعهـم هـذا الإمـام الـرّازي، فكتـب يقـول: "وكثـيرًا مـا تـرى النّحويـين متحيّريـن في تقريـر الألفـاظ الـواردة في القـرآن، فـإذا استشـهدوا في تقريرهـا ببيـت مجهـول فرحـوا بـه، وأنـا شـديد التّعجّـب منهـم فإنّهـم إذا جعلـوا ورود ذلـك البيـت المجهـول عـلى وفقهـا دليـلًا عـلى صحّتهـا، فَـلأن يجعلـوا ورود القـرآن دليـلًا عـلى صحّتهـا كان أولى".[٩١]

وابـن حـزم في كتابـه الفصـل يتعجّـب مـن أمـر النّحـاة الذيـن ينتزعـون مـن المقـدار الـذي يقفـون عليـه مـن كلام العـرب حكـمًا لفظيًّـا ويتّخذونـه مذهبًـا. ثـمّ تُعْـزى لهـم آيـة خـلاف ذلـك الحكـم فيأخـذون في صرف الآيـة عـن وجههـا.

"ولا عجـب أعجـب ممـن إنْ وجـد لامـرئ القيـس أو لزهـير أو لجريـر أو الحطيئـة أو الطرمـاح أو الأعرابي أو اسـد أو سـلمى أو تميمـي مـن سـائر أبنـاء العـرب، لفظًـا في شـعر أو نـثر، جعلـه في اللغـة وقطـع بـه، ولم يعـترض منـه، ثـمّ إذا وجـد للـه تعـالى خالـق اللغـات وأصلهـا كلامًـا لم يلتفـت إليـه ولا جعلـه حجّـة، وجعـل يصرفـه عـن وجهـه، ويُحرّفـه عـن موضعـه، ويتحيّـل في إحالتـه عـمّا أوقعـه اللـه عليـه".[٩٢]

والسّـيوطي في الاقـتراح يشـير أيضًـا إلى مثـل ذلـك فيقـول: "كان قـوم مـن النّحـاة المتقدّمـين يَعيبُـون عـلى عاصـم وحمـزة وابـن عامـر قـراءات بعيـدة في العربيّـة، وينسـبونهم إلى اللحـن، وهـم في ذلـك مخطئـون، فـإنّ قراءاتهـم ثابتـة بالأسـانيد المتواتـرة الصّحيحـة التـي لا مطعـن فيهـا، وثبـوت ذلـك دليـل عـلى جـوازه في العربيّـة".

وأمّـا محمـد الخـضر الحسـين، أحـد الدّارسـين المحدثـين، فيذهـب إلى القـول: "إنّ أفضـل مـا يُحتـجّ بـه في تقريـر أصـول اللغـة "القـرآن الكريـم"، فإنّـه نـزل بلسـان عـربيّ مبـين، ولا يمـتري أحـد أنّـه بلـغ في الفصاحـة وحسـن البيـان الـذّروة التـي ليـس بعدهـا مرتقـى، فنأخـذ بالقيـاس عـلى مـا وردت عليـه كَلِمُـهُ وآياتُـهُ مـن أحـكام لفظيّـة، ولا فـرق عندنـا بـين مـا وافـق الاسـتعمال الجـاري فيـما وصـل إلينـا من شـعر العـرب ومنثورهـم، ومـا جـاء عـلى وجـه انفـرد بـه، ولا نتّبـع سـبيل مـن يحيـدون عـن ظاهـره، ويذهبـون بـه مذهـب التّأويـل؛ ليوافـق آراءهـم النحويـة".[٩٣]

خلاصة القول

بكلمـة موجـزة نقـول: لم يتوافـر لنـص مـا توفّـر للقـرآن الكريـم مـن تواتـر رواياتـه، وعنايـة العلـماء

(٩٠) سعيد الأفغاني: في أصول النحو، المكتب الإسلامي، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ٣١.

(٩١) محمد بن عمر الفخر الرازي: مفاتيح الغيب=التفسير الكبير، دار الفكر، ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ١٩٣/٣.

(٩٢) سعيد الأفغاني: في أصول النحو، ص ٣٢.

(٩٣) محمـد خـضر حسـين: دراسـات في العربيـة وتاريخهـا، نـشره عـلي رضـا التونـسي (وهـي مجموعـة بحـوث نشرهـا تباعًـا لمجلـة المنـار، المكتـب الإسـلامي، ومكتبـة دار الفتـح للطباعـة والنـشر، دمشـق، ط٢، ١٩٦٠م، ص ٣٠-٣١.

بضبطها وتحريرها متنًا وسندًا، وتدوينها وضبطها بالمشافهة عن أفواه العلماء الفصحاء الأبنياء من التّابعين، عن الصّحابة عن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، فهو النّصّ العربيّ الصّحيح المتواتر المجمع على تلاوته بالطّرق التي وصل إلينا بها في الأداء والحركات والسّكنات، ولم تعتنِ أمة بنصٍّ، ما اعتنى المسلمون بنصٍّ قرآنهم.

لكنّ النّحاة الأوائل كان منهجهم يقتضي بالاستشهاد على صحّة ما جاء في القرآن بما وعَتْه ذاكرتهم من كلام العرب، وقاسوا ما جاء في القرآن عليه، ولا يخفى ما في هذا النّهج من مجافاة للحقّ ومجانبة للطّريق الصّحيح.

وقد أكد إسرائيل ولفنسون أن: "القرآن أصدق مقياس للبحث في لغة العرب في عصر ظهور الإسلام، وإن لم يكن يشتمل على جميع الكلمات العربيّة؛ لأنّه بطبيعة الحال أخذ من الألفاظ ما يناسبه، وترك ما لا يناسبه"[٩٤].

(٩٤) إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد، القاهرة، لا ط، ١٩٢٩م، ص ٢٠٦.

مراجع البحث

- ابـن الأنبـاري، أبـو الـبركات عبـد الرحمـن بـن محمـد بـن أبي سـعيد: الإنصـاف في مسـائل الخـلاف بـين النحويـين البصريـين والكوفيـين، المكتبـة العصريـة، بـيروت، ط١، ٢٠٠٣م-١٤٢٤ه.
- ابـن بـدران: المدخـل إلى مذهـب الإمـام أحمـد بـن حنبـل، المحقـق عبـد اللـه بـن عبـد المحسـن الـتركي، مؤسسـة الرسـالة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد القاهرة، لا ط، ١٩٢٩م.
- ابن الجزري: النشر في القراءات العشر، تحقيق محمد علي الضباع، القاهرة، لا.ط، لا.ت.
- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: المستصفى، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، لاط، ٢٠٠٣م- ١٤٢٤هـ.
- جـلال الديـن السـيوطي: الاقـتراح في علـم أصـول النحـو، قـدّم لـه وضبطـه وشرحـه وعلـق عليـه أحمـد سـليم الحمـصي ومحمـد أحمد قاسـم، جـروس بـرس، ط١، ١٩٨٨م.
- جـلال الديـن السـيوطي: المزهـر في علـوم اللغـة وأنواعهـا، تحقيـق: محمـد أحمـد جـاد المـولى يكـن، محمـد أبـو الفضـل إبراهيـم، عـلي محمـد البجـاوي، المكتبـة العصريـة، ١٩٩٨م.
- جلال الدين المحلي: شرح المحلى في حل جمع الجوامع، مؤسسة الرسالة، د.ت.
- سعيد الأفغاني: في أصول النحو، المكتب الإسلامي، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- سـيبويه، أبـو بـشر عمـرو بـن عثـمان بـن قنـبر: الكتـاب، تحقيـق عبـد السـلام محمـد هـارون، الهيئـة المصريـة العامـة للكتـاب، ط٢، ١٩٧٧م.
- سيف الدين الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام، مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، لا ط، لا ت.
- شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، ط٧، لات.
- أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٥٥م.
- ظفـر أحمـد التهانـوي: قواعـد في علـوم الحديـث، تحقيـق: عبـد الفتـاح أبـو غـدة، مكتبـة المطبوعـات الإسـلامية، بـيروت، ط١٠، ٢٠٠٧م.
- عبـد العـلي محمـد السـهالوي: فواتـح الرحمـوت بـشرح مسـلم الثبـوت. تحقيـق: عبـد اللـه محمـود محمـد عمـر، دار الكتـب العلميّـة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- عـلي بـن محمـد الآمـدي: الإحـكام في أصـول الأحـكام، المحقـق: عبـد الـرزاق عفيفـي، دار الصميعـي، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- عمـر بـن فتـوح البيقـوني الدمشـقي الشـافعي: شرح المنظومـة البيقونيـة في مصطلـح الحديـث، جمـع وترتيـب عبـد اللـه سراج الديـن، مكتبـة دار القلـم، ٢٠٠٩م.
- فاضل صالح السامرائي: ابن جني النحوي، دار النذير للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٦٩.
- مازن المبارك: الرماني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤م.
- محـب اللـه بـن عبـد الشـكور الهنـدي البهـاري: مسـلم الثبـوت، المطبعـة الحسـينية المصريـة، مطبعـة كردسـتان العلميـة، ١٣٢٦هـ.
- محمـد الأمـين بـن محمـد المختـار الشـنقيطي: مذكـرة أصـول الفقـه عـلى روضـة الناظـر، مجمـع الفقـه الإسـلامي بجـدة - دار عـالم الفوائـد، ١٤٢٦هـ.
- محمـد بـن عبـد اللـه بـن بهـادر الزركـشي: البرهـان في علـوم القـرآن، المحقـق محمـد أبـو الفضـل إبراهيـم، دار إحيـاء الكتـب العربيـة عيـسى البـابي الحلبـي وشركائـه، ط١، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

- محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني: إرشاد الفحول، دار المعرفة، لاط، لات.
- محمد بن عمر الفخر الرازي: مفاتيح الغيب=التفسير الكبير، دار الفكر، ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- محمد خضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، نشره علي رضا التونسي (وهي مجموعة بحوث نشرها تباعًا لمجلة المنار، المكتب الإسلامي، ومكتبة دار الفتح للطباعة والنشر، دمشق، ط٢، ١٩٦٠م.
- محمود أحمد نحلة: أصول النحو العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- محمد سالم صالح: أصول النحو- دراسة في فكر الأنباري، دار السلام، مصر، ط١، ٢٠٠٦م.
- محمود الطحان: تيسير مصطلح الحديث، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
- محمود مصطفى عبود هرموش: غاية المأمول في توضيح الفروع للأصول، مكتبة البحوث الثقافية، طرابلس- لبنان، ط١، ١٩٩٤.
- ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، لا ت.
-وهبي الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط٣، ٢٠٠٥م.

المراجع الإلكترونيّة

-المكتبة الإسلامية، مصطلح الحديث، http://islamlib/٢١٢,١٦٢,١٣٤,١٨/

-تواتر القرآن htt://www.al-mniloni.com/library/

-التواتر بين القراء والمحدثين، ملتقى أهل الحديث. http://www.ahlalhadeeth.com/vb

شرح البيقونية (العدالة والضبط شبكة الدعوة والتبليغ، بقلم عبد الغني الأحول، ١٤٣٢هـ..http://www.binotih.com/go/

دور المسجد النبوي الشريف في تحول ثقافة المجتمع من القبلية إلى الأمة.. أهل الصفة أنموذجًا

The role of the Noble Prophet's Mosque in transforming the culture of society from tribalism to the nation.. Ahl al-Suffah as a case study

د. صلاح الدين سليم أرقه دان

أهمية البحث والحاجة إليه:

١. قراءة المنهج الإسلامي في التغيير الثقافي.
٢. إبراز أثر هذا المنهج في التغيير على مسار الأمة المسلمة.
٣. توظيف منهجية التغيير هذه في إعادة وحدة الأمة بناء الأمة مهما اختلف الدين والعرق واللغة والجنس.

إشكالية البحث: مفهوم آليات التحول في الثقافة العربية من القبلية إلى الأمة وعناصرها وآلياتها.

حدود البحث:

١.الحد الزماني:من الهجرة إلى وفاة النبي ﷺ. (١ – ١١هـ/ ٦٢٢ – ٦٣٢م).
٢.الحد المكاني:المدينة المنورة وجوارها.
٣.الحد الموضوعي: التربية النبوية لأهل الصفة والتغيرات الثقافية فيهم.

منهجية البحث:

١. دراسة النصوص.
٢. المقارنة.
٣. الاستقراء.
٤. الاستبيان.

الدراسات السابقة: هذا موضوع جديد. كل الدراسات المكتوبة والمنشورة عن أهل الصفة وتأسيس المجتمع الإسلامي في العصر النبوي كانت سردًا تاريخيًا للأحداث، ولم تتناول التحول الحضاري من القبيلة إلى الأمة.

This is a new topic. All written and published studies on Ahl Al-Suffah and the establishment of the Islamic society in the Prophet's era were a historical writing of events, and did not address the cultural transformation from the tribe to the nation.

كلمات مفتاحية:المدينة المنورة، المسجد النبوي، القبيلة، الأمة، أهل الصفّة.

.Medina, the Prophet's Mosque, the tribe, Ahl al-Suffah

ملخص البحث

جاءت الدعوة الإسلامية بعقيدة ومنهج حياة يتفق مع البيئة التي انطلقت منها، وهي جزيرة العرب، ابتدأت بمكة المكرمة، فلما أقفلت في وجهها سبل حرية التبليغ والتمدد بين أهل مكة وجوارها وزوارها، انتقلت بالهجرة إلى المدينة المنورة، ومن هناك ترسخت وأقامت مؤسساتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية، ثم انطلقت إلى أنحاء الجزيرة في العهد النبوي الشريف، ومهدت رسائل النبي ﷺ إلى أباطرة تلك الفترة وملوكها وشيوخها للانتشار خارج الجزيرة العربية في عهد الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من الخلفاء.

كانت ثقافة الانتماء القبلي هي العقبة الأولى التي واجهت الدعوة في مكة المكرمة، وهي انتماء فكري واجتماعي ذو نسيج متين، بحيث تذوب به شخصية الفرد في المجتمع، ليصبح رقمًا لا إرادة له، يتحرك كما تريد القبيلة لا كما يريد، ويتخذ موقف السلم والحرب، والرضا والكره، بحسب قرار القبيلة لا قراره هو.

المتأمل في المستجيبين الأوائل من الصحابة الكرام كخديجة وأبي بكر وعثمان وحمزة، وغيرهم (رضي الله عنهم)، يرى بعين اليقين أنهم من الذين تحرروا من قيد ثقافة القبيلة، وفكروا لأنفسهم، واتخذوا قرارهم بإرادتهم متحدين ثقافة الذوبان القبلي.

للحقيقة، إن الثقافة القبلية ليست خاصة بالعرب، بل هي ظاهرة إنسانية لطالما حالت بين الأمم وقبول دعوات الرسل والمصلحين، كما وقع لموسى وعيسى وغيرهما (عليهما السلام، وكما يقع اليوم، حتى في أكثر الدول المتقدمة، فيما يسمى ثقافة القطيع أمام المتغيرات العقدية والفكرية والثقافية.

فكيف كانت إدارة الإسلام لهذا الأمر؟ وكيف تم الخروج من قيد القبيلة الذي يكبل الفرد ويعارض التغيير، إلى مفهوم الأمة التي تقبل الإسلام وتعتنق مبدأ الاجتهاد، الذي هو تحرر من التقليد والتبعية، في الدين والدنيا معًا؟ وما هو دور المسجد النبوي الشريف في تربية جيل وإنشائه على هذا النمط؟ وما كانت آلياته لفعل ذلك؟

أسئلة تحاول هذه الورقة تلمس الطريق للإجابة عنها، والسؤال المركزي فيها عن دور المسجد النبوي الشريف في تحول ثقافة المجتمع من القبلية إلى الأمة.. متخذًا من (أهل الصفة محور هذا الأمر.. وهو من الأسئلة التي لم تعالج من قبل.

***

Abstract

Islam came with a belief and a way of life consistent with the environment from which it was launched, which is the Arabian Peninsula. It began in Makkah Al–Mukarramah, and when the means of freedom of communication and expansion were closed between Muslims and the people of Makkah, its neighborhood and its visitors, Muslims moved by emigrating to Al–Madinah Al–Munawwarah, and from there Islam established the political, economic, social and educational institutions. Then Islam set out to all parts of Arabian Peninsula in the era of the Noble Prophet, and his messages to emperors, kings and sheikhs of that period paved the way for spreading Islam outside the Arabian Peninsula during the era of Al–Rashedoon and the caliphs who came after them.

The culture of tribal affiliation was the first obstacle faced the da'wah in Makkah Al–Mukarramah, which is an intellectual and social affiliation with a solid fabric, so that the individual's personality dissolves in the tripe, becoming a number without will, moving as the tribe wants, not as he wants, and taking a position of peace, war, contentment and hate, according to the decision of the tribe, not his own decision.

Contemplating the first responders of the honorable Companions, such as Khadija, Abu Bakr, Othman, Hamza, and others, they were among those who were freed from the shackles of the culture of the tribe. They thought for themselves and made their decisions with their own will, defying the culture of tribal dissolution.

In fact, tribal culture is not specific to Arabs, it is a human phenomenon that has always prevented nations from accepting the invitations of the messengers and reformers, as happened to Moses and Jesus and others, and as it happens today, even in the most advanced countries, in what is called the herd culture in front of the doctrinal and intellectual and cultural changes.

How did Islam manage this matter? And how was the way out of the bondage of the tribe that binds the individual and opposes change, to the concept of the nation that accepts Islam and embraces the principle of ijtihad, which is liberation from tradition and subordination, in both religion and this world? And what was the role of the Prophet's Mosque in raising and creating a generation on this pattern? And what were his mechanisms for doing so?

Questions that this paper attempts to find a way to answer, and the central question in it is about the role of the Noble Prophet's Mosque in transforming the culture of society from tribalism to the nation, taken from (Ahl Al–Suffa the case study of this paper, this is one of the questions that has not been addressed before.

المدخل

الإنسان اجتماعي بطبعه وحاجته، فهو أعجز من أن يصنع أو يحقق كل ما يريد بمفرده، وهذا هو سر الاجتماع البشري[١]، والانتماء ظاهرة إنسانية لا تتعلق بقوم أو بثقافة دون غيرها، وكلما ضاقت دائرة الانتماء توفرت للفرد فرصة الظهور وعدم الضياع رقمًا بين الأرقام، فمن انتسب إلى البشرية ليس سوى واحدٍ من ثمانية مليار، فإن انتسب الى الإسلام فهو واحد من ملياريـن، وانتسابه للعروبة يجعله واحدًا من نصف مليار، وبانتسابه الى وطنه قد يجعله واحدًا من نصف مليون مواطن، وهكذا كلما ضاقت الدائرة توفرت فرصة ظهور الفرد داخلها.

الانتماء يحقق عددًا من المصالح للفرد وكذلك للجماعة، وهو تعلق معنوي ومادي في نفس الوقت. وتعزز الجماعة من خلال ثقافتها السائدة وأعرافها وطرق تربيتها انتماء الفرد لها. وقد نجحت الجاهلية خلال قرون ضاربة في القدم في أن تمثل الانتماء الأعمى خير تمثيل بـ(عصبية الدم) أي الانتماء إلى أب واحد، حقيقة أم ولاءً.

العصبية القبلية

العصبية هي ارتباط أفراد بينهم علاقة رحم ونسب ارتباط طاعة ونصرة، جاء في لسان العرب مادة (ع ص ب): " العَصَبِيَّةُ والتَّعَصُّبُ: المُحاماةُ والمُدافعةُ. وتَعَصَّبْنا لَهُ وَمَعَهُ: نَصَرناه. وعَصَبَةُ الرَّجُل: قومُه الَّذِينَ يَتَعَصَّبونَ لَهُ. وعَصَبُوا بِهِ: اجْتَمَعُوا حَوْلَه.وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ الَّذِي سَوَّدَه قَوْمُه: قَدْ عَصَّبُوه، فَهُوَ مُعَصَّبٌ وَقَدْ تَعَصَّبَ"[٢].

قال النويري (ت٧٣٣هـ) في (نهاية الأرب) عن القيرواني[٣]، عن أمير تونس إبراهيم بن أحمد الأغلبي التميمي (ت٢٨٩هـ) قوله: "وأما الرعية فهم مادة الملك، إن أباح ظلمهم لم يصل إليه نفعهم، ولحقه الضرر، وصار النفع لغيره"[٤].

تبنى ابن خلدون (ت٨٠٨هـ)، هذا المعنى في (المقدمة)، قال: "اعلم أنّ صاحب الدّولة إنّما يتمّ أمره كما قلناه بقومه، فهم عصابته وظهراؤه على شأنه، وبهم يقارع الخوارج على دولته"[٥]، و"المقصود في العصبيّة من المدافعة والمغالبة إنّما يتمّ بالنّسب لأجل التّناصر في ذوي الأرحام والقربى والتّخاذل في الأجانب والبعداء"[٦]، ويضيف: "أنّ المطالبات كلّها والمدافعات لا تتمّ إلاّ بالعصبيّة"[٧].

إذن هي اجتماع القوم على أمر، هو لهم كالاعتقاد، يناصر بعضهم بعضًا فيه دون النظر في

(١) ابن خلدون (ت٨٠٨هـ)، العِبرَ وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص١/ ٥٤.

(٢) ابن منظور الإفريقى (ت٧١١هـ)، لسان العرب، تحقيق: اليازجي وجماعة من اللغويين، بيروت، دار صادر، ط٢، ١٤١٤هـ)، ص١/ ٦٠٦.

(٣) راجعت: الرقيق القيرواني (ت٤٢٥هـ)، تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، فلم أجد النص.

(٤) شهاب الدين النويري (ت٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ط١، ١٤٢٣هـ)، ص٢٤/ ١٣٩-١٤٠.

(٥) ابن خلدون (ت٨٠٨هـ)، العِبرَ، ص١/ ٢٢٩.

(٦) السابق، ص١/ ٢٣٠.

(٧) السابق، ص١/ ٢٣٥.

أسبابه ولا عواقبه، كما يتجلى هذا المعنى في الشعر الجاهلي، يقول قُرَيْط بن أُنَيْف العنبري التميمي، وافتتح به أبو تمام كتابه ديوان الحماسة[٨].

لو كنتُ مِن مَازِنٍ لم تَسْتَبِحْ إِبِلِي بنو اللَّقِيطَةِ مِن ذُهْلِ بنِ شَيْبَانَا
إذن لَقَامَ بِنَصْرِي مَعْشَرٌ خُشُنٌ عندَ الحَفِيظَةِ إِنْ ذو لُوثَةٍ لانَا
قومٌ إذا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذَيْهِ لَهُم قاموا إليه زَرَافَاتٍ وَوِحْدَانَا
لا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حينَ يَنْدُبُهُمْ في النَّائِبَاتِ على ما قال بُرْهَانَا

فهي إذن عصبية الدم والتميز، بل الاستعلاء على من عداها.

حمية الجاهلية، ثقافة القبيلة

هل تقضي العقيدة على الحمية الجاهلية بالكامل، أن تحتاج إلى بيئة حاضنة كي تترعرع فيها وتنمو وتتمكن من النفوس فتبني أمة ذات انتماء لا تشوبه شائبة من عَيبَة الجاهلية؟

قد يكمن الجواب في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال : كُنَّا في غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يا لَلْأَنْصَارِ، وقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمَّعَهَا اللَّهُ رَسوله ﷺ، قَالَ: ما هذا؟ فَقالوا كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يا لَلْأَنْصَارِ، وقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ: "دَعُوهَا فإنَّهَا مُنْتِنَةٌ". قَالَ جَابِرٌ: وكَانَتِ الأَنْصَارُ حِينَ قَدِمَ النبيُّ ﷺ أَكْثَرَ، ثُمَّ كَثُرَ المُهَاجِرُونَ بَعْدُ، فَقَالَ عبدُ اللَّهِ بنُ أُبَيٍّ: أَوَقَدْ فَعَلُوا، واللَّهِ {لَئِنْ رَجَعْنَا إلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأَذَلَّ}، فَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: دَعْنِي يا رَسولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هذا المُنَافِقِ، قَالَ النبيُّ ﷺ: "دَعْهُ لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ"[٩].

في صراع القيسية واليمنية الذي ساهم في تفكك الأندلس ثم خروج المسلمين منها[١٠]، بل نالت شرارة الصراع القيسي/ اليمني بلاد الشام وأدت إلى سلسلة من التداعيات ما زالت الشام لاسيما لبنان يعاني منها حتى اليوم.

إذن لا بد من توفير عناصر عملية ميدانية، وبيئة واعية حاضنة، مساندة لعقيدة التوحيد تزرع وتنمي ثقافة الأمة، وتقدمها على ثقافة القبيلة، فلا تتعرض لعواصف رياح الحمية الجاهلية بالانشطار القبلي عند أول فرصة. وهذه إحدى مميزات أهل الصُّفَّة، إذ لم يكن لهم أي انتماء آخر لغير جماعة المسلمين بقيادة النبي بعدما هجروا الأهل والقبيلة والوطن.

الإسلام والعصبية القبلية

يذكّر الوحي الإلهي الناس بأصلهم الواحد: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى

(٨) أبو تمّام (ت٢٣١هـ)، ديوان الحماسة، رواية: الجواليقي (ت٥٤٠هـ)، تحقيق: أحمد حسن بسج، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص١١. وقريظ هذا شاعر جاهلي، في حياته غموض، غير معروف سنة الولادة ولا الوفاة.

(٩) صحيح البخاري (٤٩٠٧). صحيح مسلم (٢٥٨٤).

(١٠) انظر: ابن عذارى (نحو ٦٩٥هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج.س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، بيروت دار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات/١٣]. ويجعل رابطة العقيدة مقدمة على رابطة الدم (القبيلة/ العشيرة/ العائلة، يقول تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران/١٠٣].

يدين الإسلام الحمية الجاهلية، ويقارن بينها وبين رابطة الإيمان: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الفتح/٢٦].

التوجيه النبوي في الواقع العملي منذ فجر الدعوة وحتى بناء الدولة كان واضحًا في هذا الأمر، إدانة الحمية الجاهلية واستبدالها بأخوة العقيدة، فعن ابنِ عمرَ رضي الله عنه، قال: خَطَبَ النبيُّ ﷺ يومَ الفتحِ، فقال: "أما بعدُ؛ يا أيُّها الناسُ، فإن اللهَ قد أَذْهَبَ عنكم عَيبَةَ الجاهليةِ وفخرَها. يا أيُّها الناسُ، الناسُ رجلان: مؤمنٌ تقيٌّ كريمٌ على اللهِ، وفاجرٌ شقيٌّ هَيْنٌ على اللهِ". ثم تلا: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى}[١١].

ثقافة مغايرة

لم يتنكر الإسلام لعلاقة الرحم، ولم يفكك أواصر ذوي الأرحام، بل احترمها، وحافظ عليها، بالنكاح الصحيح، وبتشريع الإرث، وبفداء العاقلة، وبدّل المفهوم الجاهلي في نصرة ذوي الأرحام بالحق والباطل إلى نصرتهم في الحق ومنعهم من الباطل، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه:"انْصُرْ أخاكَ ظالمًا أوْ مَظْلُومًا". فقالَ رَجُلٌ: يا رَسولَ اللَّهِ، أنْصُرُهُ إذا كانَ مَظْلُومًا، أفرَأَيْتَ إذا كانَ ظالِمًا، كيفَ أنْصُرُهُ؟ قالَ: "تَحْجُزُهُ، أوْ تَمْنَعُهُ، مِنَ الظُّلْمِ، فإنَّ ذلكَ نَصْرُهُ"[١٢].

من ثقافة القطيع إلى المسؤولية الفردية

ليس من اليسر بمكان الانتقال بأمة بأكملها من ثقافة راسخة لقرون من الممارسة والتسليم للأعراف إلى ثقافة مغايرة، والعرف العربي أن الفرد تبع لعشيرته، لا يخرج عن اختيارها إلى اختياره، فإرادته تبعًا لإرادتها، فيما رسخ الإسلام الاختيار الفردي، والمسؤولية الفردية، في الاختيار، وفي تحمل تبعات التصرف، فليس في الإسلام مكان للتبعية العمياء، حتى في أحكام الشريعة، لأن الالتزام الشرعي يقوم على بصيرة وهدى، كما في قوله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [يوسف/١٠٨].

إذن الخطوة الأولى كانت زرع أحد أهم أصول الالتزام؛ وهو الاختيار، تحرير الفرد من قيد الانتماء اللاإرادي (الأعمى إلى الانتماء الإرادي (الواعي، والآيات في ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: {مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا

(١١) ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط٢، ص٦/ ٦٠٩.

(١٢) صحيح البخاري (٦٩٥٢).

مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً} [الإسراء/١٥]. ومنها: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} [الكهف/٢٩]. ومنها: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} [المدثر/٣٨].

من الولاء للقبيلة إلى الولاء للدولة

الانتقال من الولاء للعصبية القبلية إلى الولاء للدولة ليس بالأمر الهين، والرابطة القبلية توثق العلاقة بين بعض الرجال، ولكنها غير كافية لتأهيل شعب ليؤدي رسالة تاريخية [١٣]. وتعدد الآلهة (الوثنية) تساهم في تشظي الأمة واستقلال كل وحدة من وحداتها (القبيلة بنفسها، وسماها الإسلام (جاهلية، والجهل في الحقيقة وثنية، لأنه لا يغرس أفكارًا بل ينصب أصنامًا [١٤].

بالرغم من التنوع والتعدد، لم تكن الجماعة المسلمة في المدينة، على مثال السائد في زمنها، فلا هي أمة القبيلة القائمة على رابطة الدم، ولا هي أمة المدينة القائمة على ملكية الأرض، ولا هي أمة بمفهوم الغرب[١٥]. إنها أمة قائمة على الولاء للعقيدة والشريعة (القانون وطاعة أولي الأمر فيما لا معصية فيه)، ففي التنزيل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ} [النساء/٥٩]، والمراد بأولي الأمر، هم الأمراء[١٦]، فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قال: "مَن أطاعَني فقَدْ أطاعَ اللَّهَ، ومَن عَصاني فقَدْ عَصَى اللَّهَ، ومَن أطاعَ أميري فقَدْ أطاعَني، ومَن عَصَى أميري فقَدْ عَصاني"[١٧].

لم يقض الإسلام على روح التعاون بين أبناء المجتمع الواحد، وإنما حوّل المفهوم من العصبية القبيلة إلى رابطة العقيدة، فعن النعمان بن بشير: "مَثَلُ المُؤْمِنِينَ في تَوادِّهِمْ، وتَراحُمِهِمْ، وتَعاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ تَداعَى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى"[١٨]، على أن يكون التعاضد والتناصر في إطار البر والتقوى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة/٢].

بناء الدولة

بناء الدولة يحتاج إلى عدة عناصر منها ما هو أساس لا تقوم بدونه، ومنها تكميلي يتطور مع تطور المدنية، وفي مقدمة الأساس: الولاء والكفاءة، وكلا العنصرين كان حاضرًا فيما أعده النبي ﷺ وفيما نفذه، ولتحقيق ذلك، كان لابد من تغيير ثقافة المجتمع العربي في مسألة الولاء، بحيث ينتقل الولاء من العصبية القبلية بمعناها الجاهلي إلى الولاء للعقيدة ثم لجماعة المؤمنين (الأمة، وفي ذلك آيات وأحاديث منها: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ

(١٣) مالك بن نبي (ت١٣٩٣هـ)، شروط النهضة، ترجمة: عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٢٠.

(١٤) السابق، ص٢٨.

(١٥) روجيه جارودي (ت١٤٣٣هـ)، الإسلام دين المستقبل، ترجمة: عبد المجيد بارودي، بيروت، دار الإيمان، ب.ط، ب.ت، ص٢٦.

(١٦) ابن كثير (ت٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، الرياض، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص٢/ ٣٤٥.

(١٧) صحيح البخاري (٧١٣٧). صحيح مسلم (١٨٣٥).

(١٨) صحيح مسلم (٢٥٨٦).

في سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة/ ٢٤]، وقوله ﷺ: "أَنْ يَكُونَ اللَّهُ ورَسولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا"[١٩].

أما الكفاءة فخط أحمر، لا يصح تجاوزه لمن أراد إقامة دولة قوية تخدم الأمة ولا تستخدمها، وفي الكتاب الكريم: {إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص/٢٦]، وفي الحديث الشريف: "مَن استعْمَلَ رَجُلًا مِن عِصابةٍ، وفي تلكِ العِصابةِ مَن هو أرْضَى للهِ منْه، فقَدْ خانَ اللهَ، وخانَ رَسولَهُ، وخانَ المُؤمِنينَ"[٢٠].

خطر البداوة على استقرار الدولة

يرى ابن خلدون أن البداوة لا تبني حضارة مدينية[٢١]، لأنها تكتفي بالحاجات الضرورية دون الكمالية: "بالمقدار الّذي يحفظ الحياة ويحصّل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عمّا وراء ذلك"[٢٢]. أما في عالم السياسة، فقبائل الرحل (البدو في جميع أنحاء العالم؛ في الماضي والحاضر؛ بعيدًا عن يد الدولة وسلطانها، وتبعيتها للدولة في الأغلب تبعية اسمية، فإذا ضعفت الدولة إما أن تنقل القبيلة (القبائل ولاءها إلى دولة أو سلطة أخرى)، أو تستقل في مراعيها، في تعبير واضح عن إفلاس نظام الدولة[٢٣]. بل يصرح ابن خلدون "أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة"[٢٤]. فالعصبية إيجابية تجاه أفراد العصبة الواحدة، تشد أواصرها، ولكنها سلبية تجاه العصبيات الأخرى[٢٥].

وقد شدد النبي ﷺ على نبذ البداوة والاستقرار بقوله: "اجتنبوا الكبائر السبع" وعدد منها: "والتعرُّب بعد الهجرة"[٢٦]. وعرف ابن حجر (ت٨٥٢هـ التعرُّب، بقوله: "السكنى مع الأعراب، وهو أن ينتقل المهاجر من البلد التي هاجر منها فيسكن البدو فيرجع بعد هجرته أعرابيًا، وكان إذ ذاك محرماً إلا إن أذن له الشارع في ذلك"[٢٧].

الرأي العام أم ثقافة القطيع؟

إن تحوّل الثقافة يحتاج إلى آليات وأساليب فعّالة، منها إعادة تشكيل الرأي العام، وهو أحد الوسائل التي اهتم بها الإسلام، ولعل خطبة الجمعة، هذه الرسالة الأسبوعية، إحدى مؤشرات هذا

(١٩) رواه البخاري(ت٢٥٦هـ)، في الصحيح (١٦، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢٠) رواه الحاكم (ت٤٠٥هـ)، في المستدرك على الصحيحين (٧٢١٨، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢١) منحوتة من (مدينة.

(٢٢) ابن خلدون (ت٨٠٨هـ)، العِبَر، ص١/ ١٥٠.

(٢٣) رحال بوبريك، زمن القبيلة السلطة وتدبير العنف في المجتمع الصحراوي، الرباط، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٢م، ص١٢.

(٢٤) ابن خلدون (ت٨٠٨هـ)، العِبَر، ص١/ ٢٠٦.

(٢٥) محمد عابد الجابري (ت١٤٣١هـ)، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٦، ١٩٩٤م، ص١٦٩.

(٢٦) الطبراني (ت٣٦٠هـ)، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ط٢، ب.ت، ص٦/ ١٠٣، رقم ٥٦٣٦. عن سهل بن أبي حثمة عن أبيه.

(٢٧) العسقلاني، فتح الباري، ص١٣/ ٤١.

الاهتمام وتدبيره، وبقراءة متأنية لأقوال العلماء نلمس اهتمام فقهاء المسلمين بـ(الرأي العام وأثره الثقافي والاجتماعي).

أمر العامة ليس مما يغفله العقلاء، يقول الجاحظ (ت٢٥٥هـ): "وليست للخاصة قوّة بالعامة، ولا للعيلة قوة على الأراذل؛ فقد قالت الأوائل فيهم، وفي الاستعاذة بالله منهم: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "نعوذ بالله من قومٍ إذا اجتمعوا لم يملكوا، وإذا تفرقوا لم يُعرفوا"[٢٨].. "والعوامُّ - أبقاك الله - إذا كانت نشراً فأمْرُها أيسر، ومُدّة هيجها أقصر. فإذا كان لها رئيسٌ حاذق ومُطاع مدبِّر، وإمام مقلَّد، فعند ذلك ينقطع الطَّمع، ويموت الحقّ ويُقتل المُحقّ"[٢٩].

يوضح الجاحظ قوة الرأي العام بقوله: "لأن العامة إذا انتكثت للخاصة، وتنكرت للقادة، وتشزنت على الراضة، كان البوار الذي لا حيلة له، والفناء الذي لا بقاء معه. وصلاح الدنيا، وتمام النعمة في تدبير الخاصة وطاعة العامة"[٣٠]. وقد سبقه إلى ذلك الخلفاء الراشدون، فقد نسب الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، القول: "استوصوا بالغوغاء خيراً، فإنهم يطفئون الحريق، ويسُدُّون البثوق"[٣١].

بل قد يفرض العامة رأيهم على الخاصة، فتصبح الثقافة السائدة كالطوفان لا يقف في وجهها رأي ولا قول، ينقل أبو حيّان التوحيدي (ت٤١٤هـ) في (المقابسات عن أستاذه أبي سليمان المنطقي) (ت٣٨٠هـ): "إنا لا نظن أن كل من كان في زمان الفلاسفة بلغ غاية أفاضلهم، وعرف حقيقة أقوال متقدميهم، بل كان في القوم من رأى رأي العامة، وحطّ إلى ما حطّت إليه"[٣٢]. واختصر الإمام السيوطي ت٩١١هـ الأمر بقوله: "للهيئة الاجتماعية من القوة ما ليس للأفراد"[٣٣].

دور الأمة في الإمامة

رأي العامة قوة لا يستهان بها، وبدونها لا سلطان، وتبنت الشريعة الإسلامية الشورى تتبعها البيعة وهي إظهار الرضا واختيار السمع والطاعة، فلا بد من البيعة العامة لتحقيق شرعية الإمام، يقول الغزالي ت٥٠٥هـ في بيعة أبي بكر رضي الله عنه: "وَلَو لم يبايعه غير عمر رضي الله عنه، وبقى كَافَّة الْخلق مخالفين، أَوْ انقسموا انقساما متكافئًا لَا يتَمَيَّز فِيهِ غَالب عَن مغلوب، لما انْعَقَدت الامامة، فان شَرط ابْتِدَاء الِانْعِقَاد قيام الشَّوْكَة، وانصراف الْقُلُوب الى المشايعة، ومطابقة البواطن والظواهر على الْمُبَايعَة"[٣٤]. وهو قول ابن تيمية: "وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ عُمَرَ وَطَائِفَةً مَعَهُ بَايَعُوهُ [يعني أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه]، وَامْتَنَعَ سَائِرُ الصَّحَابَةِ عَنِ الْبَيْعَةِ، لَمْ يَصِرْ إمَامًا بِذَلِكَ،

(٢٨) الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، ص١/٢٨٣.

(٢٩) السابق، ص١/٢٨٤-٢٨٥. وقوله: (إذا كانت نشراً فأمْرُها أيسر، يعني إن كانوا متفرقين غير مجتمعين تحت لواء واحد.

(٣٠) السابق، ص٤/٣٧. معنى (وتشزنت على الراضة: تشزنت: تصعبت. الراضة: جمع رائض. فالعامة صعبة المراس لا تلين لرائضها.

(٣١) السابق، ص١/٣٦٦. وقوله: (ويسدُّون البُثُوق أي: يسدون خروق الفيضان.

(٣٢) أبو حيان التوحيدي (نحو ٤٠٠هـ)، المقابسات، تحقيق: حسن السندوبي، الكويت/ القاهرة، دار سعاد الصباح، ط٢، ١٩٩٢م، ص٢٥٨.

(٣٣) السيوطي (ت٩١١هـ)، معترك الأقران في إعجاز القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص١/٧.

(٣٤) الغزالي (ت٥٠٥هـ)، فضائح الباطنية، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، القاهرة، المكتبة العربية (تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م، ص١٧٧.

وَإِنَّمَا صَارَ إِمَامًا بِمُبَايَعَةِ جُمْهُورِ الصَّحَابَةِ، الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ الْقُدْرَةِ وَالشَّوْكَةِ"[٣٥].

كذلك القول في عهد أبي بكر لعمر (رضي الله عنهما)، يقول ابن تيمية: "وَأَمَّا عُمَرُ فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ عَهِدَ إِلَيْهِ وَبَايَعَهُ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِي بَكْرٍ، فَصَارَ إِمَامًا لَمَّا حَصَلَتْ لَهُ الْقُدْرَةُ وَالسُّلْطَانُ بِمُبَايَعَتِهِمْ لَهُ"[٣٦]. والمعنى: لو قُدِّر أنهم لم ينفِّذوا عهد أبي بكر ولم يبايعوه لم يَصِر عمرُ إمامًا.

المجتمع المسلم الأول

كان المسلمون مضطهدين في مكة، وتنفسوا الحرية في المدينة بعد الهجرة، ونشأ نظام سياسي جديد بعقد اجتماعي تم بينهم من جهة وبين اليهود من جهة أخرى تحت قيادة النبي ﷺ[٣٧]، إذ كان المجتمع المدني متعددًا متنوعًا، فمن جهة العرب هناك الأوس والخزرج (وهم أبناء عمومة والمهاجرون من قريش وغيرهم، وقبائل يهودية أبرزها بنو النضير وقريظة وقينقاع، بالإضافة إلى المشركين وقلة من النصارى والمجوس.

كان اليهود يمسكون بالاقتصاد (التجارة والربا)، والصناعة الصياغة، وتعدين السلاح، والتعليم (المدراس)، فحرر الإسلام المجتمع المدني من حكرهم هذا، بأن خط النبي ﷺ سوق المدينة وعلمهم أصول التجارة، وحرم الإسلام الربا وشرع بدائل كالقرض الحسن والمضاربة والمرابحة وغيرها، وشجع على التعلم والتعليم، واستعان بالمعلم المسلم وبالكافر[٣٨].

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كانت المؤاخاة بين العشائر المختلفة أحد خطوات التحول الاجتماعي من ثقافة الولاء للقبيلة إلى ثقافة الولاء للجماعة، كما في قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات/ ١٠].

احتضان الأنصار للمهاجرين

أقام المهاجرون عامة وأهل الصُّفَّة خاصة في المدينة برضا أهلها ومواساتهم، حيث اقتسموا معهم ما يملكون، وفي ذلك كسر لحدة الثقافة القبلية التي كانت تشد أزر الداخل، فيما ترى في الخارج منافسًا أو لا حقوق له عليها، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، لَمَّا قدمَ النبي ﷺ المدينةَ

(٣٥) ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)، منهاج السنة، ص١/ ٥٣٠.

(٣٦) السابق، ص١/ ٥٣٢.

(٣٧) انظر النص في: محمد حميد الله (ت ١٤٢٣هـ)، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، بيروت، دار النفائس، ط٥، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٥٩-٦٤.

(٣٨) عبد الحيّ الكتاني (ت١٣٨٢هـ)، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، تحقيق: عبد الله الخالدي، بيروت، دار الأرقم، ط٢، ب.ت، ص١/ ١٠٨.

أتـاهُ المُهاجـرونَ، يعنـي الذيـن سـبقوا في الهجـرة، فقالـوا: يـا رسـولَ اللَّـهِ، مـا رأينـا قومًـا أبـذلَ مـن كثـيرٍ، ولاَ أحسـنَ مواسـاةً مـن قليـلٍ، مـن قـومٍ نزلنـا بـينَ أظْهرِهـم، لقـد كفَونـا المؤنـةَ، وأشرَكونـا في المَهنـإٍ حتَّـى خِفنـا أن يذْهبـوا بالأجـرِ كلِّـهِ(٣٩).

التنوع في إطار الوحدة

كان المجتمـع الإسـلامي الأول في المدينـة المنـورة مجتمعًـا عشـائريًا مختلطًـا مـن عنصريـن أساسـيين: العـرب ويهـود، أمـا العـرب فهـم أيضًـا مـن فرعـين أساسـيين: عـرب الشـمال (عدنانيـة مـن مهاجـري قريـش وعائـلات أخـرى شـتى)، وعـرب الجنـوب (قحطانيـة مـن الأوس والخـزرج)، بالإضافـة إلى أفـراد وعائـلات (عشـائر أخـرى)، أسـلمت أو ارتضـت أن تكـون مـن رعايـا الدولـة المسـلمة الجديـدة، فعاشـوا في المدينـة المنـورة أو حولهـا، كبنـي ضَمْـرَة(٤٠)، وخزاعـة(٤١).

ومـن سـنن اللـه في الخلـق أن العـادات والتقاليـد والقيـم السـائدة في أمـة أو جماعـة تسـاهم في تشـكيل الهويـة الثقافيـة للمجتمـع المؤلـف مـن عناصرهـا، سـلبًا وإيجابًـا، وتحتـاج حركـة الاندمـاج وتوحيـد المسـار إلى جهـود إضافيـة، ووسـائل اجتماعيـة وفكريـة فاعلـة لتقيـم المعادلـة الأصعـب، وهـي التنـوع في إطـار الوحـدة(٤٢)، هـذه المعجـزة السياسـية/ الاجتماعيـة التـي حققهـا النبـي ﷺ ابتـداء بنظـام الاخـوة بـين المهاجريـن أنفسـهم، ثـم المؤاخـاة بينهـم وبـين الأنصـار، ثـم ميثـاق المدينـة الـذي نظـم العلاقـة بـين جميـع أطيـاف مواطنـي المدينـة المنـورة(٤٣).

تظهـر قيمـة ميثـاق المدينـة بأنـه لم يكـن تقليـدًا لأي نظـام معـاصر يومهـا، ولا يمكـن لأحـد الادعـاء أن النبـي ﷺ رأى ذلـك في رحلتـه إلى الشـام، أو أن أحـد وزرائـه أو مستشـاريه قـد نقلـه عندمـا رآه في رحلتـي الشـتاء أو الصيـف، صحيـح أن مكـة المكرمـة نفسـها كانـت قائمـة عـلى الشـورى متمثلـة بـدار النـدوة(٤٤)، ولكـن النظـام الاجتماعـي/ الاقتصـادي لأهـل مكـة كان قائمًـا عـلى الطبقيـة والعصبيـة، طبقيـة الأغنيـاء والعبيـد، وعصبيـة العائـلات القرشـية نفسـها، بالرغـم مـن انحـدار الجميـع مـن جـد واحـد هـو النـضر بـن كنانـة، الملقـب بقريـش(٤٥)، ويعـود بنسـبه إلى معـد بـن عدنـان، ومـن ثـم إلى إسـماعيل بـن إبراهيـم (عليهـما السـلام)(٤٦).

(٣٩) صحيح الترمذي (٢٤٨٧).

(٤٠) الطـبري (ت٣١٠هـ)، تاريـخ الرسـل والملـوك، وصلة تاريخ الطـبري، بـيروت، دار الـتراث، ط٢، ١٣٨٧هـ)، ص٢/ ٤٠٣، ٥٥٩. وابن كثـير (ت٧٧٤هـ)، السـيرة النبويـة (مـن البدايـة والنهايـة، تحقيـق: مصطفى عبـد الواحـد، القاهرة، عيـسى البـابي الحلبـي، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٦م، ص٢/ ٣٥٦.

(٤١) ابن هشام، السيرة النبوية، ص٢/ ٣١٨.

(٤٢) لإدراك أهميـة مـا أنجـزه المجتمـع الإسـلامي الأول في المدينـة المنـورة، انظـر الأبحـاث التـي اثارهـا: سـتيفن ديلـو، وتيمـوثي ديـل، التفكير السـياسي والنظريـة السياسـية والمجتمـع المـدني، ترجمـة: ربيـع أحمـد مـرسي وهبـه، القاهـرة، المركـز القومـي للترجمـة، ط١، ٢٠١٠م. وكتـاب: أبـو زيـد بـن محمـد مـكي، ظاهـرة الـصراع في الفكـر الغـربي بـين الفرديـة والجماعية، جـدة، مركـز التأصيـل للدراسـات والبحـوث، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

(٤٣) محمـد سـعيد رمضـان البوطـي (ت١٤٢٦هـ)، فقـه السـيرة النبويـة مـع موجـز لتاريـخ الخلافـة الراشـدة، دمشـق، دار الفكـر/ بـيروت، دار الفكـر المعاصر، ط١٠، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٢٢٢-٢٢٨.

(٤٤) أسسـها قـصي بـن كلاب الجـد الخامـس للرسـول ﷺ، بعـد أن تـولى أمـر مكـة خلفـاً لعمـه يقظـة بـن مـرة، أسـس دار النـدوة، دار شـورى لمثـلي عشـائر مكـة، لا يقـضى أمـر إلا فيهـا، وبقـي الحـال عـلى البعثـة النبويـة [الطـبري، تاريـخ الرسـل والملـوك، ص٢/ ٢٥٩].

(٤٥) ابن خلدون (ت٨٠٨هـ)، العِبَر، ص٢/ ٣٨٧.

(٤٦) ابـن حبـان (ت٣٥٤هـ)، السـيرة النبويـة وأخبـار الخلفـاء، تحقيـق: الحافـظ السـيد عزيـز بـك وجماعـة مـن العلـماء، بـيروت، الكتـب الثقافيـة، ط٣، ١٤١٧هـ)، ص١/ ٣٩.

الإحصاء في العهد النبوي

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: كُنَّا مع رَسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ: "احْصُوا لي كَمْ يَلْفِظُ الإسْلامَ"، قالَ: فَقُلْنا: يا رَسولَ اللهِ، أتَخافُ علَيْنا ونَحْنُ ما بيْنَ السِّتِّمائَةِ إلى السَّبْعمائة؟ قالَ: "إنَّكُمْ لا تَدْرُونَ لَعَلَّكُمْ أنْ تُبْتَلَوْا"، قالَ: فابْتُلِينَا حتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ مِنَّا لا يُصَلِّي إلَّا سِرًّا[٤٧]. وعنه رضي الله عنه، قال: قَالَ النبيُّ ﷺ: "اكْتُبُوا لي مَن تَلَفَّظَ بالإسْلَامِ مِنَ النَّاسِ"، فَكَتَبْنَا له ألْفًا وخَمْسَمائَةِ رَجُلٍ، فَقُلْنَا: نَخَافُ ونَحْنُ ألْفٌ وخَمْسُمائَةٍ! فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا ابْتُلِينَا، حتَّى إنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي وحْدَهُ وهو خَائِفٌ. حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، عن أبي حَمْزَةَ، عَنِ الأعْمَشِ فَوَجَدْنَاهُمْ خَمْسَمائَةٍ. قَالَ أبو مُعَاوِيَةَ: ما بيْنَ سِتِّمائَةٍ إلى سَبْعمائَةٍ[٤٨]. فهذا أول إحصاء في الإسلام ليبنى على العدد مقتضاه، والمقصود تعداد الرجال البالغين المسلمين في وقت الحديث، بلغ في أقصاه ألفًا وخمسمائة رجل[٤٩]. ويفهم من الأمر بالإحصاء، إحصاء جميع المسلمين البالغين القادرين على القتال والمدافعة، من المهاجرين والأنصار، ممن يقيم في بيوت المدينة أو في المسجد النبوي الشريف. فما هو عدد أهل الصُّفَّة خاصة؟

تختلف الروايات في تعداد أهل الصُّفَّة، ما بين مقل ومكثر، إذ لَمْ يَكُنْ جَمِيعُ أَهْلِ الصُّفَّةِ يَجْتَمِعُونَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ يَتَأَهَّلُ أَوْ يَنْتَقِلُ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ يَتَيَسَّرُ لَهُ، وَيَجِيءُ نَاسٌ بَعْدَ نَاسٍ، فَكَانُوا تَارَةً يَقِلُّونَ وَتَارَةً يَكْثُرُونَ، فَتَارَةً يَكُونُونَ عَشْرَةً أَوْ أَقَلَّ، وَتَارَةً يَكُونُونَ عِشْرِينَ وَثَلَاثِينَ وَأَكْثَرَ، وَتَارَةً يَكُونُونَ سِتِّينَ وَسَبْعِينَ، وَأَمَّا جُمْلَةُ مَنْ أَوَى إِلَى الصُّفَّةِ مَعَ تَفَرُّقِهِمْ فَقَدْ قِيلَ: كَانُوا نَحْوَ أَرْبَعمائَةٍ مِنْ الصَّحَابَةِ، وَقَدْ قِيلَ: كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَعْرِفْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ[٥٠]. وفي الروايات أن متوسط عدد أهل الصُّفَّة ما بين ستين إلى سبعين، في وقت واحد، وحوالي أربعمائة في مجملهم ما بين مقيم في الصُّفَّة ومنتقل إلى المجتمع[٥١] مما يجعل نسبتهم في الحد الأدنى حوالي ٥٪ من المسلمين البالغين، وهي نسبة عالية إذا اعتبرنا التفرغ لطلب العلم والجهاد. فما من جيش يبلغ تعداده ٥٪ من مجمل السكان، وهذا يدل على دورهم في حياة النبي وبعد وفاته، إذ كان منهم فقهاء كأبي هريرة رضي الله عنه، وقراء ومجاهدون.

دور المسجد النبوي الشريف في بناء الفرد والجماعة

كانت تقام في المسجد النبوي العبادات وحلقات العلم والتلاوة والتدبر[٥٢]، ومجالس الشورى[٥٣]،

---

(٤٧) صحيح مسلم (١٤٩). وعنه ﷺ في البخاري (٣٠٦٠)

(٤٨) البخاري (٣٠٦٠).

(٤٩) حميد الله، مجموعة الوثائق، ص٦٥.

(٥٠) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ص٤١/١١.

(٥١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ص٤١/١١.

(٥٢) صحيح مسلم (٢٦٩٩).

(٥٣) صحيح مسلم (٢٧٧٠). الحاكم، المستدرك على الصحيحين (٥١٩٠. صحيح ابن حبان (٤٧٢٢).

وفيه تعقد جلسات القضاء، وفيه يتم استقبال الوفود، من مشركي العرب كأبي سفيان[٥٤]، وأهل الكتاب كنصارى نجران[٥٥]، وفيه يتم سجن من لا دار له تؤويه[٥٦]، كان المسجد هو الخلية الحية الدائبة الحركة والاستخدام في العهد النبوي.

فالمسلم الذي يؤم المسجد خمس مرات للصلاة يرى ويلمس ويعايش هذه الحركة المنفتحة على العبادة والتلاوة والوعظ والتوجيه والحكم بين المتخاصمين والحوار مع الوفود المغايرة في عقيدتها وثقافتها. والمسلمون لم يكونوا من قبيلة واحدة وبالتالي كان المسجد المكان الأمثل لتقريب الفجوات الثقافية الفردية والمجتمعية بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم مؤمنًا أو طالبًا العهد والأمان. لا سيما من كان يقيم فيه من المهاجرين ممن لا مأوى له ولا حليف من الأنصار (أهل المدينة).

تعريف الصُّفَّة

الصُّفَّة لغة

الصُّفَّة: الظُّلَّةُ. الصُّفَّة مِنَ البُنْيانِ شِبْهُ البَهْو الواسِع الطويلِ السَّمْكِ[٥٧].

الصُّفَّة اصطلاحًا

مَوْضِعٌ مظلَّل مِنَ الْمَسْجِدِ كَانَ يأْوِي إِلَيْهِ المساكينُ. وَفِي الْحَدِيث ذَكَرَ أَهْل الصُّفَّة، هُمْ فُقراء الْمُهَاجِرِينَ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُمْ مَنْزِلٌ يَسْكُنُهُ فَكَانُوا يَأْوُون إِلَى مَوْضِعٍ مُظَلَّل فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ يَسْكُنُونَهُ[٥٨].

موقع الصُّفَّة من المسجد النبوي الشريف

كَانَتْ فِي مُؤَخَّرِ مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي شَمَالِيِّ الْمَسْجِدِ بِالْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ[٥٩].

بيت العُزّاب

لم تكن الصُّفَّة أول مكان يقيم فيه المهاجرون الذين لا أقارب لهم ولا حلفاء في المدينة، فقد سبق

(٥٤) الحاكم، المستدرك على الصحيحين (٣٥٣٤.

(٥٥) ابن هشام، ص١/ ٥٧٤.

(٥٦) الطبري، تأويل التوبة/١١٨، ص١٤/ ٥٤٦. وابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٢٣هـ)، ص٣/ ٤٨٨.

(٥٧) ابن منظور الأفريقي (ت٧١١هـ)، لسان العرب، تحقيق: اليازجي وجماعة من اللغويين، بيروت، دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ)، ص٩/ ١٩٥.

(٥٨) ابن منظور، لسان العرب، ص٩/ ١٩٥.

(٥٩) ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المدينة النبوية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص١١/ ٣٨.

الصُّفَّـة بيـتُ سَـعْدِ بْـنِ خَيْثَمَـةَ الأنصـاري، أحـد نقبـاء بيعـة العقبـة، واستشـهد سـعد يـوم بـدر رضي اللـه عنـه[٦٠]. كانـت داره الواقعـة في جنـوب مسـجد قبـاء تسـمى بَيْـتُ الْعُـزَّابِ[٦١]، فهو أعـزب وكان فيها يسـتضيف العـزّاب مـن المهاجريـن[٦٢]. وكانـت هـذه الـدار هـي مقـام النبـي ﷺ لمـا أقـام في قبـاء في طريـق هجرتـه من مكـة إلى المدينـة[٦٣]، ولكـن المقيمـين فيهـا ليسـوا عـلى القـرب مـن رسـول اللـه ﷺ وتوجيهاتـه ومعايشـتهم للوحـي خطـوة خطـوة كما أهـل الصُّفَّـة، ولذلـك كان النبـي ﷺ يزورهـم بنفسـه ليعظهـم ويعلمهـم[٦٤]، حرصًا منـه ﷺ عـلى مواكبتهـم لمـن هـم في المسـجد النبـوي الشريـف أو مـن رواده الدائمـين.

تعريف أهل الصُّفَّة

قـال عيـاض (ت٥٤٤هـ): الصُّفَّـة، ظُلّـة في مؤخـر مسـجد النبـي ﷺ يـأوي إليهـا المسـاكين، وإليهـا ينسـب أهـل الصُّفَّـة عـلى أشـهر الأقاويـل. وقـال الحافـظ الذهبـي (ت٧٤٨هـ): إن القبلـة قبـل أن تحـوّل كانـت في شـمالي المسـجد، فلـما حوّلـت القبلـة بقـي حائـط القبلـة الأعـلى مـكان أهـل الصُّفَّـة. وقـال الحافـظ ابـن حجـر (ت٨٥٢هـ): الصُّفَّـة مـكان في مؤخـر المسـجد النبـوي مظلـل أعـد لنـزول الغربـاء فيه ممـن لا مـأوى لـه ولا أهـل، وكانـوا يكـثرون فيـه ويقلـون بحسـب مـن يتـزوج منهـم أو يمـوت أو يسـافر. وقـد سرد أسـماءهم أبـو نُعيـم (ت٤٣٩هـ) في (الحِليـة فـزادوا عـلى المائـة[٦٥].

عـن ابـن كعـب القرظـي (ت١٠٨هـ في قولـه، جـلّ ثنـاؤه: {لِلْفُقَـرَاءِ الَّذِيـنَ أُحْـصِرُوا فِي سَـبِيلِ اللَّـهِ} [البقـرة/٢٧٣] قـال: هـم أصحـاب الصُّفَّـة وكانـوا لا مسـاكن لهـم بالمدينـة ولا عَشـائر، فحَـثّ اللَّـه عليهـم النّـاس الصدقـة[٦٦]. فكانـوا ينامـون عـلى عهـد رسـول اللَّـه ﷺ، في المسـجد ويظلّـون فيـه مـا لهـم مـأوًى غـيره[٦٧].

سـبب تخصيـص الصُّفَّـة بإقامـة الوافديـن، قـدوم المهاجريـن أرسـالا[٦٨]، وتكاثـروا، فأنزلهـم ﷺ المسـجد وسـماهم (أصحـاب الصُّفَّـة)، فعـن طَلْحَـة النـضري رضي اللـه عنـه، قـال: "كان الرجـل منـا إذا قـدم المدينـة، فـكان لـه بهـا عريـف نـزل عـلى عريفـه، وإن لم يكـن لـه بهـا عريـف نـزل الصُّفَّـة، فقدمـت، فنزلـت الصُّفَّـة"[٦٩].

---

(٦٠) ابـن حجـر العسـقلاني (ت٨٥٢هـ)، الإصابـة في تمييـز الصحابـة، تحقيـق: عـادل أحمـد عبـد الموجـود وعـلى محمـد معـوض، بـيروت، دار الكتـب العلميـة، ط١، ١٤١٥هـ)، ص٣/٤٦.

(٦١) السابق، ص٣/٤٦. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ص٢/٢٨٢.

(٦٢) السابق، ص٢/٢٨٢.

(٦٣) عمـر بـن شـبة (ت٢٦٢هـ)، تاريـخ المدينـة، تحقيـق: فهيـم محمـد شـلتوت، جـدة، طبـع عـلى نفقـة السـيد حبيـب محمـود أحمـد، ١٣٩٩هـ)، ص١/٧٥.

(٦٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ص٢/٢٨٢.

(٦٥) السمهودي (ت٩١١هـ)، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩م، ص٢/٤٨.

(٦٦) ابن سعد (ت٢٣٠هـ)، الطبقات الكبير، تحقيق: علي محمد عمر، الناشر: القاهرة، مكتبة الخانجي، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص١/٢١٩.

(٦٧) السابق، ص١/٢١٩. وانظر: السمهودي، وفاء الوفا، ص٢/٤٨.

(٦٨) ابن هشام، ص١/٤٧٢.

(٦٩) البيهقـي (٤٥٨هـ)، السـنن الكبـير، تحقيـق: عبـد اللـه بـن عبـد المحسـن الـتركي، القاهـرة، مركـز هجـر للبحـوث والدراسـات العربيـة والإسـلامية،

لم تقتصر الصُّفَّة على المهاجرين

لم تقتصر الصُّفَّة على إيواء المهاجرين فقط، وإن كانوا هم العنصر الغالب على أهلها، فقد ذكر أبو نعيم في (الحلية أحد عشر من الأنصار في أهل الصُّفَّة[٧٠]، وبعضهم غفاري كأبي ذَرٍّالغفاري[٧١]، وطِهْفَة الغفاري[٧٢]، وقَيْسُ بْنُ طَخْفَةَ الْغِفَارِيُّ[٧٣]. كما اشتهر بينهم رواة الحديث كأبي هُرَيْرَةَ[٧٤]، ووَاثِلَةُ بْنُ الأَسْقَعِ[٧٥]، مما يعزز الرأي بأن الصُّفَّة كانت مدرسة إعداد القيادات العلمية والتفرغ للجهاد، كما يرد في طيات البحث.

وفد مزينة ودلالة أمره ﷺ فيهم

لم تكن الصُّفَّة مقصودة لذاتها، وإنما هي لمن لا منازل له في المدينة أوخارجها، ينزل فيها من أسلم لله وهجر الأهل والوطن، وتفرغ للعلم والعبادة والجهاد، فقد كان أوّل مَن وفد على رسول اللَّه ﷺ من مُضر أربعمائة من مُزَينة، وذلك في رجب سنة خمس للهجرة، فجعل لهم رسول اللَّه ﷺ الهجرة في دارهم، وقال: "أَنْتُمْ مُهَاجِرُونَ حَيْثُ كُنْتُمْ، فَارْجِعُوا إلى أَمْوَالِكُمْ"، فرَجعوا إلى بلادهم[٧٦]، أي لهم أجر المهاجرين بالرغم من إقامتهم في ديارهم، ذلك لأن أربعمائة يشكلون قوة لا يستهان بها في قومهم، فإقامتهم بين قومهم خير لهم ولقومهم ولجيرانهم، فالدعوة تقوى بهم ولعلها تنتشر بالمعايشة مع محيطهم، كما يشكلون سورًا يحفظ المدينة من الطامعين فيها من مشركي العرب أو حلفاء قريش، فوفود هؤلاء كان قبل فتح مكة بثلاث سنوات.

فقر أهل الصُّفَّة

كان أهل الصُّفَّة فقراء يعانون قلة الزاد واللباس حتى يسقط أحدهم من الخصاصة[٧٧]، وكان رسول اللَّه ﷺ، يدعوهم إليه بالليل إذا تعشّى فيفرّقهم على أصحابه وتتعشّى طائفة منهم مع رسول اللَّه ﷺ[٧٨]، حتى جاء اللَّه تعالى بالغِنى[٧٩].

ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص٥/ ١٧٤، رقم٤٣٩٣.

(٧٠) منهم: حَارِثَةَ بْنَ النُّعْمَانِ[ص١/ ٣٥٦]. حَنْظَلَةَ بْنَ أَبِي عَامِرٍ الرَّاهِبِ[ص١/ ٣٥٧]. رِفَاعَةُ أَبُو لُبَابَةَ[ص١/ ٣٦٦]. سالم بن عمير[ص١/ ٣٧١]. عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ[ص٢/ ٤]. عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ جَبْرِ بْنِ عَمْرٍو[ص٢/ ٨]. عُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ[ص٢/ ١١]. فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ[ص٢/ ١٧]. كَعْبُ بْنَ عَمْرٍو[ص٢/ ١٩]. أَبُو رَيْحَانَةَ شَمْعُونُ[ص٢/ ٢٨].

(٧١) ابن سعد، الطبقات الكبير، ص٣٨٥.

(٧٢) السابق، ص١/ ٢٢٠. ابن سيد الناس (ت٧٣٤هـ)، عيون الأثر، ص٣٨٥.

(٧٣) ابن سيد الناس (ت٧٣٤هـ)، عيون الأثر، ص٣٨٥.

(٧٤) ابن سعد، الطبقات الكبير، ص١/ ٢١٩. ابن سيد الناس (ت٧٣٤هـ)، عيون الأثر، ص٣٨٥.

(٧٥) السابق نفسه: ابن سعد وابن سيد الناس.

(٧٦) ابن سعد، الطبقات الكبير، ص١/ ٢٥٢.

(٧٧) السمهودي، وفاء الوفا، ص٢/ ٤٩.

(٧٨) السابق، ص٢/ ٤٩.

(٧٩) ابن سعد، الطبقات الكبير، ص١/ ٢١٩.

لكنهم لم يكونوا مستعطين يسألون الناس إلحافًا، قال ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) في رده على من اتخذ أهل الصُّفَّة دليلاً على التفرغ للعبادة على أن يتصدق عليه الناس: "قعدوا في المسجد ضرورة، وإنما أكلوا من الصدقة ضرورة، فلما فتح الله على المسلمين استغنوا عن تلك الحال، وخرجوا"[٨٠].

كانوا يشاركون في الجهاد في سبيل الله، وتحمل الوحي، والتبليغ، والتفقه في الدين، وتعلم الكتابة والقراءة[٨١]، وكان النبي ﷺ يدعو لهم ويدعو على من يغدر بهم[٨٢].

الإنفاق على أهل الصُّفَّة

لم يكن أهل الصُّفَّة من أهل الصنائع ولا الزراعة ولا التجارة، إنما كانوا في المسجد ينهلون من علم رسول الله ﷺ، وينفرون إلى الجهاد إذا استنفروا، فمن كان ينفق عليهم؟ يظهر من الآثار أنها كانت مسؤولية الدولة، وكانوا أولى من غيرهم فيما يتوفر من هدية أو صدقة أو فيء.

فعن علي رضي الله عنه، أنه قال لفاطمة (رضي الله عنها) ذات يوم: قد جاء الله أباك بسعة ورقيق، فأتيه فاستخدميه. فأتته فذكرت ذلك له، فقال ﷺ: "والله لا أعطيكما وأدع أهل الصُّفَّة تطوى بطونهم ولا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيعها وأنفق عليهم"[٨٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: وأَهْلُ الصُّفَّة أَضْيَافُ الإِسْلاَمِ، لا يَأْوُونَ إلى أَهْلٍ ولاَ مَالٍ ولاَ عَلَى أَحَدٍ، إِذَا أَتَتْهُ ﷺ صَدَقَةٌ بَعَثَ بهَا إليهِم ولَمْ يَتَنَاوَلْ منها شيئًا، وإِذَا أَتَتْهُ ﷺ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إليهِم وأَصَابَ منها وأَشْرَكَهُمْ فِيهَا[٨٤].

تعليم أهل الصُّفَّة

لم يكن أهل الصُّفَّة عاطلين عن العمل، بل كان عملهم كأي طالب متفرغ للدراسة، أو كأي جندي في الجيش النظامي اليوم، إذ كانوا ملازمين للمسجد النبوي الشريف، ويلبون نداء الجهاد عندما يصدر النفير. فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، خَرَجَ رَسولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ في الصُّفَّة، فَقالَ: "أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَومٍ إلى بُطْحَانَ، أَوْ إلى العَقِيقِ، فَيَأْتِيَ منه بنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ في غيرِ إثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ"؟ فَقُلْنَا: يا رَسولَ اللهِ، نُحِبُّ ذلكَ، قالَ: "أَفلا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إلى المَسْجِدِ فَيَعْلَمُ، أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِن كِتَابِ اللهِ عز وجل، خَيْرٌ له مِن نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ له مِن ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ له مِن أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ"[٨٥].

---

(٨٠) ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تلبيس إبليس، بيروت، دار القلم، ط١، ١٤٠٣هـ، ص١٥٧.

(٨١) الكتاني، نظام الحكومة النبوية، ص١/١٠٨.

(٨٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ص١١/٤٧.

(٨٣) بدر الدين العيني (ت٨٥٥هـ)، نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص١٢/٢٨٨.

(٨٤) صحيح البخاري (٦٤٥٢).

(٨٥) صحيح مسلم (٨٠٣).

مشاركة أهل الصُّفَّة في الجهاد

يؤكد ابن تيمية مشاركة أهل الصُّفَّة في الجهاد وعدم تخلفهم عنه، مستشهدًا بما في الكتاب الكريم[٨٦]: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحشر/٨].

لم يحل الانقطاع للعلم والعبادة بينهم وبين الجهاد في سبيل الله، ويصدق فيهم: (رهبان الليل فرسان النهار، شاركوا بالغزوات وكان منهم شهداء، مثل: ثقف بن عمرو[٨٧]، وجرهد بن خويلد[٨٨]، وحارثة بن النعمان الأنصاري[٨٩]، وخريم بن فاتك الأسدي([٩٠]، وزيد بن الخطاب[٩١]، وسالم بن عمير[٩٢]، وسالم مولى أبي حذيفة[٩٣]، وصفوان بن وهب ابن البيضاء[٩٤]، وعَبْد اللَّهِ بْن جحش الأسدي[٩٥]، وعبد الله (ذو البجادين[٩٦]، وعمير بن أبي وقاص[٩٧]، وعمير بن عبد عمرو الخزاعي (ذو الشمالين[٩٨]).

انتماؤهم وعصبيتهم

باستثناء الموالي والعبيد، ليس من عربي إلا وله جذر في قبائل العرب، وأهل الصُّفَّة من هؤلاء، تركوا أوطانهم وانسلخوا عن قبائلهم وهاجروا إلى الله ورسوله، ارتضوا أن تكون أخوة الإسلام مقدمة على أخوة الدم، وأن تكون المدينة المنورة وطنهم، وهذا لا يعني أنهم تنكروا لأصولهم، أو أنهم لم يحنّوا إلى أوطانهم، وفي الحديث: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ كما حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ"[٩٩]، وذلك من شدّة حنينه ﷺ، وحنين المهاجرين القرشيين، إلى مكة المكرمة.

استخدامات أخرى للصفة

أقام النبي فيها وليمة نكاحه زينب بنت جحش (رضي الله عنها، امتلأت الصُّفَّة والحجرة

(٨٦) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ص١١/٢٧.

(٨٧) شهد بدرًا، هو وإخوته [أسد الغابة، ص١/٤٧٦].

(٨٨) شهد الحديبة [أسد الغابة، ص١/٥٢٧].

(٨٩) استشهد يوم بدر [أسد الغابة، ص١/٦٥٥].

(٩٠) شهد بدرًا [أسد الغابة، ص٢/١٦٧].

(٩١) شهد بدرًا، وأحدًا، والخندق، والحديبية، والمشاهد كلها مع رَسُول اللَّهِ ﷺ، واستشهد مع أخيه الأنصاري معن بْن عدي الأنصاري العجلاني، في اليمامة [أسد الغابة، ص٢/٣٥٦].

(٩٢) شهد بدرًا وأُحُدًا، والمشاهد كلها، وتوفي في عهد معاوية رضي الله عنه [أسد الغابة، ص٢/٣٨٧].

(٩٣) استشهد يوم اليمامة، وكان متوليًا حفظ اللواء [أسد الغابة، ص٢/٣٨٢].

(٩٤) استشهد يوم بدر [أسد الغابة، ص٣/٣٣].

(٩٥) أخو زينب بنت جحش، زوج النَّبِيّ ﷺ، هاجر الهجرتين وشهد بدرًا، واستشهد يوم أُحُد [أسد الغابة، ص٣/١٩٤].

(٩٦) استشهد بتبوك [أسد الغابة، ص٣/٢٢٨].

(٩٧) استشهد يوم بدر [أسد الغابة، ص٤/٢٨٧].

(٩٨) استشهد يوم بدر [أسد الغابة، ص٢/٢١٧].

(٩٩) صحيح البخاري (٦٣٧٢).

بالمدعويين، وكانوا زهاء ثلاثمائة، ونزل على إثرها، في أدب تلبية الدعوة والتخفيف في الجلوس، قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ} [الأحزاب/٥٣]، إلى آخر الآية[١٠٠].

الخلاصة

ذهب المفسرون في أسباب نزول قوله تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف/٢٨]، إلى قولين:

أنها نزلت في مكة في قوم من المستضعفين، أبى المشركون مجالستهم وطلبوا من النبي ﷺ أن يخصص لعلية القوم يومًا لا يجالسهم فيه هؤلاء[١٠١]. وقيل نزلت في المدينة في المهاجرين ومنهم من صرح بأنها في أهل الصُّفَّة خاصة[١٠٢]. ومن المعروف أن صيغ أسباب النزول ترد على قسمين:

الأول: قسم صريح، وهو أن يقول الصحابي، بعد إيراد حدث أو سؤال معين: فأنزل الله كذا وكذا. أو يقول: فنزلت هذه الآية. أو يقول: سبب نزول الآية كذا وكذا. فهذا تصريح بسبب النزول، وله حكم الرفع إلى النبي ﷺ.

والثاني: غير صريح، وهو ما يعبر عنه الصحابي أو المفسر: نزلت هذه الآية في كذا. يعني أن هذا مما يدخل في عمومها ومعناها. وليس لهذا النوع حكم الرفع[١٠٣].

وكيف دار الأمر، فإن المذكورين في أسباب نزول الآيات في مكة، هم أنفسهم مذكورون في عداد أهل الصُّفَّة ممن هاجر لاحقًا، هؤلاء الذين طولب النبي ﷺ أن يصبر نفسه معهم ولا يعدُ عينيه عنهم، هم نواة المجتمع الذي لا عصبية فيه إلا الدعوة (الدولة)، وهم الذين لم ينخرطوا في صراع قبلي تحزبا وعصبية، وهو الانقلاب الثقافي الذي سعى إليه الإسلام ورسوله ﷺ في أن الولاء لله لا للقبيلة، وهو الذي يحقق التعدد في إطار الوحدة.

الإسلام لا يحرم وشائج القربى، بل يشد من إصرها بما يحقق المصالح ويدفع المفاسد، وإلا لما شرع التوارث والعقل الذي يحفظ وشائج القربى الأسرية والعشائرية، ولكنه حرم ثقافة الولاء القبلي الجاهلي، فالمسلم يدور مع الحق حيث دار، حتى لو كان لخصم أو عدو، كما في قوله تعالى: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ

---

(١٠٠) صحيح مسلم (١٤٢٨، باب زواج زينب بنت جحش، ونزول الحجاب، وإثبات وليمة العرس.

(١٠١) الطبري (ت٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مكة المكرمة، دار التربية والتراث، ب.ت، ص١٨/٦. البغوي (ت٥١٠هـ)، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ)، ص٣/١٨٨. فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب: التفسير الكبير، بيوت، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ)، ص٢١/٤٥٥. محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ)، ص١٥/٣٠٤.

(١٠٢) الطبري، جامع البيان، ص١٨/٦. البغوي، معالم التنزيل، ص٣/١٨٨. الرازي، مفاتيح الغيب، ص٢١/٤٥٨. القرطبي (ت٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، ص١٠/٣٩٠.

(١٠٣) السيوطي (ت٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ص١/١١٥.

وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة/٢]، وقوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة/٨].

***

التوصيات

دراسة كتب السيرة والتفاسير ذات العلاقة بأهل الصفة.
دراسة مفاهيم القبيلة والأمة ومقارنتها والتحول الثقافي في علم الاجتماع العربي والأوروبي.
دراسة المرجعيات الفكرية والثقافية لمرحلة الهجرة والعهد النبوي.

المراجع والمصادر

١-ابـن تيميـة (ت٧٢٨هـ)، مجمـوع الفتـاوى، تحقيـق: عبـد الرحمـن بـن محمـد بـن قاسـم، المدينـة النبويـة، مجمـع الملـك فهـد لطباعـة المصحف الشريـف، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٢-ابـن تيميـة (ت٧٢٨هـ)، منهـاج السـنة النبويـة في نقـض كلام الشـيعة القدريـة، تحقيـق: محمـد رشـاد سـالم، الرياض، جامعـة الإمـام محمـد بن سـعود الإسـلامية، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٣-ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تلبيس إبليس، بيروت، دار القلم، ط١، ١٤٠٣هـ.

٤-ابـن حبـان (ت٣٥٤هـ)، السـيرة النبويـة وأخبـار الخلفـاء، تحقيـق: الحافـظ السـيد عزيـز بـك وجماعـة مـن العلـماء، بـيروت، الكتـب الثقافيـة، ط٣، ١٤١٧هـ.

٥-ابـن حجـر العسـقلاني (ت٨٥٢هـ)، الإصابـة في تمييـز الصحابـة، تحقيـق: عـادل أحمـد عبـد الموجـود وعـلى محمـد معـوض، بـيروت، دار الكتـب العلميـة، ط١، ١٤١٥هـ.

٦-ابـن حجـر العسـقلاني (ت٨٥٢هـ)، لسـان الميـزان، تحقيـق: عبـد الفتـاح أبـو غـدة، بـيروت، دار البشـائر الإسـلامية، ط١، ٢٠٠٢م.

٧-ابـن خلـدون (ت٨٠٨هـ)، العِـبَر وديـوان المبتـدأ والخـبر في تاريـخ العـرب والبربـر ومـن عاصرهـم مـن ذوي الشـأن الأكـبر، تحقيـق: خليـل شـحادة، بـيروت، دار الفكـر، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٨-ابـن سـعد (ت٢٣٠هـ)، الطبقـات الكبـير، تحقيق: عـلي محمد عمـر، النـاشر: القاهـرة، مكتبـة الخانجـي، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٩-ابـن عـذارى (نحـو ٦٩٥هـ)، البيـان المغـرب في أخبـار الأندلـس والمغـرب، تحقيـق ومراجعـة: ج.س. كـولان، إ. ليفـي بروفنسـال، بيروتـن دار الثقافـة، بـيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

١٠-ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط٢.

١١-ابـن قيـم الجوزيـة (ت٧٥١هـ)، زاد المعـاد في هـدي خـير العبـاد، بـيروت، مؤسسـة الرسـالة/ الكويـت، مكتبـة المنـار الإسـلامية، ط٢٧، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٢-ابـن قيـم الجوزيـة (ت٧٥١هـ)، زاد المعـاد في هـدي خـير العبـاد، تحقيـق: شـعيب الأرنـاؤوط وعبدالقـادر الأرناؤوط، بـيروت، مؤسسـة الرسـالة، ط٣، ١٤٢٣هـ.

١٣-ابـن كثـير (ت٧٧٤هـ)، تفسـير القـرآن العظيـم، تحقيـق: سـامي بـن محمـد السـلامة، الريـاض، دار طيبـة للنـشر والتوزيـع، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٤-ابـن كثـير (ت٧٧٤هـ)، السـيرة النبويـة (مـن البدايـة والنهايـة، تحقيـق: مصطفـى عبـد الواحـد، القاهـرة، عيـسى البـابي الحلبـي، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٦م.

١٥-ابـن منظـور الأفريقـي (ت٧١١هـ)، لسـان العـرب، تحقيـق: اليازجـي وجماعـة مـن اللغويين، بـيروت، دار صـادر، ط٣، ١٤١٤هـ.

١٦-ابـن هشـام (ت٢١٣هـ)، السـيرة النبويـة، تحقيـق: مصطفـى السـقا وإبراهيـم الأبيـاري وعبـد الحفيـظ الشـلبي،

القاهـرة، شركـة مكتبـة ومطبعـة مصطفـى البـابي الحلبـي وأولاده بمـصر، ط٢، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

١٧-أبو تراب الظاهري، أصحاب الصُّفَّة، جدة، دار القبلة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٨-أبـو تمّـام (ت٢٣١هـ)، ديـوان الحماسـة، روايـة: الجواليقـي (ت٥٤٠هـ)، تحقيـق: أحمـد حسـن بسـج، بـيروت، دار الكتـب العلميـة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

١٩-أبـو حيـان التوحيـدي (نحـو ٤٠٠هـ)، المقابسـات، تحقيـق: حسـن السـندوبي، الكويـت/ القاهـرة، دار سـعاد الصبـاح، ط٢، ١٩٩٢م.

٢٠-أبو داود (ت٢٧٥هـ)، صحيح سنن أبي داود، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط١، ١٤٠٩هـ.

٢١-أبـو زيـد بـن محمـد مـكي، ظاهـرة الـصراع في الفكـر الغـربي بـين الفرديـة والجماعيـة، جـدة، مركـز التأصيـل للدراسـات والبحـوث، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٢٢-أبو نعيم الأصبهاني (ت٤٣٠هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٢٣-أبـو عبيـد ابـن سـلاّم (ت٢٢٤هـ)، الأمثال، تحقيـق: عبـد المجيد قطامـش، دمشـق، دار المأمـون للـتراث، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٢٤-الآمـدي (ت٦٣١هـ)، الإحـكام في أصـول الأحـكام، تحقيـق: عبـد الـرزاق عفيفـي، بـيروت/ دمشـق، المكتب الإسـلامي، ط٢، ١٤٠٢هـ.

٢٥-إسماعيل باشا البغدادي (ت١٣٣٩هـ)، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين.

٢٦-أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ط٦، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٢٧-أكرم ضياء العمري، المجتمع المدني، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، ط٣،١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٨-البخـاري (ت٢٥٦هـ)، الجامـع الصحيـح المسـند مـن حديـث رسـول اللـه وسـننه وأيامـه، تحقيـق: محـب الديـن الخطيـب، القاهـرة، المكتبـة السـلفية، ط١، ١٤٠٠هـ.

٢٩-بـدر الديـن العينـي (ت٨٥٥هـ)، نخـب الأفـكار في تنقيـح مبـاني الأخبـار في شرح معـاني الآثـار، تحقيـق: أبـو تميـم يـاسر بـن إبراهيم، قطـر، وزارة الأوقـاف والشـؤون الإسـلامية، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٣٠-البغـوي (ت٥١٠هـ)، معـالم التنزيـل في تفسـير القـرآن، تحقيـق: عبـد الـرزاق المهـدي، بـيروت، دار إحيـاء الـتراث العـربي، ط١، ١٤٢٠هـ.

٣١-البهـوتي (ت١٠٥١هـ)، كشـاف القنـاع عـن مـتن الإقنـاع، تحقيـق: هـلال مصيلحـي مصطفـى هـلال، الريـاض، مكتبة النصر الحديثـة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٣٢-البيهقـي (٤٥٨هـ)، السـنن الكبـير، تحقيـق: عبـد اللـه بـن عبـد المحسـن الـتركي، القاهـرة، مركـز هجـر للبحـوث والدراسـات العربيـة والإسـلامية، ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٣٣-تنضيب الفايدي، أهل الصُّفَّة ودورهم في انتشار الإسلام، المدينة المنورة، المؤلف، ط١، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

٣٤-الجاحـظ (ت٢٥٥هـ)، رسـائل الجاحـظ، تحقيـق: عبـد السـلام محمـد هـارون، القاهـرة، مكتبـة الخانجـي، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٣٥-جمال فرحان مسعد الريمي، أهل الصُّفَّة دراسة تحليلية، جامعة وادي النيل (رسالة ماجستير، ٢٠٠٦/ ٢٠٠٧م.

٣٦-حاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٤١م.

٣٧-خالد عبد الرحمن العك، موسوعة عظماء حول الرسول، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٣٨-الخطيب التبريزي (ت٥٠٢هـ)، شرح ديوان عنترة، تحقيق: مجيد طراد، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٣٩-الرازي (ت٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب: التفسير الكبير، بيوت، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٤٠-رحال بوبريك، زمن القبيلة السلطة وتدبير العنف في المجتمع الصحراوي، الرباط، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٢م.

٤١-الرقيق القيرواني (ت٤٢٥هـ)، تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٤٢-ستيفن ديلو، وتيموثي ديل، التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني، ترجمة: ربيع أحمد مرسي وهبه، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٠م.

٤٣-روجيه جارودي (ت١٤٣٣هـ)، الإسلام دين المستقبل، ترجمة: عبد المجيد بارودي، بيروت، دار الإيمان، ب.ط، ب.ت.

٤٤-السمهودي (ت٩١١هـ)، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩م.

٤٥-السهروردي (ت٦٣٢هـ)، عوارف المعارف، القاهرة، المكتبة العلامية، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

٤٦-السيوطي (ت٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٤٧-السيوطي (ت٩١١هـ)، معترك الأقران في إعجاز القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٤٨-الشاطبي (ت٧٩٠هـ)، الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الخبر، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٤٩-شمس الدين الذهبي (ت٧٤٨هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عوّاد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٥٠-شهاب الدين النويري (ت٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ط١، ١٤٢٣هـ.

٥١-الشهرستاني (ت٥٤٨هـ)، الملل والنحل، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، القاهرة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م، مؤسسة الحلبي وشركاه.

٥٢-الشوكاني (ت١٢٥٠هـ)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دمشق/ بيروت، دار ابن كثير/ دار الكلم الطيب، ط١، ١٤١٤هـ.

٥٣-صالح أحمد الشامي، أهل الصُّفَّة بعيدا عن الوهم والخيال، بيروت، الدار الشامية، دمشق، دار القلم، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٥٤-صلاح محمود محمود أحمد الباجوري، أهل الصُّفَّة بيان حقائق ودفع أكاذيب (بحث.

٥٥-الطبراني (ت٣٦٠هـ)، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ط٢، ب.ت.

٥٦-الطبري (ت٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، بيروت، دار التراث، ط٢، ١٣٨٧هـ.

٥٧-صلاح الدين الصفدي (ت٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٥٨-الطبري (ت٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مكة المكرمة، دار التربية والتراث، ب.ت.

٥٩-عبد الحيّ الكتاني (ت١٣٨٢هـ)، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، تحقيق: عبد الله الخالدي، بيروت، دار الأرقم، ط٢، ب.ت.

٦٠-علي بن الحسين الهاشمي الخطيب، تاريخ من دفن في العراق من الصحابة، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٤م.

٦١-عمر بن شبة (ت٢٦٢هـ)، تاريخ المدينة، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، جدة، طبع على نفقة السيد حبيب محمود أحمد، ١٣٩٩هـ.

٦٢-الغزالي (ت٥٠٥هـ)، فضائح الباطنية، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، القاهرة، المكتبة العربية (تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.

٦٣-القرطبي (ت٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٦٤-مالك بن نبي (ت١٣٩٣هـ)، شروط النهضة، ترجمة: عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٦٥-المتلمس الضبعي، رواية الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٦٦-محمد حميد الله (ت ١٤٢٣هـ)، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، بيروت، دار النفائس، ط٥، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٦٧-محمد رشيد رضا (ت١٣٥٤هـ)، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٦٨-محمد سعيد رمضان البوطي (ت١٤٢٦هـ)، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دمشق، دار الفكر/ بيروت، دار الفكر المعاصر، ط١٠، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٦٩-محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ.

٧٠-محمد عابد الجابري (ت١٤٣١هـ)، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٦، ١٩٩٤م.

٧١-مسلم (ت٢٦١هـ)، المسند الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط١، ١٣٧٤هـ.

٧٢-مقبل التام عام الأحمدي، متن المعلقات العشر، صنعاء، مجمع العربية السعيدة، ط٢، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

٧٣-الهيثمي (ت٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بيروت، مؤسسة المعارف، ١٤٠٦هـ.

٧٤-يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، القاهرة، دار المعارف، ط٤، ب.ت.

-المصادر الأجنبية

75–Santayana, George (1905. Life of Reason: Reason in Common Sense. (New York: Charles Scribner's Sons 13.

76–Lehtsaar, T. Äärmusliku usugrupi psühholoogia. Tartu: Tõnu Lehtsaar kirjastus, 1997, lk 9.

نهضة محمد علي ـ الدولة في خدمة العسكر

د. حبيب البدوي[١]

مستخلص الدراسة

أدَّت إصلاحات محمد علي باشا دوراً محورياً في تاريخ مصر الحديث، فالباشا هو مؤسس مصر والملقب "بعزيز مصر". وصل إلى مصر في آذار ١٨٠١ على رأس الفرقة الألبانية في الجيش العثماني، وبعد أربع سنوات، في عام ١٨٠٥، تولى السلطة لأول مرة في مصر بدعم وجهاء البلد ورضى السلطان العثماني، بهدف مواجهة التوسع الأوروبي المتصاعد والتصدي للفوضى الداخلية المتفاقمة. تشكل هذه الورقة البحثية دراسة معمقة للدور المهم الذي اداه محمد علي في نهضة مصر، لا سيما من خلال ترسيخ الهوية الوطنية للبلاد وقيادة طريق التحديث.

بالإضافة إلى تنفيذه للإصلاحات السياسية والاقتصادية والزراعية، تبنى الباشا سلسلة من الإجراءات الإصلاحية فيما يتعلق بتطوير الثقافة والتعليم. في هذه الدراسة، سأوضح كيف أثبت محمد علي في النهاية أن النهضة العلمية هي شرط أساسي للتنمية المستدامة لمصر وسائر البلاد العربية.

الكلمات المفتاحية: مصر – التحديث – الحكم الوطني – الإصلاحات – النظام التعليمي.

Abstract:

Muhammad Ali's reforms played a significant role in the history of Egypt. Otherwise known as Pasha, he is considered to be the founder of modern Egypt. In ١٨٠٥, he first came to power in Egypt with the support of the Ottoman Sultanate, with the aim of facing escalating European expansion. This paper constitutes an in–depth study of the pivotal role that Muhammad Ali played in Egypt, particularly in consolidating the national identity of the country and leading the path toward modernization. Pasha played an indelible role in Egypt's westernization through his realistic and executable goals of fortifying his position, destroying Mamluk forces, and saving Egypt from foreign invasion.

In addition to his implementation of political, economic, and agricultural reforms, Muhammad Ali also adopted a series of reform measures with respect to culture and education. In this paper, I will show how Muhammad Ali ultimately proved that the development of culture and education are prerequisites for the sustainable development of the Egyptian nation and even its revitalization.

Key Words: Egypt – Modernization – National Governance – Reforms – Educational System.

(١) الجامعة اللبنانية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية habib.badawi@ul.du.lb

المقدمة

محمد علي باشا[٢]، حاكم مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، والمعروف "بمؤسس مصر الحديثة"، الذي أدخل إصلاحات تطويرية ذات طبيعة تحديثية على جميع الأصعدة الاجتماعية والسياسية والإدارية والعسكرية والاقتصادية، فضلاً عن التعليم، يمثل أول محاولة في الشرق العربي للحاق بركب النهضة الأوروبية. ولقد بذل جهوداً كبيرة لإخراج الإصلاحات في المجال الاقتصادي بأفضل حلة ممكنة. وفي محاولته قام بالانتقال من اقتصاد الكفاف الريفي إلى "الاقتصاد المُعقد الحديث" الذي كان سائدا في بداية القرن التاسع عشر[٣]. وقد أدى ذلك إلى تحول الاقتصاد المصري إلى "اقتصاد موجه نحو التصدير" ضمن التحول الكبير خلال حكم الأسرة العلوية[٤]. كما أدخل إصلاحات في مختلف قطاعات الاقتصاد مثل الزراعة، والاتصالات، والتجارة، والصناعة[٥]، في طموح شخصي بغلاف وطني لقيام مملكة متجددة تجمع بلاد الشام مع أرض الكنانة.

وفي الطريق نحو النهوض المتوخى، قام بالخطوات العملية ذات الأبعاد الاستراتيجية التالية:

الإصلاح الزراعي وتبدل أشكال الملكية

إن الخطوة الأولى في تحقيق الإصلاحات الاقتصادية كانت في مجال الزراعة فقد أحدثت هذه الإصلاحات ثورة في نظام حيازة الأراضي. وفي الوقت نفسه ألغت الزراعة الضريبية ومدفوعات الضرائب التي كان يؤديها الفلاحون مباشرة إلى الحكومة. وهكذا، كان محمد علي أول حاكم في الأراضي الإسلامية الذي قام بإصلاحات اقتصادية هائلة مع التوسع في الزراعة التي أصبحت المصدر الرئيسي للقوة الاقتصادية للبلاد. ومع ذلك، ومع تولي السلطة كانت الخطوة الأولى التي اتخذها محمد علي هي إلغاء "نظام الالتزام"[٦] وإعلان جميع أراضي مصر كأملاك للدولة.

(٢)محمد علي باشا المسعود بن إبراهيم آغا القوللي (١٧٦٩ – ١٨٤٩، هو مؤسس الأسرة العلوية وحاكم مصر ما بين عامي ١٨٠٥ إلى ١٨٤٨، وهو "مؤسس مصر الحديثة"، استطاع أن يعتلي عرش مصر عام ١٨٠٥ بعد أن بايعه أعيان البلاد ليكون واليًا عليها، وعلى عهده شهد العالم العربي أولى محاولات التحديث والنهوض.

Toledano, E. R. (1985. Mehmet Ali Pasa or Muhammad Ali Basha? An historiographic appraisal in the wake of a recent book. Middle Eastern Studies, 21(4, 141159-. https://doi.org/10.10800026320850870064 5/

(3) Rivlin, H. A. (1961). The agricultural policy of Muhammad Ali in Egypt.

(٤) بسكال غزال، التحول الكبير، اعادة تكوين الثروات وشبكات التحول الاجتماعي فى عصر محمد على، القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، ص. ٢١٦.

(5)Charles Issawi, Egypt in Revolution an Economic Analysis, London: Praeger, 1963, p. 21.

(٦)نظام الالتزام في المصطلح الإداري والمالي العثماني وهو التعهد من قبل شخص أو عدة أشخاص بسداد المال الأميري السنوي المربوط على قرية أو جزء من قرية أو عدة قرى بواقع سعر مبدئي يتراوح بين ٤٠ و٤٠٠ بارة للفدان حسب جودة الأرض. ويطرح حق الالتزام للتزايد في أول شهر توت من كل سنة (هو الشهر الأول في التقويم القبطي)، ويدفع من يرسو عليه المزاد ثلث المال الأميري مقدما على أن يأخذ لنفسه جُعلاً من الفلاحين لا يزيد عن قيمة الميرى المقرر نظير الجباية. وكان الروزنامجى يسلم كل ملتزم ثلاث وثائق: الأولى يذكر فيها اسم القرية أو القرى محل الالتزام ومساحة الأراضي المربوط عليها الميرى ثم قيمة الميرى الواجب سداده للخزانة. والثانية تتضمن توصية واجبة النفاذ بالتسامح مع الفلاحين. والثالثة تتضمن أمراً إلى الفلاحين بأنهم صاروا منذ ذلك التاريخ فصاعداً في حوزة الملتزم المذكور وعليهم الطاعة ودفع الميرى المطلوب منهم. وكان الملتزم يمنح قطعة أرض يزرعها لحسابه الخاص، وغالباً ما تبلغ مساحتها عشر مساحة الزمام حتى

بعد أن هزم محمد علي المماليك وقضى عليهم في مذبحة القلعة عمد إلى مصادرة أملاكهم التي كانت تحت أيديهم واستخلصها لنفسه، ثم ألغى نظام الالتزام ونزع الأراضي التي كانت تحت أيدي الملتزمين والتي كان الفلاحون يزرعونها ويدفعون ضريبتها، واعتبرها ملكاً للحكومة، ووزع منفعتها على الفلاحين كأطيان مؤجرة، وخول كل قادر على العمل في الزراعة ثلاثة أفدنة أو أربعة أو خمسة، وبذلك سقطت حقوق الملتزمين وسلطتهم، وصارت علاقة الفلاحين بالحكومة مباشرة بعد أن كانت علاقتهم محصورة بالملتزمين[٧].

من خلال هذه السياسة الجديدة تم أخذ جميع الأراضي باسم الدولة من خلال تجريد جميع المالكين السابقين الذين كانوا في الغالب من البكوات المماليك. وبعد الاستيلاء على هذه الأراضي، قام بتوزيع أجزاء منها في شكل عقارات على أفراد أسرته وحاشيته. ومع ذلك، احتفظ بمعظمها كأملاك للدولة التي كان يزرعها المستأجرون السابقون.

ومع إلغاء هذا العرف التقليدي من نظام الزراعة الضريبية اعتمد طريقة جديدة لجمع الضرائب. بهذه الطريقة جعل محمد علي من المسؤولين هرميين في توظيفهم، وكان هؤلاء المسؤولون يعتمدون مباشرة على الحكومة المركزية. وكان هؤلاء المنتفعون مسؤولين أيضا عن مراقبة الري والحفاظ على الأمن العام. وقد أدى هذا النظام إلى تقسيم مصر إلى محافظات، تخضع كل واحدة منها لمحافظ مسؤول، هذه المحافظات بدورها قسمت إلى "مديريات"، والتي تفرعت بدورها إلى "مراكز"، ولكل مركز "مأمور". وكل قرية لها "عُمدة" يرفع تقريره إلى المأمور[٨]، وهكذا دواليك، حتى تصل الغلال (والأخبار إلى رأس السلطة العَلَويّة.

من المهم أن نذكر هنا أن سياسة محمد علي باشا الزراعية كانت ضد مفهوم الزراعة الضريبية والمشرفين الضريبيين[٩]. كان هناك سببان رئيسيان يدفعان الدولة المركزية الساعية إلى التحديث (وجبّ ما قبلها للإلغاء السريع لهكذا نوع من الحيازات. أولاً: بسبب هوامش الالتزام، ظلت نسبة كبيرة من الدخل الزراعي بعيدة عن الدولة المركزية. ثانياً: ممارسة أصحاب النفوذ المحليين (كالمحافظين ومأموري الضرائب سلطة واسعة على الفلاحين البسطاء.

الجدير ذكره أن محمد علي لم يظهر في بداية حكمه طموحه نحو السلطة، بخاصة لأصحاب النفوذ من قادة المماليك، فقام بفرض ضريبة منخفضة لصالح الدولة على أراضي الالتزام الزراعية. ومن ثم بدأت القبضة الحديدية تشد الخناق على المماليك والمزارعين معاً. ففي حال لم يكن المحصول جيداً وعجز الطرفان عن دفع الضريبة المتراكمة، كانت الدولة تصادر الأرض. وبعد

لا يحصل من الفلاحين أموالا أكثر من المرى المطلوب، وكان من حق الملتزم تأجير أرض الوسية أو جزء منها لآخرين إذا لم يرغب في زراعتها على الذمة.

أيمن أحمد محمد، العثمانيون ونظاما الالتزام والأمانات في مصر في القرن السادس عشر، دراسة في البدايات والتطبيق، القاهرة: المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ٢٠٠٤، ص ص. ٢٢ – ٢٤.

(٧)عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٩، ص ص. ٤٩١ – ٤٩٨.

(٨)John Marlowe, Anglo- Egyptian Relations ,١٨٠٠-١٩٥٦, London: Frank Cass and Company ,١٩٦٥, p.٥٢.

(٩) الزراعة الضريبية هي تقنية للإدارة المالية يتم فيها تعيين إدارة تدفق الإيرادات المتغيرة بموجب عقد قانوني إلى طرف ثالث (وهو الدولة المركزية هنا. يتلقى صاحب تدفق الإيرادات إيجارات دورية ثابتة من الملتزم.

John Butcher and Howard Dick, The Rise and Fall of Revenue Farming: Business Elites and the Emergence of the Modern State, NY: St. Martin's Press,. ١٩٩٣.

"مذبحة القلعة"[١٠]، كان القرار بمصادرة جميع أراضي البكوات وتحويلها للفلاحين القائمين عليها، مع اعتبارها أملاكاً للدولة وعليهم دفع أرباح محاصيلها. وبهذا خفض محمد علي من نفوذ بقايا المماليك (من أصحاب الالتزام، بخاصة في الصعيد ومناطق الأرياف، إلى الحد الأدنى.

واستهدف محمد علي في توسعه الضريبي "الأوقاف الإسلامية"، كما أنه استهدف "الأوقاف غير الصحيحة" في الأراضي الخراجية وحدها، وأن تلك الأوقاف هي التي ألغاها ضمن إجراءات إلغائه نظام "الالتزام"، أما بقية الأوقاف في الأراضي العشورية وفي العقارات المبنية فلم يمسها بسوء. وقد كشف مسح الأراضي تم تنفيذه عام ١٨١٢، عن أن مساحة الأراضي الموقوفة كان قد بلغ ٦٠٠,٠٠٠ فدان، أي ما يزيد قليلاً عن خمس الأراضي الزراعية البالغة آنذاك ٢,٥٠٠,٠٠٠ فدان[١١].

وعلاوة على ذلك، فإن سياسة محمد علي المتمثلة في فرض الضرائب على ممتلكات الأوقاف، والتي استبعدت المباني والحدائق والمساجد، أضعفت نفوذ رجال الدين والمؤسسات الدينية الأخرى. وكان من بين هؤلاء الأزهر الشريف[١٢] وشخصياته الدينية. وقد جُرِّدَتْ هذه الضرائب خلال الأعوام ١٨٠٩ و١٨١٤. تلا ذلك بين عامي ١٨١٤-١٨١٦، إدخال نظام ضريبي جديد يتم بموجبه تسجيل الأراضي باسم القرويين الذين كانوا مسؤولين عن دفع الضرائب مباشرة إلى الدولة من دون وسطاء. حيث أعلن رسميًّا إلغاء نظام الالتزام ورفع أيدي الملتزمين عن التصرُّف فيما تحت أيديهم من أراضي وتحويلها إلى الباشا فيما عُرف بنظام الاحتكار الذي دفع إلى سلسلة من التحولات الأخرى على كافة مستويات علاقات الدولة بالمجتمع، والدولة بالفلاح، والدولة بالتاجر، والدولة بالصانع، والدولة بالخارج. والجدير ذكره أن معظم المنتفعين كانوا من الفلاحين البسطاء[١٣]، والذين كسبوا ميزة الانتفاع من الأراضي التي يزرعونها، مع بقائها ملكاً للدولة، حيث تنتفي عنهم حقوق الملكية أو ميزة التوريث. وبذلك، وفي غضون عشر سنوات من وصوله إلى السلطة نجح محمد علي في تأميم معظم الأراضي الخصبة على شواطئ النيل، منتزعاً السطوة على المنتجات الزراعية من مراكز القوى التقليدية.

---

(١٠) بحلول عام ١٨١١ كان محمد علي قد بلغ من القوة حدا يمكنه من التعامل مع المسألة المملوكية، فعندما طلبت منه الدولة العثمانية إرسال قواته إلى الجزيرة العربية للقضاء على الدولة السعودية الأولى هناك قرر توجيه ضربة قاضية للمماليك حتى يطمئن في حالة خروج الجيش، فقام بتنظيم حفل كبير في القلعة بالقاهرة بمناسبة تولية ابنه طوسون قيادة الجيش ودعا نحو ٥٠٠ من قيادات المماليك حيث تم الاحتفاء بهم وتقديم القهوة والحلوى لهم قبل أن تغلق بوابات القلعة ويفتح جنود الوالي نيران بنادقهم عليهم لتحصدهم جميعا باستثناء واحد فقط.

حسين كفافي، محمد علي ... رؤية لحادثة القلعة، القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٢، ص ص. ١٦١ – ١٦٦.

(١١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، المحقق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة: بولاق، ١٩٩٨.

(١٢) الجامع الأزهر: يعود تاريخ بنائه إلى بداية عهد الدولة الفاطمية في مصر، بعدما أتم جوهر الصقلي فتح مصر سنة ٩٦٩، وشرع في تأسيس القاهرة قام بإنشاء القصر الكبير وأعده لنزول الخليفة المعز لدين الله، وفي أثناء ذلك بدأ في إنشاء الجامع الأزهر ليصلي فيه الخليفة، وليكون مسجداً جامعاً للمدينة حديثة النشأة. بدأ في بنائه في عام ٩٧٠، وأتم بناءه وأقيمت أول جمعة فيه في رمضان سنة ٩٧٢، وعرف بجامع القاهرة. ورغم أن يد الإصلاح والترميم توالت عليه على مر العصور فغيرت كثيراً من معالمه الفاطمية إلا أنه يعد أقدم أثراً فاطمياً قائماً بمصر. وقد اختلف المؤرخون في أصل تسمية هذا الجامع، والراجح أن الفاطميين سموه بالأزهر تيمناً بالسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام.

Rabbat, Nasser (1996, "Al-Azhar Mosque: An Architectural Chronicle of Cairo's History", in Necipogulu, Gulru (ed., Muqarnas- An Annual on the Visual Culture of the Islamic World, 13, Brill, pp. 45–67.

(١٣) كينيث كونو، فلاحو الباشا ... الأرض والمجتمع والاقتصاد في الوجه البحرى ١٧٤٠-١٨٥٨، ترجمة: سحر توفيق، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٠، ص ص. ١٩١ – ٢١١.

في وقت لاحق، خلال ١٨٢٩-١٨٣٠، وتحت وطأة الأزمات الاقتصادية اضطر محمد علي لمنح مساحات كبيرة من الأراضي غير المزروعة إلى مسؤولين رفيعي المستوى في الدولة، مما أنتج ظاهرة كبار ملاك الأراضي. كذلك أعفاهم من الضرائب على شرط أنّ يزرع المستفيد هذه الأراضي ويزيد الإنتاج الزراعيّ في سبيل مصلحة الدولة.

إن خطوات إقرار الملكية الفردية تمت عبر المراحل التالية[١٤]:

١- عام ١٨٣٨: أعطى محمد علي للمنعم عليهم بأطيان "الرزقة بلا مال" حق توريثها لأولادهم وأحفادهم، فإن انقرض نسلهم انتقل التصرف فيها إلى ذريتهم من بعدهم، فإذا انقرض نسلهم ألحقت الأطيان بأوقاف الحرمين الشريفين.

عام ١٨٤٠: تم العمل بنظام العُهدَة، وهي امتياز يمنح لشخص يتعهد فيه بدفع الضرائب الجارية والمتأخرة على القرى المعسرة، نظير أن يعطي المتعهد جزءا من أرض القرية يزرعها لحسابه على أن يعمل فيها الفلاحون كعمال يومية، أو نظير جزء من المحصول. إن قطعة الأرض الممنوحة للمتعهد كانت معفاة من الضرائب. وكان المتعهد مطالبا بزراعة كل أراضي القرية التي لا يستطيع المزارعون زراعتها حتى تتحسن حالتهم ويمكنهم زراعتها فترد إليهم. وقد بلغت مساحة اَلْعُهْدَة عام ١٨٤٤ نحو ١٢٠٥٥٥٩ فدان من بينها ٢٩٣ ألف فدان اختص بها محمد علي وأفراد أسرته، بينما حصل الضباط الأتراك وكبار الموظفين ورجال الحاشية على ٩١٢٥٥٩ فدان. لذلك فإن العُهَد تُعَد أحد مصادر المِلكيات الكبيرة للأراضي الزراعية عند إقرار حق المِلكية العقارية، وقد أسهمت كل هذه العوامل في ظهور ملكية خاصة للأراضي والعقارات الكبيرة في مصر.

٣- عام ١٨٤٢: أصدر محمد علي قانونا يبيح لأصحاب "الأبعاديات والجفالك"[١٥] بيعها، أو رهنها، أو التنازل عنها. أي يتصرف فيما في حوزته من "رزقة بلا مال" بكل الوسائل القانونية الناقلة للملكية. وجاء في النص أن الأرض أصبحت "تمليكا شرعيا رزقة بلا مال إلى ما شاء الله تعالى."

٤- عام ١٨٤٧: أصدر محمد علي أول تشريع ينظم حيازة الأطيان الزراعية وهو ما يعرف باسم "لائحة الأطيان الأولى". وفيها أجاز محمد علي لحائزي الأطيان الأثرية "صغار الفلاحين" حق رهن الأرض، وتأجيرها للغير، وحظرت اللائحة اغتصاب أطيان الغير، وانتزاع الأطيان من حائزها إلا للمنفعة العامة كشق الترع وإقامة الجسور على النيل، مع عدم دفع تعويض لحائزها. واستلزم تأكيد الحق في الأرض الأثرية شهادة شيخ البلد، وحضور شهود من القرية.

بعد أخذ الأراضي المزروعة تحت سيطرته المباشرة، بدأ محمد علي في إيلاء اهتمامه لأعمال الري. وفي هذا الصدد، أصدر أوامر بإصلاح جدران حوض النيل، وعدم إزالة القنوات، لأن الزراعة في مصر تعتمد على نظام الحوض إلى حد كبير، فخلال الفترة التي فاض فيها النيل عالياً في

(١٤) محمد مدحت مصطفى، تطور حيازة الأراضي في مصر، القاهرة: مركز الدراسات والابحاث العلمانية في العالم العربي، ٢٠١٧.
https://www.ssrcaw.org/ar/show.art.asp?t=2&aid=555637

(١٥) الأبعاديات والجفالك هي أراضٍ تمتد لآلاف الأفدنة أنعم بها محمد على مؤسس الأسرة الخديوية على أفراد أسرته وأعوانه وحاشيته وكبار الأعيان بعد احتكاره ملكية أطيان مصر.. والجفالك أراض أوسع من الأبعاديات وكلاهما معفاة من الضرائب.
المصدر نفسه.
https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=555637

أغسطس وظل تحت الفيضانات لمدة ستة أشهر قادمة وخلال الفترة من أواخر تشرين الأول أو تشرين الثاني زرعت الأراضي مع المحصول، والمعروفة باسم المحاصيل الشتوية، التي شملت في الغالب القمح والشعير والفاصوليا والبارسيم أو البرسيم والعدس والحلبة. ومع ذلك، بعد فصل الشتاء هذه الأرض القذرة كانت تنتج محصولاً واحداً في السنة وهذا المحصول الذي كان يزرع لم يكن ليسد حاجة من حاجات السوق الاستهلاكية.

في الوقت الذي كان فيه النيل منخفضًا، وعندما كانت الأرض مستلقية، وبما أنه لم يكن هناك ماء، يمكن غمره للمحاصيل الصيفية لذلك لم يكن من الممكن زراعة المحاصيل شبه الاستوائية التي كان مناخ الصيف المصري مناسبًا لها. وبالنظر إلى هذا، كان محمد علي على علم بالتطورات الصناعية في أوروبا، واستكشف الري الواسع النطاق، وكان هذا يعرف باسم "الري الصيفي"، الذي شمل الأرز، قصب السكر، والقطن. وهناك نوع آخر من المحاصيل التي كانت تزرع خلال فترة ارتفاع النيل التي تحتاج أيضا إلى الري من قبل بعض المصادر.

بسبب نقص المياه في الصيف نفذت الحكومة بعض مشاريع الري للمزروعات التي لديها محصول جيد. في هذا الموسم الحار اتخذت الحكومة خطوتين رئيسيتين هما بناء السدود وحفر القنوات المائية. وكانت هذه السدود تحفر قنوات عميقة بحيث تتدفق المياه إلى النيل المنخفض لرفع مستوى المياه فيه. وهكذا، فإن الأشغال العامة الرئيسية هناك نفذتها الحكومة.

بهذه الطريقة بنيت مجموعة من القنوات المائية التي تشق في الأرض الزراعية بهدف نقل المياه من النهر إلى الحقول، وهذا النقل لا يتم بطريقة مباشرة وإنما يأخذ شكل التدرج الهرمي، بحيث تتخذ نمطاً شجرياً متشابكاً يتشابه مع الشبكات النهرية، ولكن بشكل عكسي، حيث نجد أن المياه تنتقل من الترع الرئيسية الكبرى إلى الترع الفرعية الصغيرة حتى تصل في النهاية إلى النباتات في الحقول. ومن أشهر تلك القنوات "ترعة المحمودية"[١٦]. ولقد تم بناء ٣٢ ترعة أخرى عليها عشرات السدود، والتي كان معظمها تقليدياً بعمق ستة أمتار وعلو مترين. وعلاوة على ذلك، تم بناء واحد وأربعون من السدود والقنوات لأغراض الري في البلاد، لدرجة أن بلغ طولها الإجمالي ١،١٣٥،٧٧٥ متراً، وتحتفظ بـ ١١٦،٠٥٠،٨٤٣ متراً مكعباً من المياه[١٧].

زادت إمكانيات زراعة القطن في مصر بسبب اختراع الغزل الميكانيكي والنسيج، حيث إن المناخ المصري مناسب لهذا النوع من الزرع، كما أن نقل المحصول إلى المرافئ البحرية المصرية على البحر المتوسط رخيص وسهل، وبهذا تكون الأسواق الأوروبية قريبة[١٨].

---

(١٦) ترعة المَحمودية هي ممر مائي فرعي من نهر النيل يخترق مدينة الإسكندرية، وينتهي في البحر الأبيض المتوسط. في الثامن من أيار عام ١٨٠٧ أمر محمد علي بحفر ترعة المحمودية لتبدأ من النيل قرب قرية بهبيت وقتها لتصل مياه النيل للإسكندرية عبر البحيرة. ولتكون مَمَرًّا مَائِيًّا للمراكب التجارية بين الإسكندرية ونهر النيل. وكان محمد علي قد أمر كشافين البحيرة بجمع الأنفار، وتجهيز العمال، والبنائين، والحدادين، والمساحين، والفؤوس، والغلقان، والمقاطف، والعراجين، والسلب. وكانوا يسيرون مع كاشف لكل منطقة بالطبل والزمور. وكان كل إقليم تمر به الترعة له حصة من الأقصاب ليحفرها، فإذا انتهى من الحفر يساعد الإقليم المجاور.

Stanley, D. J., & Warne, A. G. (1998. Nile Delta in Its Destruction Phase. Journal of Coastal Research, 14(3, 795–825. http://www.jstor.org/stable/4298835

(17)Afaf Lutfi al- Sayyid Marsot, Egypt in the reign of Muhammad Ali, Cambridge: Cambridge University Press,1984, pp. 149150-.

(١٨) ناهد السيد علي زيان، الجالية البريطانية في مصر، ١٨٠٥-١٨٨٢، القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١١، ص. ٤٧.

لقد اختارت الحكومة منطقة الدلتا لزراعة القطن. ولهذا الغرض، تم بناء قنوات عميقة، واستخدمت مضخات البخار لتوفير المياه من هذه القنوات إلى حقول الزراعة. لذلك، في عام ١٨٣٤، بدأ بناء قناطر الدلتا عند تفرع قناتي رشيد ودمياط التي كانت تبعد حوالي اثني عشر ميلاً شمال القاهرة، ولكن في وقت لاحق، وبسبب بعض المشاكل والصعوبات، تم التخلي عن هذا العمل من قبل الحكومة[١٩].

بدأ إنتاج القطن الطويل التيلة[٢٠]، والذي يتميز بالنعومة التي تؤهله للاستخدام في صناعة المنسوجات العالية الجودة في مصر على نطاق واسع في العام ١٨٢١، وكان سعره يتراوح بين ضعفين وأربعة أضعاف سعر القطن العادي، وبإشراف أوروبي، والهدف الأكيد كان التصدير للأسواق الأوروبية.

خلال الفترة بين ١٨٢١ إلى ١٨٢٢ تم جلب الخبراء الأجانب لتحسين الإنتاج المحلي، فشجع محمد علي برنامجاً واسع النطاق للأشغال العامة لتوفير المياه الضرورية للمزارع من أجل تهيئة نظام سليم للري، وتم توفير العمال لهذا الغرض وَفْقًا لنظام "السخرة"[٢١]. مع أنه في البداية، حث محمد علي الفلاحين على رفع المحصول من خلال تقديم أسعار مرتفعة وتوريد رأس المال العامل، مثل ١٧٥ قرشاً للقنطار، لكنه انخفض إلى ١٠٠-١٥٠ قرشًا لكل قنطار في عام ١٨٢٦. مما نتج عن هذا الانخفاض في الأسعار توتر متصاعد بين الفلاحين والحكومة. حتى أنه في بعض المناطق قام الفلاحون بإزالة بذور القطن التي زرعوها بحجة أن التربة غير صالحة لزراعة القطن، فاضطرت السلطة المركزية إلى أن ترسل قوات عسكرية نظامية لمراقبة عمل الفلاحين في عام ١٨٣٤. وقد تبين لهؤلاء المراقبين أن الخمول الحاصل في زراعة القطن أو حتى إزالة ما تم زرعه فيعود لسببين:

أولاً: حتى عام ١٨٣٦ لم تدفع الحكومة لهم الأموال نقدا، ولكن بدلا من ذلك قامت بتقديم الإعفاءات الضريبية.

ثانيا: بسبب مشاكل العمل والإجحاف الواقع على العمال، فقد كانت زراعة القطن في حاجة إلى المزيد من القوى العاملة، في وقت كانت نسبة البالغين الذكور في القرى والأرياف تتراجع بسبب التجنيد الإلزامي، وعمليات التهرب والهروب منه، إضافة إلى نظام السخرة المفروض بالطبع[٢٢].

من هنا تم وضع قواعد صارمة بشأن كيفية إنتاج القطن، استندت إلى مشورة الخبراء الأجانب،

(19) Marlowe, op. cit., p .53

(20) Porcher, Richard D.; Fick, Sarah, The Story of Sea Island Cotton, Charleston, South Carolina: Wyrick & Company, 2005, pp. 82–83.

(٢١) السخرة هو شكل من أشكال العمل الإجباري غير مدفوع الأجر وغير تطوعي تفرضه الدولة، وهو متقطع بطبيعته ويستمر لفترات زمنية محدودة، ولقد طبق في الديار المصرية بصرامة، بخاصة في عمليات حفر قناة السويس.
Karabell, Zachary (2003. Parting the Desert, the creation of the Suez Canal. Alfred Knopf. pp. 113, 169–180.

(22) Issawi, op. cit., p. 22

ومـن ثـم صـدر قانـون "لائحـة زراعـة الفـلاح"[٢٣]، ووفقـاً لهـا كانـت السـلطة المركزيـة في القاهرة ترسـل التعليـمات مبـاشرة لمختلـف المسـؤولين الحكوميـين المتوسـطين، الذيـن يُطلـق عليهـم اسـم "مأمـور"، وهـم يقومـون بتمريرهـا إلى الناظـر وشـيخ القريـة (العمـدة، حيـث كان شـيوخ القـرى المشرفـين المباشريـن على عمالـة الفلاحـين. وكان مـن الواجـب عـلى هـؤلاء الشـيوخ زيـارة الحقـول يوميـاً، بحيـث يمكـن التفتيـش المبـاشر عـلى العـمال والفلاحـين، ومراقبـة أي تأخـير أو إهـمال في العمـل.

لقـد تدخلـت الحكومـة في تفاصيـل عمـل الفلاحـين لدرجـة أنهـم اضطـروا إلى الزراعـة وفقـاً لـ "أمـر" الحكومـة، التـي أمرتهـم متـى وكيـف ومـاذا يزرعـون. كـما تعرضـت محاصيـل هـذه الزراعـات للضغـط مـن قبـل السـلطات لتسـليم المحصـول بالأسـعار التـي حددتهـا الحكومـة. كـما كان عـلى الفلاحـين دفـع رسـوم نقـل منتجاتهـم إلى المخـازن الحكوميـة، حيـث تحـاك الخزعبـلات للتقليـل مـن قيمـة وجـودة الإنتـاج.

كان نظـام السـخرة يفـرض عـلى الفلاحـين العمـل بعيـداً عـن ديارهـم وأهلهـم، بـل وكان يفـرض عليهـم تأمـين مأكلهـم ومشربهـم بأنفسـهم، فانتـشرت روح التمـرد التـي أدت في كثـير مـن الأحيـان إلى الهـروب والفـرار، إلا أن السـمة الأساسـية كانـت التكاسـل والخمـول[٢٤]، الـذي تحـول إلى سـمة ملازمـة للفلاحـين المجبريـن في ممارسـاتهم الأساسـية واليوميـة.

عـلى صعيـد آخـر خطـط محمـد عـلي لبنـاء صناعـة حديثـة، وعمـل لهـا حثيثـاً، وإن لم تصـل إلى مسـتوى طموحـه. فقـد تـم اتخـاذ عـدة تدابـير في تحديـث الصناعـة، التـي شـملت الآلات الصناعيـة الزراعيـة أيضـاً. وبحلـول عـام ١٨٣٠ طبقـت المكننـة في الإنتـاج الزراعـي، فتضاعـف إنتـاج القطـن، وجودة الصـوف، والحريـر، والمنسـوجات الكتـان السـكر، والـورق، والزجـاج، والجلـود، إضافـة إلى حامـض الكبريـت وغيرهـا مـن المـواد الكيميائيـة.

إلى جانـب هـذه المصانـع الحكوميـة، تـم إنتـاج الترسـانات والآلات وقطـع الغيـار البسـيطة في هـذه الصناعـات حيـث اشـتغل حـوالي ٣٠,٠٠٠ عامـل، ولهـذا الغـرض تـم إرسـال أكـثر مـن ٣٠٠ طالـب إلى أوروبـا لتعلـم مختلـف مراحـل التصنيـع وصيانتـه.

بالإضافـة إلى الزراعـة والصناعـة كانـت التجـارة تحـت الاحتـكار الحكومـي. فمـن خـلال السـيطرة المبـاشرة عـلى التجـارة الداخليـة، تـم شراء المحاصيـل مـن قبـل محمـد عـلي مـن المزارعـين بأسـعار ثابتـة ومنخفضـة، ومـن ثـم إعـادة بيعهـا إلى البلـدان الأجنبيـة بأربـاح كبـيرة. ولتعزيـز هـذه التجـارة الدوليـة، تـم تطويـر مدينـة الإسـكندرية وجعلهـا مركـزا للتجـارة المتوسـطية. وقـد ركـز إنشـاء قنـاة المحموديـة على الاسـتيراد والتصديـر مـن مرفـأ الإسـكندرية، مهمـلاً بذلـك منطقـة دميـاط ذات الأهميـة الاسـتراتيجية والتاريخيـة. فيـما ربطـت القنـوات النهريـة السـوق المحليـة بـين القاهـرة والقـرى الأخـرى، وبـين مـصر العليـا والدلتـا.

(٢٣) عـماد أحمـد هـلال. (Accessed March ١٠, ٢٠١٨. الروزنامـة: الحوليـة المصريـة للوثائـق. https://ruznama.journals.ekb.eg/article_٩٤٧٦_٩pdf.٦f٣٤ee٢٣e٢٦c٧dd٨٣f٥c٢٥afbe٤dac١٦

(24)Alan Richards, Egypt's Agricultural Development 18001980– Technical and Social Change, California: Avalon Publishing, 1982, p .22.

في ذلك الزمن، كان سكان الإسكندرية يتألفون بمعظمهم من الأجانب، حيث كانت الأغلبية من اليونانيين والإيطاليين الذين استقروا بسبب صلاتهم بالتجارة الخارجية للميناء. وفي نهاية عهد محمد علي كان حوالي ٦٠٠٠ من المقيمين الدائمين في الإسكندرية من الأجانب. وتجدر الإشارة إلى أن مواطني المدن معفيين من الضرائب المباشرة[٢٥]، ولكن خلال عهد محمد علي، توترت العلاقات مع بعض البريطانيين[٢٦]، فقام بفرض ضريبة رأس على سكان المدينة[٢٧].

الإصلاحات الاقتصادية ومحاولة تحديث الصناعات المصرية

خلال هذه الإصلاحات أراد محمد علي تطوير البلاد في جميع مناحي الحياة بما في ذلك الصناعة والتجارة. وبفضل جهوده، أصبحت تجارة البلاد دولية، حيث قام من ناحية بتصدير المنتجات المصرية بما في ذلك المنتجات الزراعية إلى مختلف البلدان، ومن ناحية أخرى، قام باستيراد أشياء مختلفة إلى البلاد.

كان للسياسات الاقتصادية التي أدخلها محمد علي بعض الآثار السلبية، رغم أن هدف الإصلاحات وضع أسس اقتصاد متوازن ومتنوع من شأنه أن يرفع من مستوى المعيشة لعامة الشعب المصري، لمصلحة الدولة المركزية. في الواقع أدت هذه الإصلاحات إلى تعطيل الحياة الريفية والحضرية، مع تقلص الشريحة المتوسطة من المجتمع، والانهيار في الطبقات الدنيا. بالمقابل استفادت الطبقة الاجتماعية والاقتصادية العليا من هذه السياسات والتغييرات، وظهرت نخبة قليلة العدد، ذات مزايا إداريّة عسكريّة، وتحالف كبار التجار المسيطرين على حركة الاستيراد والتصدير مع الأسواق الأوروبية. ومعظمهم تمكنوا من أن يجمعوا الثروة المالية، ويرفعوا من مكانتهم الاجتماعية، مقابل خدماتهم للباشا.

كان محمد علي يصب اهتمامه الكلي على بناء جيش قوي وبحرية حديثة لحماية موقعه وبسط نفوذه، ولكن هزيمته في عام ١٨٤١ على يد القوى الغربية[٢٨]، وما رافق ذلك من تخفيض إجباري للعديد وأسلحة قواته المسلحة، أزالت معظم حوافز التصنيع والتطوير لديه.

بدأ إنتاج المصانع المصرية في الانخفاض والتراجع بسبب منافسة الصناعة الأوروبية. لقد فشلت سياسات محمد علي الاقتصادية وتدهور حال الاقتصاد المحلي. فالتنمية الاقتصادية تتطلب أطراً حمائية واسعة في شكل إعفاءات ضريبية، وحماية جمركية، ومعدلات تصدير متصاعدة، وقوة

(25) Issawi, op. cit., p. 23.

(٢٦) زيان، مرجع سابق، ص. ٤٧.

(27) Marlow, op. cit., p. 56.

(28) "Remembering" Egypt's Ottoman Past: Ottoman Consciousness in Egypt, 18411914–. (n.10, 2018. OhioLINK Electronic Theses & Dissertations (ETD Center. https://etd.ohiolink.edu/apexprod/rws_etd/send_file/send?accession=osu1595487290477278&disposition=inline

عمل مدربة، وتسهيلات ائتمانية خاصة لقطاعات معينة، وسياسات تعليمية.

من الأمثلة الصارخة، أن أيالة مصر خضعت للتعرفة الجمركية التي تم إقرارها بموجب الاتفاقيات المبرمة بين الحكومة العثمانية والقوى الأوروبية الكبرى في ذلك الوقت، ولم تكن القاهرة قادرة على فرض ضريبة محلية مباشرة على الأجانب دون موافقة حكومتهم[٢٩]. كما مكنت "الاتفاقية الأنغلو-تركية The ١٨٣٨ [٣٠]Anglo-Turkish Convention" لعام ١٨٣٨ التجار الأجانب من توسيع نطاق تجارتهم في أي مكان داخل مناطق السيطرة العثمانية، بما في ذلك مصر[٣١].

لقد أثرت أزمة النقد الدولية عام [٣٢]١٨٣٧على أسعار القطن، وجففت مصادر تمويل الباشا، بخاصة من مرفأ الإسكندرية، وأدت إلى الزيادة في الضرائب المجحفة، وإدخال قوانين تشجع الاحتكار، فاندلع عدد من الثورات المتفرقة.

بسبب هذه الأزمة الاقتصادية كان على محمد علي باشا أن يعود إلى سياسته الأولية للإدارة المباشرة. ولذلك بداية من عام ١٨٣٨ بدأ تطبيق "نظام العهدة"، عندما ألزم محمد علي كبار الملاك لسداد متأخرات الضرائب، إذ كان من يدفع متأخرات ضرائب القرى يحصل على كامل زمام القرية، ويتولى زراعتها حتى يستوفي فلاحي القرية ما سدّ عنهم من متأخرات، وعندما مرت السنوات من دون أن ينجح الفلاحون في استعادة أراضيهم، صدر القرار الخاص بتحول تلك "العهدة" إلى ملكية خاصة "للمتعهدين".

كان نظام "العهدة" هو الثغرة التي نفذ منها التجار إلى الاستثمار الزراعي، فتقدم بعضهم بطلب الحصول على "العهد" كذلك فعل بعض أثرياء العمد والمشايخ، فتحولت تلك القرى إلى ملك خاص لهم ولعائلاتهم، وكون هؤلاء شريحة "الأعيان" في طبقة كبار الملاك. وكان على هؤلاء الأعيان أن يضمنوا المبالغ المستحقة للخزينة مقابل الحق في الزراعة مع العمالة الزهيدة من أجل تحقيق أرباحهم الخاصة. وكانت هذه بمثابة عودة إلى الممارسة القديمة، وكأنها نسخة جديدة من الإقطاع المُقنَع الذي كان الباشا قد قضى عليه خلال فترة من عام [٣٣]١٨١٠.

كان الهيكل الإصلاحي الذي أدخله محمد علي في المجال الاقتصادي يعرف باسم "رأسمالية الدولة". في هذا النظام كان محمد علي يسيطر على المال في حين كانت مسؤولية العمل على المصريين والأجانب الذين تم تعيينهم من قبل حكومة محمد علي. إن التنمية الاقتصادية التي

(29)Charles Issawi, op. cit., p. 24.

(30) Owen, R. (1992. The 1838 Anglo-Turkish convention: An overview. New Perspectives on Turkey, 7, 714-. https://doi.org/10.15184/s0896634600000467

(31)Bosworth-CE and others, The Encyclopedia of Islam, Leiden: University of Leiden, 1993, p. 430.

(٣٢) ذعر العام ١٨٣٧ (Panic of ١٨٣٧ هو أزمة مالية في الولايات المتحدة أحدثت ركودا كبيرا استمر حتى منتصف عقد ١٨٤٠. وانخفضت الأرباح والأسعار والأجور في حين ارتفعت البطالة. وتعود جذور هذه الأزمة لمصادر محلية وأجنبية. ومن بين الأسباب مضاربات القروض في الولايات الغربية، والانخفاض الحاد في أسعار القطن، وانهيار فقاعة أسعار الأراضي، وفيضان العملات الدولية، وسياسات الإقراض التقييدية في بريطانيا العظمى.

Lepler, Jessica M. (23 September 2013. The Many Panics of 1837: People, Politics, and the Creation of a Transatlantic Financial .Crisis

(33)Bosworth-CE, op, cit., p. 428.

تحققت خلال حكم محمد علي في مصر، مثل نمو الصادرات والقطن والأرز والمحاصيل والصناعات والتجارة وغيرها، جعلت من الممكن توظيف شريحة واسعة من خيرة الخبراء الأجانب، بما في ذلك الفرنسيين، والإنجليز، وغيرهم من الأوروبيين[٣٤]. وفيما يتعلق بهؤلاء المتعاقدون الأجانب، فمن العلامات المميزة لتلك الفترة، بأنه على الرغم من أنه كان عليه أن يعتمد على القوى الأجنبية في مختلف الحالات، إلا أنه كان من الناحية الاقتصادية خالياً من التبعية الأجنبية وأنه تعامل مع الغرب باستقلالية تامة[٣٥].

نظام الاحتكار تطور خلال الفترة من ١٨١٦ إلى ١٨٢٠ حيث كان على الفلاحين والحرفيين أن يعملوا تحت إشراف المسؤولين الحكوميين، بينما تمتلك الحكومة الحق في شراء وبيع أي شيء كمحاصيل أنتجتها البلاد. وإلى جانب المنتجات الزراعية، احتكرت الحكومة أيضاً إنتاج وشراء الغزل والقماش والكيرشيف والملح والصابون والصودا والسكر وغيرها من السلع. وكانت الدولة المورد الوحيد للسلع المصرية في السوق المحلية، والمصدر الوحيد لتجار التجزئة في المدن، وبذلك تحولت إلى وكلاء السلطة المركزية للاحتكار التجاري"[٣٦].

إصلاح التعليم وتحديثه

لقد اقتدى محمد علي بالدول الأوروبية كنموذج لنظام التعليم لبلاده، وسعى لتطوير النظام التعليمي على نمطها المتطور. ولغرض تحديث التعليم في البلاد كان يحتاج إلى توظيف العديد من الخبراء والفنيين الأجانب، وفي الوقت نفسه أنشأ مدارس حكومية حديثة في مختلف أصقاع القطر، كما أوفد طلاب مصريين في بعثات تعليمية إلى أوروبا، حتى يتمكنوا من تلقي التعليم العالي وتعلم المهارات المطلوبة لإدارة مختلف مرافق الدولة الحيوية.

في المرحلة الأولى كانت سياسة محمد علي التعليمية تستهدف إعداد مجموعة من الخبراء لديهم القدرة على أداء مهام تخدم عملية تطوير القوات المسلحة. ومن هنا كان الإصرار على الإشراف الحكومي الكامل على اختيار الطلاب للمدارس المختصة التي سينتسبون إليها كطلاب، وفي نفس الوقت، كجنود تحت إشراف عسكري. مع جهوده، "فالتعليم لخدمة العسكر" جلب الإصلاحات التعليمية لتعزيز الجيش المصري، وذلك بمساعدة الخبراء الأجانب والمبتعثين الوطنيين.

بما أن إيطاليا كانت تتمتع بعلاقات تجارية قوية مع مصر منذ العصور الوسطى كانت اللغة الإيطالية أول لغة أجنبية متداولة في نطاق المرافئ المصرية. وفي هذا الصدد، لاحظ يعقوب

(34) PANZA, L., & WILLIAMSON, J. G. (2015. Did Muhammad Ali foster industrialization in early nineteenth-century Egypt? The Economic History Review, 68(1, 79–100. http://www.jstor.org/stable/43910011

(35) Marlowe, op. cit., p. 57.

(36)Vladimir Lutsky, Modern History of the Arab Countries, Moscow: USSR Academy of Sciences, 1996, p. 58.

باشا أن اللغة الإيطالية كانت الأكثر استخداماً كلغة أجنبية في مصر حتى عام ١٨٢٠. وبذلك أصبحت أول لغة أجنبية تدرس لطلاب الضباط في "مدرسة القلعة العسكرية"[٣٧]وتم إرسال أول الطلاب المصريين إلى المدن الإيطالية مثل ليفورنو وميلانو وفلورنسا وروما[٣٨]، كانت مهمتهم هي تعلم الطباعة وبناء السفن. وبعودتهم تم إنشاء مطبعة الدولة في عام ١٨٢٢ التي بدأت العمل في بولاق[٣٩]. وفي العام نفسه، طُبع أول كتاب في هذه المطبعة ونُشر، وتم إعداد أول معجم عربي – إيطالي[٤٠]بواسطة القس السوري أنطون زخور رافائيل (١٧٥٩-[٤١]١٨٣١.

كان لإنشاء المطبعة، لنشر المراسيم والأوامر والأنظمة الحكومية، دور هام في إقامة اتصال منتظم بين السلطة المركزية والمحافظات وجعل الإدارة أكثر فعالية. وقد تركز اهتمام محمد علي على إنشاء صحافة حكومية لإصدار نصوص القوانين واللوائح والأوامر في جميع أنحاء البلاد وتوزيعها على نطاق واسع. ولذا استورد من إيطاليا المواد المطلوبة للمطبعة، وشملت الحروف العربية والإيطالية واليونانية. ولم يستغرق الأمر الكثير من الوقت حتى أصبحت مصر قادرة على تصنيع الحبر والورق.

عام ١٨٢٠ أنشأت أول مطبعة في عهد محمد علي، أطلق عليها عدة أسماء من بينها دار الطباعة، ومطبعة صاحب السعادة، والمطبعة الأميرية، إلا أن اسمها الرسمي التاريخي الذي عرفت به هو مطبعة بولاق. وحرص محمد علي على مد المطبعة منذ نشأتها بأحدث آلات وحروف الطباعة التي استوردت في أول الأمر من ميلان بإيطاليا، وافتتحت مطبعة بولاق رسمياً في عهد محمد علي عام ١٨٢١ وكانت تطبع الكتب العسكرية للجيش، ثم تطورت بعد ذلك لتطبع الكتب الأدبية والعلمية والمدرسية. ولحاجة الصحافة ومصانع الورق والحبر لفنيين تم توظيفهم في البداية من بين السوريين والأرمن والإيطاليين، ثم عمد إلى استعمال الفنيين المحليين المصريين. وأنشئت فيما بعد، مطابع أخرى في مدرسة طرّة للمدفعية، وفي كلية الطب في أبو زبال، وفي مدرسة الفرسان في الجيزة، والثالثة القلعة. تدريجيا، تم إنشاء مطابع أصغر في المدارس العسكرية وغيرها من الإدارات الحكومية.

أما الصحافة فكان انطلاقها في عام ١٨٢٧ عبر "جرنال الخديوي"، وقد كان محمد علي في الواقع يهدف إلى إصدار نشرة خاصة ليطلع على شؤون البلاد وماليتها، ولكنه لم يلبث أن لمس حاجة الشعب للاطلاع على أعمال الحكومة، فأمر بتوسيع نطاقها، وكانت تُوزّع على من يسدد

(٣٧) مدرسة القلعة هي أول مدرسة حربية في التاريخ المصري الحديث، واستقدم محمد علي باشا المعلمين والمدربين من فرنسا، وكان طلاب هذه المدرسة من أقارب محمد علي باشا وأبناء الموظفين بالمدرسة والمماليك، وتراوح مجموع هؤلاء الطلاب حوالي ٤٠٠ طالب، وكانوا يقومون بأداء تدريباتهم على فنون القتال والفروسية في ميدان الرميلة، والذي يُطلق عليه حالياً ميدان القلعة نظراً إلى اتساع مساحته. الرافعي، عبد الرحمن، عصر محمد علي، القاهرة، مصر: دار المعارف، ٢٠٠٩.

(38) Gibb, S. H., The encyclopedia of Islam, London: Brill Archive,1954, p. 907.

(39) Ali Bakr Hassan ★ Samuel Adu-Gyamfi (Reviewing editor (2021 The Government of Egypt's Press (Matba`at Bûlâq: A Historical Analysis of Two Hundred Years of Performance, Cogent Arts & Humanities, 8:1, DOI: 10.108023311983.2021.1891683/

(40) G. B. Brocchi, Giornale delle osservazioni fatte nè viaggi in Egitto, nella Siria e nella Nubia da G. B. Brocchi, 6 voll., A. Roberti tip. ed editore, Bassano 18411843-, p. 159.

(41) Julie Scott Meisami; Paul Starkey, eds. (1998. "Zakhur, Pere Rufa'il". Encyclopedia of Arabic Literature, Volume 2. Taylor & Francis. p. 820.

الاشتراك من موظفي الحكومة. وكانت هذه الجريدة تطبع باللغتين التركيّة والعربية في مطبعة القلعة. وقد اكتفت هذه المجلة بالأخبار التي تغطي مراسيم الحاكم وقراراته كتقرير يومي يصدر عن مكتب الباشا. وإلى جانب ذلك، نُشرت الجريدة الرسمية وهي "الوقائع المصرية[٤٢]". وكانت هذه تقريرا أكثر تفصيلاً للأحداث والقرارات واللوائح في جميع أنحاء البلاد، وتم نشر الجريدة باللغتين التركية والعربية أيضا، واقتصرت المنشورات في البداية على ثلاث مرات في الاسبوع. وتلا ذلك ظهور "الجريدة العسكرية" عام ١٨٣٣.

كما ظهرت مجلة أخرى هي "لو مونيتور المصري"[٤٣] باللغة الفرنسية في نفس العام ١٨٣٣ في مطبعة رأس التين في الإسكندرية. تأسست هذه المجلة من قبل أفراد الجالية الأجنبية المقيمين في الإسكندرية بدعم واضح من محمد علي، الذي تحمس للفكرة لتكون الجريدة بمثابة منبر للدفاع عن سياساته للقراء الأجانب.

كان إنشاء المدارس والكليات أحد الإنجازات المهمة التي حققها نظام محمد علي التعليمي في مصر هو نهضة هيكلية التدريس، حيث إن التلقين كان يعتمد على المساجد و"الكتاتيب"[٤٤]. وهذه شبه المدارس كانت المكان الذي كان يدرس فيه الصبية الصغار. فهناك تعلموا القراءة والكتابة، وذلك من خلال حفظ وفهم القرآن الكريم. والجدير بالذكر أن هذه المدارس "الكتّاب" لم تكن مدارس رسمية حيث يتم قبول الطلاب في سن محددة، بل كانت المكان الذي يستقبل فيه الفتيان في أي عمر وبطريقة غير منتظمة، وكانت تنتهي فترة التحاق الطلاب بالكتاب عند حفظ القرآن الكريم.

كان "الجامع الأزهر" مركزاً دينياً وثقافياً مرجعياً في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وقد تم تمويل هذا الهيكل التعليمي من قبل المسلمين الأثرياء عبر أداء فريضة "الزكاة"، وكان الدخل يأتي من الأوقاف الدينية، حيث كانت هذه البنية التربويّة تحت سيطرة علماء الدين المسلمين وليس السلطات الرسمية، وقد قصدها الطلاب إلى هناك من جميع القادمين من العالم الإسلامي. ولم يكن تنظيمها ودراساتها تستند إلى النمط الحديث، بل طرق التحفيظ التاريخية التقليدية. وعلى الرغم من أنها أنتجت فقهاء شريعة، إلا أنها لم تستطع قط إنتاج رجال دولة وإداريين، وعلاوة على ذلك، فإن التعليم المقدم في الأزهر لا علاقة له بالتعليم الغربي[٤٥].

(٤٢) الوقائع المصرية سابقا معروفة باسم وقايع مصريه للغة التركية العثمانية هي صحيفة مصرية أسست عام ١٨٢٨ بأمر من محمد علي باشا في القاهرة. صدر أول عدد منها في ٣ ديسمبر من عام ١٨٢٨م وكانت توزع على موظفي الدولة وضباط الجيش وطلاب البعثات. وهي أول صحيفة عربية في الشرق الأوسط، وألحقت فيما بعد بالجريدة الرسمية.

(43) "Le Moniteur Egyptian"

Wendell, C., The evolution of the Egyptian national image: From its origins to Ahmad Lutfi Al-Sayyid. University of California Press 1972, p. 146.

(٤٤) الكتاتيب هي الأمكنة التي يتعلم فيها الأطفال القرآن الكريم ومبادئ التربية الإسلامية. والكتّاب بناء بسيط لا يتعدى، في معظم الأحيان، حجرة واحدة متسعة ملحقة بمسجد ليستفاد من مرافقه وتجهيزاته، تفرش أرضيتها بحصير يجلس فوقه المعلم ويتحلق حوله المتعلمون، ويستخدم فيه من الأدوات لوح خشبي صغير وأداة للكتابة مما توفره البيئة، ويقوم المتعلم بكتابة الدرس على اللوح، ثم يمحوه بعد أن يتأكد من حفظه ليكتب مكانه درساً جديداً.

Esposito, John L., ed.,"Education: Educational Institutions", The Oxford Dictionary of Islam. Oxford University Press, 2003.

(45) Amira el-Azhary Sonobol, The Creation of a Medical Profession in Egypt 18001922-, Skytop: Syracuse University Press, 1991, pp. 2425-.

وعندما تسلم محمد علي السلطة في مصر، جعل المرافق التعليمية تحت الإشراف المباشر للحكومة. وأدخل إصلاحات تعليمية لتحسين نوعيتها. وقد تم طرح إطارين من التعليم، أحدهما كتلمذة "الكتاتيب" الدينية، وكذلك المدارس الرسمية الحكومية. بقيت الكتّاب في أيدي الشيوخ واستمرت في توفير التعليم الأساسي لشباب مصر. ولكن جنبا إلى جنب تم بناء نظام تعليمي جديد من أعلى إلى أسفل. وقد بدأ النظام التعليمي الجديد الموجه بالمدارس التقنية المتقدمة وانتهى بالمدارس الابتدائية[٤٦].

كان من الضروري تخريج طلاب متخصصين يمكنهم بعد ذلك أن يصبحوا معلمين لمن هم في المرحلة الابتدائية. فالطلاب الذين يدرسون في الكتّاب لم يكن لديهم سوى معرفة غير كافية بالمدارس المتخصصة أو بالاحتياجات المختلفة لدولة حديثة، ولهذا تم البدء في إعداد صف جديد من المدارس الإعدادية، ملحقاً بالمدارس المتخصصة"[٤٧].

لذا قام محمد علي بصياغة سياسات لإنشاء مدارس اللغات والترجمات والمدارس المهنية في القاهرة[٤٨]، في حين تم تأسيس مدارس الهندسة والزراعة والطب في مناطق مختلفة من مصر لتثقيف سكان المناطق البعيدة عن العاصمة، جنبا إلى جنب مع هذه المدارس الإعدادية، تأسست الكليات المهنية العليا لإعداد المجندين، وكان يشرف على هذه الكليات أيضا ثلة من الخبراء والمحترفين الأوروبيين لفترة طويلة، ولكن اللغة كانت مشكلة كبيرة في نقل العلوم الأجنبية للطلاب المحليين.

لمكافحة هذه المشكلة، أسس محمد علي باشا مدرسة للغات هي "مدرسة الألسن"[٤٩]، لتدريب المترجمين على ترجمة الفصول الدراسية المعتمدة وإعداد الكتيبات والنصوص التي سيدرسها الطلاب. وتم وضع مخطط محكم لمجموعات من المترجمين لكل مدرسة مهنية. وكان أول متدرب في المدرسة طلاب الأزهر والمعلمين الذين لديهم معرفة باللغة العربية. وقد أثارت الحاجة إلى ترجمة النصوص وتوافرها في المدارس الرسمية، لذلك عمد محمد علي إلى إغراء الطلاب الذين يدرسون في الخارج بالمال للقيام بجمع وترجمة الكتب الأوروبية التي أصبحت أساساً في إنشاء أول مكتبات الدولة، وقد تم إحضار مجموعة من النصوص الفرنسية التي وضعها في مكتبة إبراهيم باشا في قصر بولاق، والتي أصبحت أول مكتبة تابعة للدولة في عهد أبيه محمد علي باشا.

على الرغم من هذه الأنشطة الإصلاحية في المجال التربوي، إلا أن آباء الأطفال لم يوافقوا على إرسال أطفالهم إلى تلك المدارس، ولا حتى بعد الإعلان عن تأمين الطعام والملابس لهم على نفقة الدولة. لذلك، أصدر محمد علي مرسوماً يقضي بأن يحصل جميع الأطفال الملتحقين بالمدارس

(46) Kenny, L. M. (1967. 'Ali Mubarak: Nineteenth Century Egyptian Educator and Administrator. Middle East Journal, 21(1, 35–51. http://www.jstor.org/stable/4324090

(47) Sonobol, op. cit., pp. 25– 26.

(48) Heyworth-Dunne, J. (1940. Printing and Translations under Muhammad 'Ali of Egypt: The Foundation of Modern Arabic. Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, 3, 325–349. http://www.jstor.org/stable/25221680

(٤٩) تم افتتاح المدرسة بالقاهرة سنة ١٨٣٥، وتولى رفاعة الطهطاوي نظارتها، وكانت تضم في البداية فصولاً لتدريس اللغة الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والتركية والفارسية، إلى جانب الهندسة والجبر والتاريخ والجغرافيا والشريعة الإسلامية.
عبد المنعم ابراهيم الجميعى، مدرسة الألسن وتطور حركة الترجمة والتعريب فى مصر ١٨٣٥ – ١٩٧٣، القاهرة: الجميعي، ١٩٩٩.

عـلى راتـب شـهري نقـداً.

كان هـذا في الواقـع مـصروف الجيـب ونـوع مـن الرشـوة للطـلاب. وبمـا أنـه لم يكـن هنـاك منـاخ تعليمـي في مـصر، أراد محمـد عـلي أن يجعـل التعليـم إلزاميـا، ولذلـك كان الأطفـال يُحـضرون في كثـير مـن الأحيـان بالإكـراه إلى المـدارس.

كان يمكـن للمـدارس التـي أنشـئت في مختلـف أصقـاع القطـر المـصري أن تسـتوعب نحـو ٩٠٠٠ طفـل. أمـا الكليـات، فكانـت تضـم حـوالي ١٥٠٠ طالـب، إضافـة إلى أبنـاء محمـد عـلي الذيـن كانـوا يدرسـون فيهـا. لذلـك كان يطلـق عليهـا "مدرسـة الأمـراء" ومـع ذلـك، أنشـأ محمـد عـلي سـت عـشرة مدرسـة تخصصيـة هـي:

١- الإعداديـة العسـكرية في أسـوان ١٨٢٠ ٢- مدرسـة القـصر العينـي عـام ١٨٢٥ ٣- مدرسـة الطـب في أبـو زعبـل عـام ١٨٢٧ ٤- مدرسـة المشـاة عـام ١٨٣١ ٥- مدرسـة الفرسـان في عـام١٨٣١ ٦- مدرسـة المدفعيـة عـام ١٨٣١ ٧- مدرسـة البحريـة عـام ١٨٣١ ٨- المدرسـة البيطريـة عـام [٥٠]١٨٣١.

في إطـار مهمتـه التعليميـة أرسـل محمـد عـلي إحـدى عـشرة بعثـة متتاليـة مـن الطـلاب إلى أوروبـا بـدأت في عـام ١٨١٣ واسـتمرت حتـى عـام ١٨٤٧. وفي هـذه البعثـة تـم إرسـال ثلاثمائـة وتسـعة عـشر شـاباً مصريـاً إلى مؤسسـات تعليميـة مختلفـة لاكتسـاب المعرفـة بمجـالات مختلفـة منهـا الطـب والقانـون والإدارة المدنيـة والعلـوم الفيزيائيـة والكيميـاء والرياضيـات والهندسـة والميكانيـكا والطباعـة والمعـادن والزراعـة والـري والمنسـوجات والصباغـة والعلـوم العسـكرية وصناعـة الأسـلحة والملاحـة وبنـاء السـفن. في هـذه البعثـات ذهـب المزيـد مـن الطـلاب إلى فرنسـا، في حـين ذهـب البعـض الآخـر إلى إنجلـترا وإيطاليـا والنمسـا. ولم تكـن معايـير اختيـار المرشـحين للبعثـات التعليميـة مـن منابـع دينيـة أو اجتماعيـة. وكان معظـم هـؤلاء الطـلاب مـن أسر فقـيرة وكانـوا يسـافرون عـلى نفقـة الحكومـة. وكان مـن بـين الطـلاب الأوائـل الذيـن تـم إرسـالهم إلى أوروبـا لاكتسـاب المعرفـة رفاعـة الطهطـاوي وبيـترو أفنـدي ويوسـف افتيفـان ومحمـد أحمـد الفلـكي وبـول جـورج جيـاني ويوسـف النـبراوي إلـخ[٥١].

كان محمـد عـلي قلقـاً جـداً بشـأن دراسـة المبتعثـين في الخـارج. ولرصـد دراسـتهم، طلـب منهـم إرسـال تقاريـر دوريـة عـن التقـدم الـذي قـرأه شـخصياً وأرسـل ناظـراً مبـاشراً مـع الطـلاب لتحفيزهـم عـلى اكتسـاب كل المعرفـة دون إضاعـة وقتهـم الثمـين، حتـى يتمكنـوا مـن المسـاهمة في بنـاء مـصر قويـة. وقـد شـوهدت النتائـج في عـام ١٨٣٣ عندمـا تـم تأسـيس كليـة الفنـون التطبيقيـة مـع هيئـة تدريـس تتكـون مـن اثنـين مـن الأوروبيـين فقـط. كان أحدهـما للكيميـاء والآخـر للرياضيـات. كان هنـاك أربعـة مـن الأرمـن، وسـتة مسـلمين، ثلاثـة منهـم قـد تلقـوا تعليمهـم في باريـس وثلاثـة في إنكلـترا[٥٢].

الواقـع أن إصلاحـات محمـد عـلي التعليميـة لم تكـن فقـط لأنـه يريـد "بلـداً متعلـماً" أو أنـه كان قلقـاً جـداً ويسـعى لمحـو الأميـة لـدى المصريـين، بـل أيضـاً لأنـه كان لديـه نهـج عمـلي: فقـد كان يعتقـد

(50)Aqilur Rahman, Western Impact on the Modem Egyptian Society after Napoleon Invasion of Egypt, A.M.U.: Department of Islamic Studies, 1972, p. 71.

(51)Soliman Hamamsy, Zamalek: The Changing Life of a Cairo Elite 18501954–, Cairo: AUC Press, 2005, p. 26.

(52) Rahman, op. cit., p. 72.

أن هـؤلاء الشـباب اللامعـين جـداً سـوف يعملـون كأسـاس يمكـن للحاكـم أن يبنـي عليـه بنيـة تحتيـة حكوميـة قابلـة للحيـاة. وهـذا النهـج يبـدو واضحـا جـدا مـن خـلال أقوالـه لابنـه إبراهيـم باشـا عندمـا طلـب مـن والـده فتـح مـدارس جديـدة لتعليـم المصريـين الأصليـين، أنـه "لم يكـن لديـه نيـة لنـشر التعليم بـين الجماهـير في مـصر. وطلـب مـن ابنـه أن ينظـر إلى مـا حـدث للملـوك الأوروبيـين عندمـا حاولـوا تعليـم الفقـراء. وأضـاف أنـه يجـب أن يـرضى عـن نفسـه بتثقيـف عـدد محـدود مـن الأشـخاص الذيـن يمكنهـم تـولي مناصـب رئيسـية في إدارتـه ويتخـلى عـن الأفـكار حـول تعميـم التعليـم[٥٣].

كانـت نصيحـة المستشـارين أن "مـا تعـاني منـه أوروبـا هـو نتيجـة لتعميـم التعليـم بـين جميـع مسـتويات المجتمـع ... لذلـك واجبنـا هـو مجـرد تعليمهـم كيفيـة القـراءة والكتابـة إلى حـد معـين مـن أجـل إنجـاز العمـل المطلـوب وليـس لنـشر التعليـم إلى مـا بعـد هـذه النقطـة"[٥٤].

لم يكـن هـدف محمـد عـلي هـو التعليـم الجماهـيري، ولكنـه كان محـدوداً ومتخصصـاً في التعليـم. أسـس مـدارس مهنيـة الحديثـة مثـل "القـصر العينـي". ومـن خلالهـا أراد أن يخلـق مجموعـة مدربـة ومؤهّلـة مـن موظفـي الخدمـة المدنيـة المصريـة الذيـن يخدمـون البيروقراطيـة المتوسـعة. ومـن أهـم المـدارس المهنيـة التـي افتتحهـا: "١- مدرسـة الهندسـة - ١٨٢٠ ٢- مدرسـة الطـب ١٨٢٧ ٣- مدرسـة الحقـوق ١٨٦٧ ٤- كليـة تدريـب المعلمـين ١٨٨٠".

خـلال فـترة توليـه مقاليـد الحكـم أسـس محمـد عـلي عـدة مـدارس متخصصـة، مـن التعليـم العـالي. كـما ظهـرت كليـات عسـكرية مهمـة. ومـن بـين سـبع كليـات عسـكرية، كانـت سـت كليـات تقـع في مـكان واحـد "خانـكا". وافتتحـت أربـع كليـات للطـب، شـكلت ثـلاث منهـا أقسـاما مختلفـة لمدرسـة واحـدة[٥٥]. وكانـت "مدرسـة الهندسـة" أقـدم مدرسـة افتتحهـا الباشـا، لتخريـج المهندسـين، وذلـك لبنـاء البنيـة التحتيـة لمـصر الجديـدة التـي شـملت السـكك الحديديـة، والطـرق، ومشـاريع الـري، والمصانـع. ولم يتـم إنشـاء هـذه المـدارس المتخصصـة مـرة واحـدة، ولكـن في البدايـة تـم إعـداد كل منهـا عـلى حـدة وأتيحـت لهـا الفرصـة للنمـو عـلى الأرضيـة الصلبـة عـلى أسـاس احتياجاتهـا الخاصـة قبـل أن تكـون مركزيـة تحـت هيئـة حكوميـة واحـدة.

بذلـك تشـكلت الشريحـة الجديـدة الواسـعة في الطبقـة المتوسـطة، وهـي شريحـة "المتعلمـين". وكانـت كلمـة "أفنـدي"[٥٦] تعنـي شـخصاً لديـه القـدرة عـلى القـراءة والكتابـة. كانـت "الأفنديـة" تمثـل الطبقـات المهنيـة المسـتقبلية وكذلـك البيروقراطيـة الحكوميـة. تـم إرسـال هـؤلاء الأفنديـة إلى أوروبـا للتدريـب المتقـدم وعـادوا لخدمـة وطنهـم فيـما بعـد. كانـت المهنيـة هـي سـمة هـذه الطبقـة التـي تنتمـي إلى مهـن مختلفـة. "كان لهـؤلاء النـاس نظـرة جديـدة تسـتند إلى المعرفـة المتخصصـة التـي ميزتهـم عـن غيرهـم مـن المصريـين الذيـن احترموهـم لمعرفتهـم الحصريـة والمتخصصـة. وبـصرف النظـر عـن هـؤلاء

(53) Hamamsy, op. cit., p. 26.

(54)Hibba Abugideiri, Gender and the Making of Modem Medicine in Colonial Egypt, Farnham: Ashgate Publishing, 2020, p. 30.

(55) Sonbol, A. E., The Creation of a Medical Profession in Egypt, 18001922–, Syracuse University Press, 1991, p. 17.

(٥٦) في عـصر محمـد عـلي كان كل مـن شـارك في البعثـات العلميـة ـ مـن غـير أبنـاء أسرة الباشـا ـ يلقـب بالأفنـدي حتـى أن محمـد عـلي عندمـا كان يكتـب لهـم يخاطبهـم بقولـه "قـدوة الأمثـال الكـرام الأفنديـة المقيمـين في باريـس لتحصيـل العلـوم والفنـون".
البعثـات العلميـة في عـصري محمـد عـلى وإسـماعيل - كتـب Accessed March) .PDF ,١٨ ,٢٠١٨. مجلـة الكتـب العربيـة - كتـب وروايـات. //:https
htm.٢_NDWA٠١٠/www.alarabimag.com/common/book١

المصريين، امتدت الإصلاحات التعليمية لمحمد علي لتشمل مجموعات النخب ذات الأصول التركية في بر مصر. والكثير منهم دفعوا بأنفسهم نفقاتهم التعليمية. ولقد منح محمد علي هذه النخب التركية الأفضلية في التوظيف في مدارسه وفي الميدان العسكري، لقد كانوا مؤهلين تأهيلا جيدا وأُسندت لهم مناصب قيادية كضباط(٥٧).

بعد إنشاء مدارس متخصصة في القاهرة والإسكندرية، كانت المدارس الابتدائية مسؤولة عن وضع القواعد والأنظمة الخاصة بالنظام التعليمي الجديد. وتم افتتاح أول خمس مدارس في المحافظات البعيدة. وأنشئت أربعون مدرسة في مصر السفلى وست وعشرين مدرسة في صعيد مصر. وقد سجلت كل مدرسة ١٠٠ طالب تتراوح أعمارهم بين ٨ سنوات واثنتي عشرة سنة، وكانت فترة الدراسة ثلاث سنوات.

أما أعداد الطلاب في المدارس، فكان هناك تقريباً حوالي ١٠٠٠٠ طالب وطالبة في كافة أنحاء إيالة مصر في الفترة ١٨٣٩-١٨٤٠، مقسمين على النحو التالي:

المدارس المهنية ٢٧٦١ طالب.

المدارس الابتدائية ٥٥٠٠ طالب.

المدارس الإعدادية ٢١١١ طالب.

وقد حظي جميع هؤلاء الطلاب بدعم من الحكومة في شكل تعليم مجاني، وكتب وقرطاسية، ونفقات السكن والغذاء ومصروف الجيب. ولقد نُظمت المدارس في إطار "هيئة استشارية" أُسندت إليها مسؤولية الإشراف على تنميتها في المناطق النائية. ولقد أشرف على هذه اللجنة "ديوان الجهادية" أي القيادة العسكرية. في مرحلة ما بعد التخرج، كان المتخرجون يتبعون "الديوان الأعلى"، والذي يبت في أمور توظيف الطلاب ونقلهم وتعيين المعلمين، لكن البت في التنفيذ كان يرجع من جديد لديوان الجهادية. ولهذا وقع صراع شديد وتضارب نفوذ بين الهيئتين الحكوميتين.

بحلول عام ١٨٣٨ تم إنشاء ديوان خاص للمرافق التعليمية، تكفل بجميع المسؤوليات تجاه المدارس وطلابها وخريجيها، سواء أكانت إدارية أو تقنية، وبهذا كان إنشاء هذا الديوان أساس "نظام التعليم المركزي"، الذي كان السمة الرئيسية لسياسة محمد علي التعليمية في مصر(٥٨).

على الصعيد الطبي أنشأت كلية طب في أبو زعبل أسسها محمد علي عام ١٨٢٧ لتدريب الأطباء وتقديم الخدمات للاحتياجات الصحية للمصريين. وأصبحت مؤسسة أكاديمية لعبت دوراً حاسماً لتطور مهنة الطب الحديث في مصر، الأهم بالطبع كان "مستشفى القصر العيني"(٥٩).

(57) Sonobol, op. cit., pp. 2930-.

(58) Sayed, F. H., Transforming education in Egypt: Western influence and domestic policy reform. American University in Cairo Press. 2006, P. 25.

(٥٩) القصر العيني أو كلية الطب بجامعة القاهرة ويشار له أيضاً كلية طب ومستشفيات جامعة القاهرة هو مجمع صحي تعليمي متكامل يقع في منطقة قصر العيني بمنيل الروضة القاهرة، يشتمل على كلية الطب في الجامعة القاهرة وهي أول مدرسة طبية أنشئت بمصر القاهرة على عهد محمد علي باشا عام ١٨٢٧، ويشتمل كذلك على مستشفيات جامعة القاهرة (وتسمى أيضاً بمستشفيات القصر العيني والعديد من المعاهد العلمية.

لقد افتتحت هذه المؤسسة الطبية العريقة عبر استقدام مئة طالب تم اختيارهم بدقة من الأزهر، أما هيئة التدريس فتألفت من ثمانية أعضاء، وهم أطباء فرنسيون سبق لهم الخدمة في الجيش المصري. كما تم إعداد من المترجمين الفوريين كلفوا بمهمة مساعدة الأساتذة من خلال التواجد في محاضراتهم وندواتهم، بالإضافة إلى ترجمة منشوراتهم المكتوبة إلى اللغة العربية.

كذلك انضمت جامعة القاهرة إلى برنامج التعليم الطبي الفرنسي، وكانت الإجازة الجامعية تتألف من ست سنوات دراسية، كما هو الحال في معاهد باريس. شمل هيكل هذه الكلية، مستشفى ومكتبة ومتحفاً، إضافة إلى حديقة نباتية للنباتات الطبية والأعشاب العلاجية. كما تم إنشاء عدّة مدارس متخصصة أخرى، مرتبطة بالحقل الطبي، مثل كلية الصيدلة ومعهد العلوم البيطرية[٦٠].

أثناء ذلك، تم إرسال البعثات الطبية المصرية للتعلم في الخارج. تألفت البعثة الطبية الأولى من اثني عشر طالباً ذهبوا إلى باريس في عام ١٨٣٢[٦١]. وقد استمرت دراسة هذه "البعثة" مدة ثماني سنوات وليس ست، في البداية كان الهدف إتقان اللغة الفرنسية. بعد عودتهم إلى أرض النيل، كان البعض يعين كأساتذة في الكليات الطبية المستحدثة، في حين تم فرز وتعيين الباقين في الجيش والمستشفيات. ولقد ساهم هؤلاء الرواد الأوائل من الأطباء المصريين في المهمة الملحة للترجمة العلمية، والتي أسفرت عن ترجمة عدد كبير من الكتب الطبية المهمة إلى اللغة العربية في غضون عقدين من الزمن.

رغم كل هذه الجهود المضنية، واجهت ممارسة مهنة وتعليم الطب في مصر صعوبات رئيسية، أهمها لغة التدريس؛ كما كان ١٢٪ من الخريجين يعملون في مجال الطب العام فقط، أما الباقي فقد كان يمارس الطب التشريحي. ولحل مشكلة اللغة التعليمية، تم تشكيل لجنة خاصة أُسندت إليها مهمة ترجمة الكتب المدرسية اللازمة للطب إلى اللغة العربية، فترُجم اثنان وخمسون كتاباً.

بما أن المصريين عامة كانوا يجهلون اللغة الأوروبية، فقد ألقيت المحاضرات في كلية الطب من قبل الأساتذة باللغة الفرنسية ثم ترجمها المترجمون الفوريون إلى اللغة العربية. ونظراً لطريقة التدريس هذه، معظم الطلاب ظلوا منقطعين عن التعرف إلى جميع الأدبيات الطبية، بل اقتصرت معرفتهم على ما يلقمونه في المحاضرات والكراريس، وهذا أنتج الجمود المعرفي في دراساتهم العملية.

مع مرور الوقت بدأ عدد الطلاب الذين يرسلون إلى أوروبا للتعليم العالي يزداد يوما بعد يوم، ليبلغ ٣١٩ طَالِبًا في الفترة من ١٨٣١ إلى ١٨٣٤، ومحلياً ارتفع عدد طلاب الدبلوم في كلية الطب إلى ١٥٠٠ طالب[٦٢].

Hisham. (Accessed March 19, 2018. History. Kasr AlAiny. https://www.ipka.medicine.cu.edu.eg/joomla/index.php/history

(60) Abugideiri, op. cit., pp. 2247–.

(61) Silvera, A. (1980. The First Egyptian Student Mission to France under Muhammad Ali. Middle Eastern Studies, 16(2, 1–22. http://www.jstor.org/stable/4282778

(62) Rahman, op. cit., pp. 7983–.

التطـور الأبـرز لنهضـة مهنـة تعليـم الطـب في الديـار المصريـة تـم عنـد تعيـين "كلـوت بيـك"[٦٣] عـلى رأس كليـة الطـب في عـام ١٨٢٧، حيـث تمـت دعوتـه مـن مسـقط رأسـه مرسـيليا حتـى يتمكـن مـن تنظيـم النظـام الطبـي المـصري. فـوراً قـام بتأسـيس "مجلـس الصحـة"، والـذي تألـف مـن ثلاثـة مستشـارين أجانـب، وكان هـو المـشرف عـلى المجلـس[٦٤].

كان جيـش محمـد عـلي يبلـغ ١٥٠,٠٠٠ جنـدي موزعـين عـلى الثكنـات في القاهـرة وبقيـة الديـار المصريـة، وخارجيـاً في سـنار، وكردفـان، والحجـاز، وكريـت. خـلال أول سـنتين مـن خدمتـه أعـاد كلـوت بيـك تنظيـم الخدمـة الطبيـة العسـكرية لتوفـير التسـهيلات والخدمـات الطبيـة للعسـاكر المصريـين، كـما أجـرى الإصلاحـات الصحيـة الضروريـة الوقائيـة لوقـف انتشـار الطاعـون في القاهـرة في عـام [٦٥]١٨٢٤. وكان إنجـازه الأبـرز لتنظيـم "الإدارة الصحيـة العسـكرية" كان "مدرسـة الطـب" في أبـو زعبـل[٦٦].

اختـار كلـوت بيـك المـكان في قريـة تقـع عـلى بعـد ٧٠٠ مـتر مـن معسـكر الجيـش المركـزي في الضواحـي الشـمالية لـلقاهرة، ليتـم تشـيده في عـام ١٨٢٧. اسـتخدمت أحـدث التقنيـات المتاحـة في ذلـك الزمـن، وكانـت المستشـفى مجهـزة بالكامـل، وتـم تَعْبِـين حـوالي ١٥٠ ضابطـاً أوروبيـاً، معظمهـم صيادلـة وممرضـين مسـاعدين، يحملـون في الغالـب الجنسـية الإيطاليّـة أو الفرنسـيّة.

إلى جانـب هـذه المستشـفيات العاملـة لخدمـة المجهـود الحـربي، تـم تشـييد مستشـفيات للمواطنـين المدنيـين في روسـت ودميـاط والسـويس والأزبكيـة، وكذلـك بنـاء عيـادات مجانيـة لعـلاج المصريـين. كـما تـم تأسـيس مستشـفيات صغـيرة في المـدن الرئيسـية لتقديـم الخدمـات الطبيـة للعـمال والفنيـين في المصانـع الحكوميـة. ولقـد أُسـندت إلى وزارة التعليـم العـام مسـؤولية توفـير الموظفـين والأطبـاء المدربـين، وكان عـلى هـؤلاء الأطبـاء تقديـم العـلاج المجـاني للجميـع، ولا سـيما للفقـراء. وكانـت هـذه المراكـز تفـي بمسـؤوليتها الوطنيـة في توفـير الرعايـة الصحيـة للجميـع عـن طريـق تطعيـم الأطفـال ضـد الجـدري والأمـراض المعديـة والقاتلـة الأخـرى، كذلـك فقـد اتخـذت الخطـوات المناسـبة لمنـع تفـشي الطاعـون وعرضـت استشـارات طبيـة مجانيـة لجميـع السـكان.

(٦٣) أنطـوان براثيليمـي كلـوت Antoine Barthelemy Clot (١٧٩٣ - ١٨٦٨ المعـروف بـ كلـوت بـك. هـو طبيـب فرنـسي قـضى معظـم حياتـه في مـصر، بعدمـا عهـد إليـه محمـد عـلي باشـا بتنظيـم الإدارة الصحيـة للجيـش المـصري، وصـار رئيـس أطبـاء الجيـش. منحـه محمـد عـلي باشـا لقـب "بـك" تقديـرًا لجهـوده في النهضـة الطبيـة التـي أحدثهـا في مـصر. أقنـع كلـوت بـك محمـد عـلي باشـا، بتأسـيس "مدرسـة الطـب" في أبـي زعبـل عـام ١٨٢٧، تـولى إدارتهـا، وكانـت أول مدرسـة طبيـة حديثـة في الـدول العربيـة، وكانـت تضـم ٧٢٠ سريـراً، والتـي نقلـت بعـد ذلـك إلى قـصر العينـي، والـذي غلـب عـلى اسـمها فأصبحـت تعـرف بالقـصر العينـي. ألحـق بهـا مدرسـة للصيدلـة، ثـم أخـرى لتخريـج القابـلات.

Burrow, G. N. (1975. "Clot-Bey: Founder of Medical Practice in Egypt". Yale Journal of Biology and Medicine (48: 251–257.

(64) Sonobol, op. cit., p. 32.

(65) Aboul-Enein, B. H., & Puddy, W. (2016. Contributions of Antoine Barthelemy clot (1793–1868: A historiographical reflection of public health in ottoman Egypt. Journal of Medical Biography, 24(3, 427432-. https://doi.org/10.1177096772015584708/

(66) Historical facts. (Accessed March 29, 2018. Armed Forces College of Medicine. https://www.afcm.ac.eg/EN/History.aspx

الخاتمة

على الرغم من مرور حوالي قرنين من الزمن على حقبة حكم محمد علي باشا في مصر وتجربته النهضوية، ما زالت أقلام المؤرخين والباحثين تغوص في تفاصيل هذه التجربة وتتعارض التحليلات والاستنتاجات حولها. البعض ذهب إلى وصفها بأنها أهم تجربة نهضوية عربية في العصر الحديث، واعتبروا "محمد علي باشا" باني مصر الحديثة، فهو من بث روح القومية العربية بزعمهم، وعمل على إنشاء إمبراطورية عربية على أسس حديثة، وهو أول من حاول لم الشمل العربي في العصر الحديث.

آخرون اعتبروا أن تجربته كانت محاولة للتفرد بثروات مصر وبناء نظام حكم له ولأسرته من بعده، بخاصة بعد أن تخلص من كل من عارضه، أو حتى اختلف معه في الرؤيا. فيما رأى آخرين أنه عمل على بناء مجتمع مصري حديث على أسس وطنية جامعة شعارها تساوي المواطنين في الحقوق والواجبات بغض النظر عن العرق والدين والطائفة، والأهم أنه هو من أسس لقيام الطبقة الوسطى المثقفة والتي حملت على أكتافها بناء مصر الحديثة، ومعه بدأ تشكل "طبقة العسكر" في المجتمع المصري، والتي استلمت الحكم منفردة منذ منتصف القرن العشرين.

مهما تعارضت التحليلات والاستنتاجات، فلا يمكن لأحد أن يتجاهل الدور الكبير الذي قام به مؤسس الأسرة العلوية في مصر من محاولة تحديث الدولة والمجتمع في كل النواحي الثقافية والعلمية والسياسية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية، وبأنه أدخل مصر إلى عصر المطابع والمدارس، ونشر الكتب، وأرسل البعثات العلمية لاقتباس أحدث علوم الغرب في شتى المجالات، وقام وبناء جهاز حديث الدولة، وتأسيس جيش وطني قوي بزاد بشري وطني مصري.

تقليديا، تؤكد الدراسات الأكاديمية بأن محمد علي باشا هو مؤسس مصر الحديثة وباني نهضتها وواضع الأسس لعسكرة المجتمع المصري. كان الباشا طموحًا وإشكاليًا، فهو ادعى بأنه مصلح عثماني، فيما كان يسعى لبناء دولته الخاصة في المشرق العربي.

من هنا سعى لإقامة الشكل الحديث للحكم السياسي والإداري في مصر اليوم. لقد أسس جيشًا بريا وقوة بحرية على قدر كبير من القوة والضخامة بمقاييس ذلك الزمان، ومن هنا، ولدوام قوته العسكرية وتعزيزها، قام بتحديث الاقتصاد والإدارة في البلاد، وبذلك جلب شكلاً مبتكرًا من النزعة العسكرية ساد حتى عصرنا الحالي.

أدت النزعة العسكرية المتنامية في النهاية إلى إنشاء حكومة مركزية قوية في القاهرة، جل اعتمادها على الطبقة العسكرية لإدارة شؤون الدولة. بذلك تم توطيد السلطة في ظل حاكم واحد وإنشاء طبقة عسكرية وبيروقراطية لفرض الحكم السلطوي في مصر. كانت النزعة العسكرية في مصر سمة رئيسية لمشهدها السياسي منذ ذلك الحين، بخاصة مع الانقلاب الناصري عام ١٩٥٢، حتى اليوم.

بالطبع ستبقى التجربة مدار بحث وتدقيق ودراسة، بخاصة أن النهضة المأمولة لعالمنا العربي ما زالت متعثرة، وما زلنا في طور دراسة أسباب الفشل المتعددة والمتشعبة.

المراجع العربية

١- أيمن أحمد محمد، العثمانيون ونظاما الالتزام والأمانات في مصرفي القرن السادس عشر، دراسة في البدايات والتطبيق، القاهرة: المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ٢٠٠٤.

٢- بسكال غزال، التحول الكبير، اعادة تكوين الثروات وشبكات التحول الاجتماعي فى عصر محمد على، القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، ٢٠١٦.

٣- حسين كفافي، محمد علي ... رؤية لحادثة القلعة، القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٢.

٤- عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٩.

٥- عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، المحقق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة: بولاق، ١٩٩٨.

٦- عبد المنعم ابراهيم الجميعى، مدرسة الألسن وتطور حركة الترجمة والتعريب فى مصر ١٨٣٥ – ١٩٧٣، القاهرة: الجميعي، ١٩٩٩.

٧- عماد أحمد هلال. (٢٠١٠. الروزنامة): الحولية المصرية للوثائق. https://ruznama.journals.ekb.eg/article_9 4769_6f34ee23e26c7dd83f5c25afbe4dac16.pdf

٨- كتاب البعثات العلمية في عصري محمد على وإسماعيل - كتب PDF. (٢٠١٩. مجلة الكتب العربية - كتب وروايات. https://www.alarabimag.com/common/book١٠١٠NDWA_٢.htm

٩- كينيث كونو، فلاحو الباشا ... الأرض والمجتمع والاقتصاد في الوجه البحرى ١٧٤٠-١٨٥٨، ترجمة: سحر توفيق، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٠.

١٠- محمد مدحت مصطفى، تطور حيازة الأراضي في مصر، القاهرة: مركز الدراسات والابحاث العلمانية في العالم العربي، ٢٠١٧.

١١- https://www.ssrcaw.org/ar/show.art.asp?t=٢&aid=٥٥٥٦٣٧

١٢- ناهد السيد علي زيان، الجالية البريطانية في مصر، ١٨٠٥-١٨٨٢، القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١١.

References

1– “Remembering” Egypt’s Ottoman Past: Ottoman Consciousness in Egypt, 18412020) .1914–. OhioLINK Electronic Theses & Dissertations (ETD Center. https://etd.ohiolink.edu/apexprod/rws_etd/send_file/send?accession=osu1595487290477278&disposition=inline

2– Aboul–Enein, B. H., & Puddy, W. (2016. Contributions of Antoine Barthelemy clot (1793–1868: A histo–riographical reflection of public health in ottoman Egypt. Journal of Medical Biography, 24(3, 427432–. https://doi.org/10.11770967772015584708/

3– Afaf Lutfi al– Sayyid Marsot, Egypt in the reign of Muhammad Ali, Cambridge: Cambridge University Press,1984.

4– Alan Richards, Egypt’s Agricultural Development 18001980– Technical and Social Change, California: Av–alon Publishing, 1982.

5– Ali Bakr Hassan ✭ Samuel Adu–Gyamfi (Reviewing editor (2021 The Government of Egypt’s Press (Mat–ba`at Bûlâq: A Historical Analysis of Two Hundred Years of Performance, Cogent Arts & Humanities, 8:1, DOI: 10.108023311983.2021.1891683/

6– Amira el–Azhary Sonobol, The Creation of a Medical Profession in Egypt 18001922–, Skytop: Syracuse University Press, 1991.

7– Aqilur Rahman, Western Impact on the Modem Egyptian Society after Napoleon Invasion of Egypt, A.M.U.: Department of Islamic Studies, 1972.

8– Bosworth–CE and others, The Encyclopedia of Islam, Leiden: University of Leiden, 1993.

9– Burrow, G. N. (1975. "Clot–Bey: Founder of Medical Practice in Egypt". Yale Journal of Biology and Medi–cine (48: 251–257.

10– Charles Issawi, Egypt in Revolution an Economic Analysis, London: Praeger, 1963.

11– Esposito, John L., ed.,"Education: Educational Institutions", The Oxford Dictionary of Islam. Oxford Uni–versity Press, 2003.

12– G. B. Brocchi, Giornale delle osservazioni fatte nè viaggi in Egitto, nella Siria e nella Nubia da G. B. Brocchi, 6 voll., A. Roberti tip. ed editore, Bassano 18411843–.

13– Gibb, S. H., The encyclopedia of Islam, London: Brill Archive,1954.

14– Heyworth–Dunne, J. (1940. Printing and Translations under Muhammad ’Ali of Egypt: The Foundation

of Modern Arabic. Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, 3, 325–349. http://www.jstor.org/stable/25221680

15– Hibba Abugideiri, Gender and the Making of Modem Medicine in Colonial Egypt, Farnham: Ashgate Pub–lishing, 2020.

16– Hisham. (2020. History. Kasr AlAiny. https://www.ipka.medicine.cu.edu.eg/joomla/index.php/history

17– Historical facts. (2020. Armed Forces College of Medicine. https://www.afcm.ac.eg/EN/History.aspx

18– John Butcher and Howard Dick, The Rise and Fall of Revenue Farming: Business Elites and the Emergence of the Modern State, NY: St. Martin's Press., 1993.

19– John Marlowe, Anglo– Egyptian Relations 18001956–, London: Frank Cass and Company, 1965.

20– Julie Scott Meisami; Paul Starkey, eds. (1998. "Zakhur, Pere Rufa'il"). Encyclopedia of Arabic Literature, Volume 2. Taylor & Francis.

21– Karabell, Zachary (2003. Parting the Desert, the creation of the Suez Canal. Alfred Knopf.

22– Kenny, L. M. (1967.) 'Ali Mubarak: Nineteenth Century Egyptian Educator and Administrator. Middle East Journal, 21(1, 35–51.) http://www.jstor.org/stable/4324090

23– Lepler, Jessica M. (23 September 2013. The Many Panics of 1837: People, Politics, and the Creation of a Transatlantic Financial Crisis.

24– Owen, R. (1992.) The 1838 Anglo–Turkish convention: An overview. New Perspectives on Turkey, 7, 714–. https://doi.org/10.15184/s0896634600000467

25– PANZA, L., & WILLIAMSON, J. G. (2015. Did Muhammad Ali foster industrialization in early nineteenth–century Egypt? The Economic History Review, 68(1, 79–100. http://www.jstor.org/stable/43910011

26– Porcher, Richard D.; Fick, Sarah, The Story of Sea Island Cotton, Charleston, South Carolina: Wyrick & Company, 2005.

27– Rabbat, Nasser (1996), "Al–Azhar Mosque: An Architectural Chronicle of Cairo's History", in Necipogulu, Gulru (ed.), Muqarnas– An Annual on the Visual Culture of the Islamic World, 13, Brill, pp. 45–67.

28– Rivlin, H. A. (1961). The agricultural policy of Muhammad Ali in Egypt.

29– Sayed, F. H., Transforming education in Egypt: Western influence and domestic policy reform. American University in Cairo Press. 2006.

30– Silvera, A. (1980). The First Egyptian Student Mission to France under Muhammad Ali. Middle Eastern Studies, 16(2, 1–22). http://www.jstor.org/stable/4282778

31– Soliman Hamamsy, Zamalek: The Changing Life of a Cairo Elite 18501954–, Cairo: AUC Press, 2005.

32– Sonbol, A. E., The Creation of a Medical Profession in Egypt, 18001922–, Syracuse University Press, 1991.

33– Stanley, D. J., & Warne, A. G. (1998). Nile Delta in Its Destruction Phase. Journal of Coastal Research, 14(3, 795–825). http://www.jstor.org/stable/4298835

34– Toledano, E. R. (1985. Mehmet Ali Pasa or Muhammad Ali Basha? An historiographic appraisal in the wake of a recent book. Middle Eastern Studies, 21(4,141159–). https://doi.org/10.10800026320850870064 5/

35– Vladimir Lutsky, Modern History of the Arab Countries, Moscow: USSR Academy of Sciences, 1996.

36– Wendell, C., The evolution of the Egyptian national image: From its origins to Ahmad Lutfi Al–Sayyid. Uni–versity of California Press 1972.

الميثاق الوطني التركي (ميثاق ملي وأثره في سياسة تركيا الخارجية في العالم العربي ما بعد العام ٢٠٠٠

ملاحظة: إن وزارة الخارجية والمغتربين في الحكومة اللبنانية لا تتبنى ما ورد في هذا البحث.

"The designations employed and the presentation of the material in this paper do not imply the expression of any opinion on the part of the Ministry of Foreign Affairs and Emigrants of the Lebanese Republic concerning the legal status of any country, territory, city or area, or of its authorities, or concerning the delimitation of its frontiers or boundaries.

The views expressed in this paper are the sole responsibility of the author. They do not reflect the views or opinions of the Ministry of Foreign Affairs and Emigrants of the Lebanese Republic, or its staff members"

الدكتور محمد علي عيتاني[١]

الملخص:

تـؤدي تركيـا دوراً بـارزاً في الـشرق الأوسـط، لاسـيما في العـالم العـربي، والـذي يشـكل المـدى الحيـوي الطبيعـي لهـا إضافـةً إلى البلقـان والقوقـاز. فتركيـا المعـاصرة تـم رسـم حدودهـا بشـكل لا يعكـس قوتهـا الحقيقيـة مـن جهـة، ولا لجهـة وجـود الأتـراك خـارج وطنهـم القومـي. تركيـا هـي الوريـث الشرعـي للسـلطنة العثمانيـة التـي حكمـت أجـزاء واسـعة مـن العـالم العـربي، وكان السـلطان العثـماني هـو خليفـة المسـلمين، بمـا يشـكل ذلـك مـن بعـد دينـي وسـياسي للمسـلمين. قامـت كل مـن معاهـدة سـيفر لعـام ١٩٢٠ ومعاهـدة لـوزان ١٩٢٣ برسـم الحـدود الجغرافيـة للجمهوريـة التركيـة الحديثـة الـولادة حينهـا. إلا أن هـذا الأمـر لم يكبـح بـأي شـكل مـن الأشـكال الطموحـات التركيـة خـارج حدودهـا المسـتحدثة، وهـو مـا يمكـن إعادتـه للميثـاق الوطنـي الـتركي (بالعثمانيـة: ميثـاق مـلى الـذي صـدر عـن البرلمـان العثـماني بجلسـته الأخـيرة، والـذي يعكـس الطموحـات التركيـة الحاليـة.

Turkey plays a prominent role in the Middle East, especially in the Arab world, which constitutes a part of its natural sphere of influence, in addition to the Balkans and the Caucasus. Contemporary Turkey had its borders drawn in a form that does not reflect its true power on the one hand, nor that of the presence of the Turks outside their new national homeland. Turkey is the legitimate successor of the Ottoman Empire/Sultanate, which ruled large parts of the Arab world, and was headed by the Ottoman Sultan who was the Caliph of

(١) دبلوماسي في وزارة الخارجية اللبنانية.

Muslims, having both a religious and a political authority over Muslims. The ١٩٢٠ Treaty of Sèvres and the ١٩٢٣ Treaty of Lausanne both delineated the geographical boundaries of the newly born Turkish Republic. However, this matter didn't curb the Turkish ambitions outside its newly developed borders in anyway, which could be hypothesized that it is due to the Turkish National Pact (Misak-ı Millî issued by the Ottoman Parliament in its last session, which reflects the current Turkish ambitions.

المقدمة

شكل سقوط السلطنة العثمانية وقيام الجمهورية التركية نقطة تحول أساسية في تاريخ الشرق الأوسط والعالم العربي، حيث لا تزال آثار انهيار السلطنة تعصف بالمنطقة لتاريخنا المعاصر. فالعالم العربي اليوم يشكل ساحة صراع بين القوى الإقليمية، رغم تفاوت تأثير كل منها، حيث إن كل من إيران وتركيا وإسرائيل وإثيوبيا تهدد الأمن القومي للدول العربية منفردة وللأمن القومي العربي الجماعي.

لدراسة تأثير تركيا المعاصرة على العالم العربي، لابد لنا من العودة في التاريخ إلى أخر جلسة للبرلمان العثماني الذي انبثق عنه الميثاق الوطني التركي، والذي تكمن أهمية دراستنا له في أنه إحدى ركائز السياسة الخارجية التركية في العالم العربي ومناطق أخرى من العالم يعتبرها الأتراك جزءاً من العالم التركي.

يتألف الميثاق الوطني التركي من ستة قرارات صدرت عن الدورة الأخيرة للبرلمان العثماني، حيث اجتمع البرلمان في ٢٨ كانون الثاني ١٩٢٠ ونشر هذه القرارات في ١٢ شباط ١٩٢٠.

أثارت القرارات قلق الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية الأولى، الأمر الذي أدى إلى احتلال القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية إسطنبول في ١٦ آذار ١٩٢٠، وإنشاء كُلٍ من الحركة التركية الوطنية ومجلس الأمة التركي الكبير في أنقرة.

أدى هذا أيضًا إلى تأجيج حرب الاستقلال التركية ضد الحلفاء.

استُخدمت لاحقاً القرارات الستة التي اتخذها البرلمان العثماني كأساس لمطالب مجلس الأمة التركي الكبير (البرلمان التركي في معاهدة قارص ولمطالب جمهورية تركيا الجديدة في معاهدة لوزان.

النقاط الست هي:

سيتم تحديد مستقبل الأراضي التي تسكنها غالبية عربية لدى توقيع هدنة مدروس من خلال استفتاء. من ناحية أخرى، فإن الأراضي التي لم تكن محتلة في ذلك الوقت والتي تسكنها غالبية تركية هي موطن الأمة التركية.

يمكن تحديد وضع كارس وأرداهان وباطوم من خلال استفتاء.

سيتم تحديد مكانة تراقيا الغربية من خلال أصوات سكانها.

يجب توفير الأمن في إسطنبول ومرمرة. سيتم تحديد نظام النقل والتجارة الحرة في مضيق البوسفور والدردنيل من قبل تركيا والدول الأخرى المعنية.

تصدر حقوق الأقليات بشرط حماية حقوق الأقليات المسلمة في الدول المجاورة.

من أجل التطور في كل مجال، على البلاد أن تكون مستقلة وحرة؛ ستتم إزالة جميع القيود المفروضة على التطور السياسي والقضائي والمالي.

إن حدود الدولة التركية تبعاً للميثاق تشمل إضافة إلى تركيا الحالية، تبعاً للخريطة[٢] أجزاء واسعة من العراق (منها كركوك والموصل وإقليم كردستان، إضافة لنحو ثلث مساحة سورية (المحافظات الشمالية: الحسكة والرقة وحلب وإدلب، وكذلك أجزاء إقليم تراقيا اليوناني والبلغاري (إقليم تراقيا تم تقسيمها بين تركيا وبلغاريا واليونان بموجب معاهدتي سيفير ولوزان لأعوام ١٩٢٠ و١٩٢٣، وهي المعاهدات التي شهدت ترسيم الحدود بين تركيا والدول العربية المنفصلة عن الدولة العثمانية. تجدر الإشارة أن إقليم هاتي (لواء اسكندرون الذي حصلت عليه تركيا لاحقاً، وجمهورية شمال قبرص التركية وأماكن تواجد القوات التركية في سورية حالياً هي ضمن المناطق التي يعتبرها الأتراك ضمن دولتهم.

إلا أن ترسيم الحدود لم يدفع بخارطة "ميثاق الأمة" لغياهب النسيان، ويُعاد تداولها بين الحين والآخر بين من يطلقون على أنفسهم اسم "العثمانيون الجدد"، وهم بشكل رئيسي من أنصار حزب العدالة والتنمية الحاكم، إضافة لعدد من الاحزاب الصغيرة الأخرى، وكذلك يتم تداولها بين أنصار الأحزاب القومية، وفي مقدمتها حزب الحركة القومية، الذي شاركت ميليشيا مسلحة تابعة له في المعارك التي جرت في سورية. ويعتبر "ألب أرسلان جيلك" القيادي في جماعة الذئاب الرمادية (الجناح العسكري لحزب الحركة القومية (Syria: Photos of Alparslan Celik, rebel leader from Turkey who shot Russian pilot, go viral, ٢٠١٥، من أبرز المقاتلين الأتراك الذين شاركوا بمعارك جبل التركمان بمحافظة اللاذقية، والذي تتهمه روسيا بالمسؤولية عن قتل الطيار الذي أسقطت طائرته من قبل سلاح الجو التركي في ٢٠١٥/١١/٢٤. (BASIN AÇIKLAMASI, ٢٠١٥

لعل أبرز الإشارات إلى هذه الخريطة، ما تطرق إليه الرئيس التركي، رجب طيب أردوغان، خلال كلمته في مؤتمر القانون الدولي بالعاصمة التركية أنقرة في تشرين الأول عام ٢٠١٦، عندما قال إن القوات التركية يجب أن تكون حيث تحمي استقلال بلادها، رافضاً المطالب العراقية بالانسحاب من قاعدة بعشيقة، مشيراً إلى خارطة "ميثاق الأمة" تلك، التي تضم مدينة الموصل أيضا (Cumhurbaskanı Erdogan'dan 'Misak-ı Milli' mesajı, ٢٠١٦. إضافة لتطرقه للميثاق خلال حديثه في حفل إحياء الذكرى الـ ٧٩ لوفاة مصطفى كمال أتاتورك في مركز بيستيب للثقافة والمؤتمرات في العاصمة أنقرة في العام ٢٠١٧، حيث اعتبر "نحن بحاجة إلى استعادة مبادئ الميثاق الوطني لحرب الاستقلال"[٣] (Erdogan warns against using Ataturk to meet own targets, ٢٠١٧. كما أشار وزير الداخلية التركي سليمان صويلو في ديار بكر بتاريخ ٢٠١٩/٠٣/٠٤، "نحن لسنا فقط تركيا، بل أيضًا دمشق وحلب وكركوك والقدس وفلسطين ومكة والمدينة". (Nordic Monitor, ٢٠١٩ ليتضح بروز استخدام الرئيس التركي رجب طيب أردوغان ووزرائه ميثاق ملي بشكل متكرر بعد بداية الحرب السورية، حيث أصبح الطموح التركي واضحاً في المناطق التي كانت

(٢) الخريطة متوافرة في الملحق

(٣) ترجم بتصرف

تحت نفوذ السلطة العثمانية في الشرق الأوسط (سورية والعراق وصولاً إلى كل من الصومال وليبيا وقطر.

سنقوم في هذه المقالة بدراسة الوجود العسكري التركي في العالم العربي المعاصر منذ بداية الحرب السورية وصولاً إلى يومنا هذا، وذلك للإضاءة على كيفية استخدام تركيا للقوة الصلبة (Hard Power في سياستها الخارجية في العالم العربي.

الفصل الأول -الوجود العسكري التركي في الشرق الأوسط (العراق وسورية

يعكس الوجود التركي في هذه البقعة من الكرة الأرضية مسألة أمن قومي لتركيا، لجهة الحد من النفوذ الكردي الذي قد ينعكس سلباً على الداخل التركي لاسيما في المناطق الجنوبية الشرقية من تركيا، ومسألة الأمن المائي لتركيا وحمايتها للتركمان في هذه الدول. إذ إن ولادة العراق وسورية (كما لبنان والأردن وفلسطين كان نتيجةً لاتفاق سايكس-بيكو.

القسم الأول - العراق

قبل الحرب العالمية الأولى، كان العراق المعاصر جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، حينها لم يكن للعراق تحت الحكم العثماني وحدة سياسية، بل كان هناك ثلاث محافظات إدارية (ولايات، تم تنظيمها بموجب قانون الأراضي لعام ١٨٥٨ وقانون الولاية لعام ١٨٦٤ للإمبراطورية العثمانية: محافظات البصرة وبغداد والموصل. آتت الوحدة السياسية لهذه المقاطعات الثلاث ثمارها نتيجة الحرب العالمية الأولى وغزو المملكة المتحدة لهذه المنطقة، لتُعرف لاحقاً بدولة العراق.

في عام ١٩٢٣ تم تنظيم مؤتمر لوزان في سويسرا، وذلك من أجل إنهاء حرب الاستقلال التركية. من ضمن نتائج المؤتمر كان قيام الجمهورية التركية بحدودها الحالية، لكن برز حينها مشكلة "ولاية الموصل" التي طالبت تركيا بأن تكون ضمن أراضيها. لم يتم حل الخلاف الحدودي بين تركيا والعراق في هذا المؤتمر، وتم تأجيل مناقشة الخلاف ليتم لاحقاً وضع الموصل ضمن العراق، الأمر الذي لم يُرضِ الطرف التركي.

نتيجة للجنة التي أنشأتها عصبة الأمم لتحديد مستقبل الموصل، والتي أصدرت نتائجها بتاريخ ١٩٢٤/٧/٦، أوصت بأن يكون الموصل ضمن مملكة العراق، إلا أن تركيا رفضت توصيات تلك اللجنة. رغم ذلك، وقعت تركيا اتفاقية ثلاثية مع بريطانيا والعراق تؤكد ضم الموصل إلى العراق بتاريخ ١٩٢٦/٦/٥. نصت تلك الاتفاقية على تعويض تركيا عن قرار عصبة الأمم عبر حصولها على ١٠٪ من عائدات النفط في الموصل لمدة ٢٥ عامًا. (Mosul, Anglo-Turkish Dispute Over, ٢٠٢٠بناءً لأرقام وزارة الخزانة التركية، كان يجب أن يحول إليها ٢٩،٥٢٠،٠٠٠ جنيه إسترليني، لكن تم دفع ٣،٥٠٠،٠٠٠ جنيه إسترليني فقط إلى تركيا حتى عام ١٩٥٥، لتطالب تركيا بدفع القيمة المتبقية بحوالي ٢٦،٠٠٠،٠٠٠ جنيه إسترليني من حصتها من عائدات نفط الموصل حتى عام

١٩٨٦، إلا أنــه في عــام ١٩٨٦ أزيــل هــذا البنــد مــن الموازنــة العامــة التركيــة.

وفقًــا لبيانــات وزارة التخطيــط العراقيــة لعــام ٢٠١٣، يبلــغ عــدد التركمــان في العــراق حــوالي ٣ ملايــين مــن إجــمالي عــدد الســكان البالــغ حــوالي ٣٤,٧ مليــون نســمة (أي حــوالي ٩٪ مــن ســكان البــلاد. (Iraq's Turkmens call for independent province, ٢٠١٦ الأمــر الــذي يُفــسر الــدور الــذي تؤديــه تركيــا بشــكل مبــاشر في العــراق. حيــث إن القــوات التركيــة ومــن خــلال عملياتهــا العســكرية في شــمال العــراق، تتواجــد حاليــاً في بعشــيقة شــمال الموصــل منــذ العــام ٢٠١٥، إضافــة إلى ســيطرتها عــلى ٣٨ موقعــاً في المنطقــة المذكــورة بعمــق ٤٠ كيلومــتراً في الداخــل العراقــي، حيــث أن الخريطــة التــي نُــشرت عــلى حســاب الرئاســة التركيــة عــلى موقــع تويــتر كشــفت عــن انتشــار القــوات التركيــة في مــدن أربيــل وســوران ودهــوك وزاخــو. (Turkish map of 'divided' Iraq triggers criticism, ٢٠٢٠

يــأتي هــذا التوســع الــتركي في الجغرافيــا التركيــة نتيجــة عمليــة "مخلــب النــسر" -العمليــة العســكرية الجويــة، التــي بــدأت في ٢٠٢٠/٦/١٥ -ولاحقــاً عمليــة "مخلــب النمــر" -العمليــة العســكرية البريــة، بــدأت في ٢٠٢٠/٦/١٧ -التــي أطلقهــا الجيــش الــتركي لمحاربــة حــزب العــمال الكردســتاني في العــراق في العــام ٢٠٢٠. (Turkey launches Operation Claw-Tiger in northern Iraq, ٢٠٢٠ جــاءت العمليــة العســكرية التركيــة في العــام ٢٠٢٠ اســتكمالاً للعمليــة العســكرية "عمليــة المخلــب" للعــام ٢٠١٩ ذات الأهــداف المُشــابهة، حيــث أعلنــت وزارة الدفــاع التركيــة بتاريــخ ٢٠٢٠/٦/١٤ عــن نجــاح "عمليــة المخلــب" وتحقيقهــا لأهدافهــا. (Turkish jets strike Kurdish militant targets in northern Iraq, ٢٠٢٠

في الســاعات الأولى مــن يــوم ١٨ نيســان ٢٠٢٢، أعلنــت القــوات المســلحة التركيــة (TAF بدايــة عمليــة عســكرية جديــدة داخــل شــمال العــراق، وأطلــق عليهــا اســم "قفــل المخلــب"، وهــي تســتهدف مــن خلالهــا حــزب العــمال الكردســتاني، المصنــف إرهابيــاً في تركيــا. يتمتــع حــزب العــمال الكردســتاني بمــلاذات آمنــة في عــدة مناطــق في شــمال العــراق، يمكــن اعتبارهــا جيوبــاً لــه، مثــل جبــال قنديــل (في شــمال شرق العــراق، قــرب الحــدود العراقية-الإيرانيــة ومناطــق أخــرى تســتهدفها العمليــة بشــكل أســاسي في شــمال العــراق (زاب، متينــة، أفاشــين، وباســيان، إذ يتــم اســتخدام هــذه المناطــق كنقــاط انطــلاق لشــن هجــمات عــلى تركيــا. (Ozturk, ٢٠٢٢

تــأتي هــذه العمليــة كجــزء مــن سلســلة العلميــات العســكرية المعروفــة باســم "عمليــات المخلــب"، والتــي تهــدف تركيــا مــن خلالهــا إلى محاربــة تنظيــم الدولــة الإســلامية وحــزب العــمال الكردســتاني في العــراق، وخلــق حــزام آمــن عــلى طــول حدودهــا مــع العــراق. إذ لتاريخــه قامــت تركيــا بشــن ٦ عمليــات عســكرية ضمــن هــذه السلســلة، وبعــض هــذه العلميــات مقســمة إلى مراحــل، وهــي:

عملية المخلب ١-٢-٣ (٢٠١٩-٢٠٢٠)
عملية مخلب النسر ١-٢ (٢٠٢٠)
عملية مخلب النمر (٢٠٢٠)
عملية مخلب البرق (٢٠٢١)
عملية مخلب الصاعقة (٢٠٢١)
عملية قفل المخلب (٢٠٢٢)

القسم الثاني – سورية

بعــد انهيــار الســلطنة العثمانيــة مــع نهايــة الحــرب العالميــة الأولى، احتلــت القــوات الفرنســية معظــم

إقليم هاتاي (لواء اسكندرون كما يُسميه السوريون بما في ذلك مدينة الإسكندرون. بين عامي ١٩٢١ و١٩٣٧، كانت المدينة جزءًا من لواء اسكندرون ذات الحكم الذاتي داخل سورية التي تُسيطر عليها فرنسا، حيث كان ذلك الحكم نتيجة الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان المفروض من قبل عصبة الأمم. تأسست جمهورية هاتاي في العام ١٩٣٨، وفي العام ١٩٣٩ انضمت إلى جمهورية تركيا بعد استفتاء شعبي، ولا تزال سورية تعتبر أن الاستفتاء غير شرعي.

أما التواجد التركي المعاصر فقد بدأ في الشمال السوري، إذ يعود لبداية الحرب السورية ودعمها للمعارضة السورية، لا سيما الجيش السوري الحر والفصائل المعارضة المُقربة من تركيا. أطلقت القوات التركية عدة عمليات عسكرية مباشرة في سورية، أولها كان عملية شاه الفرات في ٢١-٢٠١٥/٢/٢٢ وذلك بهدف نقل محتويات ضريح سليمان شاه والجنود الأتراك الذين يقومون بحراسته. استتبع هذا عملية درع الفرات بين ٢٠١٦/٨/٢٤ و٢٠١٧/٣/٢٩ حيث إن تركيا وحلفاءها من المعارضة السورية فرضوا السيطرة على الحدود السورية التركية والمنطقة الواقعة بين منطقتي عفرين ومنبج. أطلقت تركيا بعدها عمليتها العسكرية المعروفة باسم "العملية العسكرية التركية في محافظة إدلب"، والتي ما زالت مستمرة منذ ٢٠١٧/١٠/٧ حتى تاريخه. بدأت هذه العملية في أعقاب اتفاقية أستانا لعام ٢٠١٧ واتفاقية سوتشي بين تركيا وروسيا وإيران. تضمنت الاتفاقيتان أحكامًا تنص على قيام القوات المسلحة التركية بإنشاء وصيانة ١٢ نقطة مراقبة داخل الأراضي التي يسيطر عليها المتمردون في محافظة إدلب.

أطلقت تركيا عملية غصن الزيتون بتاريخ ٢٠١٨/١/٢٠ حتى ٢٠١٩/٨/٩، وذلك بهدف ضرب القوات الكردية المتواجدة في محيط منطقي عفرين وأعزاز في محافظة حلب. قامت تركيا بإطلاق عملية نبع السلام بتاريخ ٢٠١٩/١٠/٩ لتنتهي كامل المعارك والعمليات بتاريخ ٢٠١٩/١١/٢٥، حيث كان الهدف إخراج قوات سورية الديمقراطية (أكراد تتهمهم تركيا بأنهم فرع من حزب العمال الكردستاني في سورية من محافظات حلب والحسكة والرقة السورية. آخر العمليات العسكرية التركية في سورية هي عملية درع الربيع، والتي امتدت من ٢٠٢٠/٢/٢٧ حتى ٢٠٢٠/٣/٦، حيث جاءت رداً على القصف المدفعي والجوي الذي شنّته القوات الروسية والنظام السوري أدت إلى مقتل ٣٤ جندياً تركياً، الأمر الذي أدى إلى اتفاق تركي-روسي لتقاسم النفوذ والقيام بدوريات مشتركة.

تجدر الإشارة إلى أن التدخل التركي في سورية تم تبريره بوجود اتفاق أضنة السري، والذي تم توقيعه بين سورية وتركيا في العام ١٩٩٨. حيث إن الاتفاقية أشارت إلى أن سورية لن تسمح بأي نشاط ينطلق من أراضيها بهدف الإضرار بأمن واستقرار تركيا، والمقصود هنا هو حزب العمال الكردستاني. أما الملحق الرابع للاتفاق فينص "يفهم الجانب السوري أن إخفاقه في اتخاذ التدابير والواجبات الأمنية، المنصوص عليها في هذا الاتفاق، يعطي تركيا الحق في اتخاذ جميع الإجراءات الأمنية اللازمة داخل الأراضي السورية حتى عمق ٥ كم" (ما هي بنود اتفاق أضنة السرّي بين أنقرة ودمشق حسبما كشفتها الصحافة التركية؟!, ٢٠١٩ الأمر الذي أعطى مسوغاً قانونياً للتدخل التركي في الشمال السوري ضمن هذه الأُطر.

في ٢٣ أيار ٢٠٢٢، أعلن الرئيس التركي رجب طيب أردوغان، أن بلاده ستبدأ قريبًا عملية عسكرية جديدة في سورية، بهدف إنشاء منطقة أمنية بطول ٣٠ كم على طول الحدود الجنوبية مع سورية لاسيما في منطقتي تل رفعت ومنبج. كما أن وزير الدفاع التركي خلوصي أكار خلال

"المعرض الرابع للكفاءة والتكنولوجيا" الذي أقامته جامعة أنقرة للعلوم في تركيا في الـ ATO Congresium في العاصمة أنقرة، خلال الفترة ما بين ١٨ و٢١ أيار ٢٠٢٢، اعتبر أنه "لا فرق بين وحدات حماية الشعب الكردية في شمال سورية وحزب العمال الكردستاني في شمال العراق. كل التقارير الاستخباراتية والمصادر المفتوحة والتطبيقات العملية تظهر بوضوح أنهم جزء من منظمة إرهابية. لا ينبغي لأحد أن يشك في ذلك." (Berker, ٢٠٢٢

الفصل الثاني -الوجود العسكري التركي في دول العالم العربي الأخرى (ليبيا-قطر-الصومال

يشكل الوجود العسكري التركي في هذه الدول جزءاً من صراعها على النفوذ في منطقة الشرق الأوسط، والذي يتضمن الصراع على الموارد النفطية والغازية في البحر الأبيض المتوسط (ليبيا ووجودها قرب مضيق باب المندب ومنطقة القرن الأفريقي (الصومال، وصولاً إلى إيجاد نفوذ لها في الخليج العربي (قطر).

القسم الأول -ليبيا

بدأت ما يطلق البعض عليها تسمية "الحرب الأهلية الليبية الثانية" أو "الأزمة الليبية" في العام ٢٠١٤ واستمرت حتى ٢٠٢١/١٠/٢٣ مع توقيع اتفاق وقف إطلاق النيران في جنيف بين الأطراف المتصارعة، برعاية الأمم المتحدة وبعثة الأمم المتحدة للدعم في ليبيا (UN salutes new UNSMIL. Libya ceasefire agreement that points to 'a better, safer, and more peaceful future', ٢٠٢٠ إلا أن هذا لا يعني أن الصراع في ليبيا قد انتهى لتاريخه، فما قبل اتفاق وقف إطلاق النار سالف الذكر، كانت تركيا تدعم حكومة الوفاق الوطني المُعترف بها من الأمم المتحدة، ومقرها طرابلس لكنها فعلياً تحتفظ بالسيطرة الاسمية على البلاد كونها تواجه ما يُعرف باسم "الجيش الوطني الليبي"[٤] الذي يقوده الجنرال خليفة حفتر ومقره بنغازي، ليتقاسم الطرفان السيطرة على البلاد بين غرب ليبيا المُقرب من تركيا، وشرق ليبيا المُقرب من مصر. لينتقل الصراع بعدها إلى "حكومة الوحدة الوطنية"، إذ تقف تركيا والأمم المتحدة إلى جانب رئيس الوزراء عبد الحميد الدبيبة، والذي رفض تسليم السلطة إلى فتحي باشاغا الذي عينه البرلمان كرئيس للوزراء في ٢٠٢٢/٢/١٠. (UN backs Libya's interim PM despite lawmakers' challenge, ٢٠٢٢

يأتي الدور التركي في الحرب الليبية مكملاً لدورها في الحرب السورية، فضلاً عن مناوشاتها مع دول البحر الأبيض المتوسط الأخرى مثل اليونان وقبرص حول احتياطيات البحر من الغاز الطبيعي والبترول. بالإضافة إلى تزويد حكومة الوفاق الوطني بالأسلحة وتكنولوجيا الطائرات بدون طيار، أرسلت أنقرة آلاف المقاتلين السوريين إلى طرابلس للقتال نيابة عنها. (Is Turkey's

(٤) ظهرت هذه التسمية للمرة الأولى في ١٩٨٨/٦/٢١، حيث أعلنت الجبهة الوطنية لإنقاذ ليبيا تحت قيادة خليفة حفتر تأسيس جناحها العسكري تحت اسم "الجيش الوطني الليبي"، ليكون تنظيماً مسلحاً معارضاً لنظام الحكم في ليبيا حينها بقيادة معمر القذافي. أتى تأسيس هذا التنظيم العسكري عقب أسر عناصر وجيش الضباط الليبيين في الحرب الليبية-التشادية (١٩٧٨-١٩٨٧، والتي انتهت بهزيمة ليبيا حينها. إلا أن التنظيم العسكري سرعان ما تفكك نتيجة المتغيرات السياسية في تشاد، لينتهي المطاف بالعديد من عناصره وقائده للعيش في الولايات المتحدة الأميركية. تكرر استخدام نفس التسمية للقوات المسلحة التي أنشأت من قبل المجلس الوطني الانتقالي الليبي (في شرق ليبيا في العام ٢٠١١، وتم اختيار اللواء حفتر لهذا المنصب.

Military Overstretched?, ٢٠٢٠

لا بد من الإشارة إلى أن تركيا وحكومة الوفاق الوطني وقعتا على الاتفاقية البحرية المتعلقة بتقاسم المنطقة الاقتصادية الخالصة بين البلدين في تشرين الثاني ٢٠١٩ وقامت الأمم المتحدة بتسجيل اتفاقية ترسيم الحدود البحرية بين أنقرة والحكومة الليبية المعترف بها دولياً (لحكومة الوفاق الوطني. (أنقرة تعلن أن الأمم المتحدة سجلت اتفاقية ترسيم الحدود البحرية بينها وبين الحكومة الليبية، ٢٠٢٠ ليوقع وزير الخارجية التركي مولود جاويش أوغلو مع نظيرته الليبية نجلاء المنقوش اتفاقاً في العاصمة الليبية طرابلس بتاريخ ٢٠٢٢/١٠/٣، ليسمح بموجب الاتفاق بالتنقيب عن النفط والغاز في مياه البحر الأبيض المتوسط الليبية من قبل شركات تركية-ليبية مختلطة، وذلك بعد ثلاث سنوات من اتفاق الحدود البحرية. (Turkey and Libya sign maritime hydrocarbons deal, ٢٠٢٢

لاحقاً قامت محكمة الاستئناف في طرابلس-ليبيا بتاريخ ٢٠٢٣/١/٩ بتعليق اتفاق للتنقيب عن الطاقة التي وقعته حكومة طرابلس في العام ٢٠٢٢ مع تركيا، إلا أن وزير الخارجية التركي أشار بعدها إلى أن "هذا الحكم القضائي ليس هو الحكم النهائي. الحكومة (أي حكومة الوحدة الوطنية الليبية ما زالت تدعم الصفقة وأخبرونا أنهم ماضون في العمل اللازم ويجب ألا نأخذ هذا الحكم القضائي بجدية". وهو ما أكده المتحدث باسم حكومة الوحدة الوطنية محمد حمودة في حديثه لرويترز "هذا حكم أولي ... يمكن للحكومة أن تتخذ إجراءات بشأن الشكوى ... بشأن القضية. القضية ليست نهائية حتى يصدر حكم نهائي في الموضوع." (Turkey says Tripoli backs energy deal despite court suspension, 2023)

القسم الثاني - قطر

أعلنت تركيا في عام ٢٠١٩ عن الانتهاء من إنشاء قاعدة عسكرية في قطر سُميت بـ"قاعدة خالد بن الوليد"، علماً أن القوات التركية تتواجد في قطر منذ العام ٢٠١٧ (بداية الحصار الخليجي على قطر، حيث يتواجد ما يقارب ٥ آلاف جندي تركي، الأمر الذي يمثل علامة فارقة لدولة لا تتمتع بحلفاء في الخليج. إذ إن الوجود العسكري التركي استطاع أن يؤمن الاستقرار السياسي لنظام الحكم في قطر تحت تلك الظروف. إن الحديث يتصاعد عن مصالحة خليجية تنهي الانقسام الخليجي، لاسيما بعد تغريدة وزير الخارجية السعودي، فيصل بن فرحان على تويتر قال فيها: "ننظر ببالغ التقدير لجهود دولة الكويت الشقيقة لتقريب وجهات النظر حيال الأزمة الخليجية، ونشكر المساعي الأمريكية في هذا الخصوص، ونتطلع لأن تتكلل بالنجاح لما فيه مصلحة وخير المنطقة." (@FaisalbinFarhan, ٢٠٢٠

القسم الثالث - الصومال

افتتحت تركيا أكبر قاعدة عسكرية لها في الخارج في العاصمة الصومالية في أيلول ٢٠١٧، وذلك لتعزيز علاقاتها مع دولة الصومال، حيث إن هذا التواجد هو استراتيجي بهدف توطيد وجودها

في شرق إفريقيـــا. Turkey opens military base in Mogadishu to train Somali soldiers, 2017 تقـوم القاعـدة العسـكرية بعـدة مهـمات مـن أبرزهـا تمريـن القـوات الحكوميـة الصوماليـة، في معسـكر TURKSOM في العاصمـة الصوماليـة مقديشـو.

الاتفاقيات الثنائية بين البلدين

تاريخ التوقيع	مكان التوقيع	الاتفاق
٢٠٠٩/٤/١٧	أنقرة	اتفاقية تعاون فني
٢٠١٠/٥/٢٢	إسطنبول	اتفاق
٢٠١٢/٤/١٣	أنقرة	اتفاقية تعاون للتدريب العسكري
٢٠١٥/١/٢٥	مقديشو	اتفاقية تعاون في مجال الصناعات الدفاعية

الخاتمة

بنـاءً عـلى مـا عرضنـاه في هـذا المقـال، نـرى أن تركيـا في عهـد الرئيـس أردوغـان قامـت باسـتخدام ميثـاق مـلي مـن أجـل بسـط نفوذهـا المبـاشر في مناطـق تواجـد التركـمان في العـراق وسـورية مـن جهـة مسـتخدمةً حججـاً مختلفـة لتواجدهـا مـن جهـة، وإلى تطويـق الـدول العربيـة في الـشرق أوسـطية عـبر وجودهـا العسـكري في كل مـن قطـر والصومـال وليبيـا مـن جهـة أخـرى، إضافـة لوجودهـا في دول غـير عربيـة محيطـة بالعـالم العـربي منهـا ألبانيـا، جمهوريـة شـمال قـبرص التركيـة، أذربيجـان، ومشـاركتها في قـوات حفـظ السـلام في أفغانسـتان.

عليـه، يتبـين مـما سـبق أن تركيـا اليـوم تمتلـك نفـوذاً عسـكرياً مبـاشراً في الـدول العربيـة ودول أخـرى محيطـة بهـا، بمـا يتخطـى مـا نـادى بـه ميثـاق مـلي في آخـر جلسـة للبرلـمان العثـماني ليصـل لحـد الوجـود العسـكري الـتركي داخـل العـالم العـربي مـن مشرقـه إلى مغربـه، ليصبـح العـالم العـربي سـاحة للتصـارع الإقليمـي التركي-الإيراني-الإسرائيلي-الإثيـوبي عـلى النفـوذ في العـالم العـربي. فهـل تسـعى تركيـا إلى إعـادة رسـم حدودهـا بشـكل لا يتطابـق مـع معاهـدة فرسـاي لترسـم بهـا حـدود تركيـا "الكـبرى" مبنيـة عـلى القوميـة التركيـة؟ ومـا هـو مسـتقبل الأقليـات التركيـة التـي لم يتطـرق لهـا الميثـاق في البلقـان وغيرهـا مـن المناطـق؟ ومـا هـو مسـتقبل اتفاقيـات الطاقـة في الـشرق الأوسـط والبحـر المتوسـط؟

المصادر والمراجع

1- @FaisalbinFarhan. 4 December, 2020. تم الاسترداد من Twitter: https://twitter.com/FaisalbinFarhan/status/1334878254839246856

2- BASIN AÇIKLAMASI. (2015, 11 24. Retrieved from General Staff of the Turkish Armed Forces: http://www.tsk.tr/3_basin_yayin_faaliyetleri/3_1_basin_aciklamalari/2015/ba_97.html

3- Bilgehan Ozturk. (26 4, 2022). Why Turkey Is Conducting Operation Claw-Lock in Northern Iraq Now. تاريخ الاسترداد 18 7, 2022، من Politics Today: https://politicstoday.org/why-turkey-is-conducting-operation-claw-lock-in-northern-iraq-now/

4- Cumhurbaskanı Erdogan'dan 'Misak-ı Milli' mesajı. (19 10, 2016. تم الاسترداد من Hürriyet : https://www.hurriyet.com.tr/gundem/cumhurbaskani-erdogandan-misak-i-milli-mesaji-40252990

5- Erdogan warns against using Ataturk to meet own targets. (10 11, 2017. تم الاسترداد من Anadolu Agency: https://www.aa.com.tr/en/todays-headlines/erdogan-warns-against-using-ataturk-to-meet-own-targets/961753

6- Iraq's Turkmens call for independent province. (2016 October, 2016. تم الاسترداد من Al-Monitor: https://www.al-monitor.com/pulse/originals/201610//turkmens-iraq-mosul-tal-afar.html

7- Is Turkey's Military Overstretched? (8 October, 2020. تم الاسترداد من Foreign Policy: https://foreignpolicy.com/202008/10//turkey-military-overstretched-nagorno-karabakh-turkish-military-presence/#

8- Merve Berker. 19 5, 2022. Operation Claw-Lock is key link in chain of Turkiye's anti-terror operations: National defense minister. تاريخ الاسترداد 18 7, 2022، من Anadolu Agency: https://www.aa.com.tr/en/middle-east/operation-claw-lock-is-key-link-in-chain-of-turkiye-s-anti-terror-operations-national-defense-minister/2591944

9- Mosul, Anglo-Turkish Dispute Over. (21 12, 2020. تم الاسترداد من Encyclopedia: https://www.encyclopedia.com/humanities/encyclopedias-almanacs-transcripts-and-maps/mosul-anglo-turkish-dispute-over

10- Nordic Monitor. 3 6, 2019. تم الاسترداد من Twitter: https://twitter.com/nordicmonitor/status/1103402434767081472?s=09

11- Syria: Photos of Alparslan Celik, rebel leader from Turkey who shot Russian pilot, go viral. (2015, 11 27. Retrieved from International Business Times: https://www.ibtimes.co.in/syria-photos-alparslan-celik-rebel-leader-turkey-who-shot-russian-pilot-go-viral-656993

12- Turkey and Libya sign maritime hydrocarbons deal. 2022, 10 3. Retrieved from France 24: https://www.france24.com/en/live-news/20221003-turkey-and-libya-sign-maritime-hydrocarbons-deal-1

13- Turkey launches Operation Claw-Tiger in northern Iraq. (17 June, 2020. تم الاسترداد من Anadolu Agen-cy: https://www.aa.com.tr/en/middle-east/turkey-launches-operation-claw-tiger-in-northern-iraq/1879479

14- Turkey opens military base in Mogadishu to train Somali soldiers. (30 September, 2017. تم الاسترداد من Reuters: https://www.reuters.com/article/us-somalia-turkey-military-idUSKCN1C50JH

15- Turkish jets strike Kurdish militant targets in northern Iraq. (15 June, 2020. تم الاسترداد من Reuters: https://www.reuters.com/article/us-turkey-security-iraq/turkish-jets-strike-kurdish-militant-targets-in-northern-iraq-idUSKBN23L0UV?il=0

16- Turkish map of 'divided' Iraq triggers criticism. (14 July, 2020. تم الاسترداد من Arab News: https://

www.arabnews.com/node/1704346/middle-east

17- Turkey says Tripoli backs energy deal despite court suspension. (2023, 1 12. Retrieved from Reuters: https://www.reuters.com/business/energy/turkey-says-tripoli-backs-energy-deal-despite-court-suspension-202312-01-/

18- UN backs Libya's interim PM despite lawmakers' challenge. (2022, 2 10. Retrieved from Deutsche Welle: https://www.dw.com/en/un-backs-libyas-interim-pm-despite-lawmakers-challenge/a-60729255

19- UN salutes new Libya ceasefire agreement that points to 'a better, safer, and more peaceful future'. (2020, 10 23. Retrieved from United Nations: https://news.un.org/en/story/20201076012/10/

٢٠- أنقـرة تعلـن أن الأمـم المتحـدة سـجلت اتفاقيـة ترسـيم الحـدود البحريـة بينهـا وبـين الحكومـة الليبيـة. (١٠ October, ٢٠٢٠. تم الاسـترداد مـن France٢٤: https://f٢٤.my/٦w٢T

٢١- مـا هـي بنـود اتفـاق أضنـة الـسرّي بـين أنقـرة ودمشـق حسـبما كشـفتها الصحافـة التركيـة؟! (٢٥ ١, ٢٠١٩. تـم الاسـترداد مـن https://bit.ly/RT: ٢K٥٤٩٦M

الملحق

الخريطة رقم 1 -المناطق المفترض أن تُخضع بشكل مباشر وغير مباشر لحكم الدولة التركية الجديدة بناءً لميثاق ملى

الخريطة رقم 2 -الأراضي التركية بناءً لميثاق ملي

التعليم والتغيير الاجتماعي

د. نوال قاسم يوسف[1]

ملخص البحث:

عالــج البحــث في مضمونــه أهــم التغيــيرات الاجتماعيــة وتأثيراتهــا عــلى قطــاع التربيــة والتعليــم .إذ تــم إدراج التغيــيرات الجغرافيــة، الاجتماعيــة، الصناعيــة، الحضاريــة، والصّحيــة، ونتائــج كل منهــا عــلى المؤسســات التربويــة، بالإضافــة إلى دور التعليــم بعنــاصره المتعــددة مــن مدرســة وطــلاب ووســائل بإحــداث تغيــيرات مهمّــة في المجتمــع، فضــلاً عــن الأســس النفســية والتاريخيــة، والفلســفية والاجتماعيــة التــي يُبنــى عليهــا المنهــج. وتــمّ تســليط الضــوء عــلى الرؤيــة الفكريــة الدافعــة للتغيــير والتقــدم في المجتمــع، والقيــم التــي يكتســبها الأفــراد فتســاهم في إحــداث تغيــير. وتوصــل الباحــث إلى حقيقــة مرادهــا أن التغيّــير معيــار حقيقــة الوجــود، وأنّ الانســان لابــد أن يتكيــف مــع تلــك التغيــيرات والتطــوّرات الحاصلة في المجتمــع. مــن هنــا كان لابــد للمؤسســات التربويــة التأقلــم ومجــاراة التغيــيرات مــن كل الجوانــب، ســواء كانــت مــن ناحيــة مواكبــة التطــور التكنولوجــي، أم مــن ناحيــة الاســاليب، والطــرق، والمناهــج المتقدمــة والمتغــيرة.

The research dealt with the most important social changes and their effects on the education sector, as the many geographical, social, industrial, civilizational, and health changes were included, and the results of each of them on educational institutions, in addition to the role of education with its multiple elements of school, students and teaching aids which can make severe changes in society, as well as the psychological, historical, philosophical and social foundations on which the curriculum is built.

The intellectual vision driving change and progress in society and the values that individuals acquire and contribute to making a change were highlighted. The researcher reached the fact that change is the criterion of the reality of existence, and that man must adapt to those changes and developments in society. Hence, it was necessary for educational institutions to adapt and keep pace with changes in all aspects, whether in terms of keeping pace with technological development, or in terms of advanced and changing methods, and Curriculum.

الكلمات المفتاحية:

التربية و التعليم ـ التغيير الاجتماعي ـ التّكيّف

Key words

Education – Social changes– Adaptation.

(١) دكتوراه في التربية

مقدمة:

تواجه المجتمعات والشعوب تحديات وتغييرات عدة، بل تقلبات تطرأ على مجتمعاتها من وقت لآخر. فتتّسم كل حقبة بسماتٍ عدة إما تكون إيجابيّة، فيتقدم المجتمع ويستفيد المواطن وينعم ويصبو إلى أهداف عدّة يطمح إليها في وطنه ومجتمعه، وإما تدهوراً في مجالات عدة، تسهم في تراجعه وخسارته وبما إحباطه لأنه خسر ماديّاً ومعنويّاً. وهذا شيء طبيعي تعاني منه المجتمعات كافّة، ويعود لطبيعة الأوطان والحكام، والسياسات، والشعوب، والحضارة، والتفكير. ولكن طبعًا بدرجات متفاوتة. ولما كانت هذه التغييرات الاجتماعية ملاصقة للإنسان تؤثر وتتأثر به، لا بد لعناصر عدة في المجتمع أن يلحقها هذا التغيير، وتأخذ به شاءت أم أبت لأن النتائج ستكون في طبيعة الحال مرتبطة به.

والتربية ظاهرة اجتماعية ذلك لأنها لا تتم في فراغ أو من دون وجود المجتمع إذ لا وجود لها إلا بوجود المجتمع، وفضلاً عن ذلك فإن وجود الإنسان الفرد المنعزل عن مجتمعه أو جماعته لا يمكن تصوره بل هو مستحيل.

والتربية في كل أحوالها لا تهتم بالفرد منعزلاً عن المجتمع. بل تهتم بهما معًا وفي وقت واحد من خلال اتصال الفرد بمجتمعه، وتفاعله معه سلبًا وإيجابًا .

تؤدي التربية دورًا مهماً في حياة الأمم. فهي أداة المجتمع في المحافظة على مقوماته الأساسية من أساليب الحياة، وأنماط التفكير المختلفة كما تعمل على تشكيل مواطنيه والكشف عن طاقاتهم.

وبما أنّ التعليم هو المنطلق الأول الذي يمكن من خلاله للمجتمعات إما ان تبصر النور في مجالات عدة، وإمّا أن يلحقها التخلف والتدهور. كان لابد من دراسة التغييرات الاجتماعية العدة التي تؤثر بهذا القطاع التعليمي وتتأثر به. فإما أن تخلخله فيعاني ما يعانيه من ضعف ونقص، وإما ان تساهم في تقدمه ليغدو في الطليعة بوسائله واستراتيجياته، ومبانيه، ومناهجه.

ينطلق البحث من السؤال الرئيس الآتي؟

ـ ما دور التّغييرالاجتماعي في التّربية والتعليم ؟ وإلى أي مدى يسهم في التأثير عليه ؟ وبأيّ مجالات؟

والأسئلة الفرعية:

ـ كيف يساهم التعليم في التغيير الاجتماعي؟

ـ إلى أي مدى تساهم المؤسسات التعليمية بعناصرها المختلفة بمواكبة ومجاراة التغييرات الاجتماعية؟

تعريف التغيير الاجتماعي لغة:

كما جاء في لسان العرب " تغير الشيء عن حاله: تحول. وغَيَّرَهُ : حوَّله وبدَّله، كأنه جعله غير ما كان . وفي التنزيل العزيز:(ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم .(الأنفال / ٥٣ قال ثعلب: حتى يبدلوا ما أمرهم الله...إلى أن قال :

وغِـيرَ الدهـر : أحوالـه المتغـيرة .."[٢]

أمـا "الاجتماعـي" في اللغـة فهـي مـن كلمـة مجتمـع والمجتمـع هـو مصطلـح مشـتق مـن الفعـل جَمَـع، وهـي عكـس كلمـة فـرق، كـما أنّهـا مُشـتقّة عـلى وزن مُفتَعَـل، وتعنـي مـكان الاجتـماع، والمعنـى الـذي يقصـد بهـذه الكلمـة هـو جماعـة مـن النـاس[٣]

تعريف التغيير الاجتماعي اصطلاحًا:

والتغيـير الاجتماعـي هـو تحـول يُحـدث في النظـم والأنسـاق والأجهـزة الاجتماعيـة، سـواء كان ذلـك في البنـاء أم الوظيفـة خـلال فـترة زمنيّـة محـدّدة". ولمـا كانـت النظـم في المجتمـع مترابطـة ومتداخلـة ومتكاملـة بنائيًّـا ووظيفيًّـا فـإن أي تغيـيرٍ لا بـد أن يحـدث في ظاهـرة لا بـد أن يحـدث سلسـلة مـن التغـيرات الفرعيـة التـي تصيـب معظـم جوانـب الحيـاة بدرجـات متفاوتـة. [٤]

والمجتمـع يمكـن تعريفـه اصطلاحـاً أنّـه عـدد كبـير مـن الأفـراد المسـتقرّين الذيـن تجمعهـم روابـط اجتماعيـة ومصالـح مشـتركة ترافقهـا أنظمـة تهـدف إلى ضبـط سـلوكهم ويكونـون تحـت رعاية السـلطة[٥]

وقبـل التعمـق في تأثـير كل مـن المفهومـين أحدهـما عـلى الاخـر لا بـد مـن عـرض أهـم الأسـباب العامـة التـي قـد تقـود للتغيـير.

أولاً: الأسباب التي تقود إلى التغيير

تتغير المجتمعات وتتبدل أوضاعها تبعاً لأسباب عديدة ومنها:

الأسباب الطبيعية :

يحـاول الإنسـان أينـما يعيـش أن يكـون في سـلام مـع الطبيعـة، فيبتـدع الوسـائل ويسـتحدث الأدوات التـي تعينـه عـلى توثيـق صلتـه بالطبيعـة، لذلـك هنـاك تغـيرات طبيعيـة تطـرأ عـلى مجتمعـه وتتعلـق بأسـاليب عيشـه وعلاقتـه بالمجتمعـات المحليـة، والوسـائل التـي تعتمدهـا في تحقيـق أهدافهـا.

فتقلـب المنـاخ، وتغـير الفصـول، وحـدوث الكـوارث مـن عواصـف، وأعاصـير، تدفعـه إلى مغالبتهـا وإتقاء قسـوتها. كـما يضطـر سـاكنو هـذه البيئـات إلى الهجـرة لبيئـات أخـرى فتنشـأ بسـبب ذلـك تحـولات تتعلق بنـوع العمـل وطـرق التفكـير، ووسـائل الانتـاج، وتجـد هـذه التغـيرات صـدى كبـيراً في المجتمعات.

الأسباب الصناعية والتكنولوجية:

أحـدث الانقـلاب الصناعـي ثـورة اجتماعيـة كبـيرة أدى أثرهـا إلى نظـام الحكم ومناهـج التعليم وشـؤون

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج٢،ص١٠٣٥

(٣) المرجع نفسه، ص ١٠٦٠

(٤) ملحس، دلال، التغيير الاجتماعي والثقافي، ٢٠٠٨، ص١٩.

(٥) الجزولي، محمد بن علي "الشَّمَائِلُ النَّبَويَّةُ وأَثَرُهَا في إِصْلَاحِ الفَرْدِ وَالْمُجْتَمَع- جـ ٣، ٢٠١٤، ص ١٢٣.

الاقتصـاد وكيـان الأسرة، ومـا زالـت الصناعـات في تقـدم مطـرد حتـى عصرنـا هـذا، إذ تلاشـت الحواجـز الجامـدة التـي كانـت تقسـم المجتمـع إلى طبقـات وأصبحـت مشـكلات العائلـة تبحـث عـن ضـوء جديـد.

الأسباب الحضارية:

بيـد أن التغيـيرات التكنولوجيـة تـؤدي إلى تغيـير العنـاصر الحضاريـة، وأن العوامـل الحضاريـة تؤثـر بدورهـا في التطـورات التكنولوجيـة فنوجههـا ونحـدد اتجاهها. فالطاقـة الذريـة قـوة ماديّـة عظيمة يمكـن اسـتخدامها في فنـاء العـالم كـما يمكـن الإفـادة منهـا في تحقيـق الرفاهيـة والرخـاء، وتحقيـق السـلام العالمـي . لكـن يتوقـف الاتجـاه الأول أو الثـاني عـلى نـوع التفكـير والتقديـر للقيـم الإنسـانيّة، والأهـداف التـي نريـد الوصـول إليهـا.

والتاريـخ حافـل بحـركات حضاريـة كثـيرة. كحركـة صـلاح الديـن في القـرن السـادس، وفلسـفة الثـورة الفرنسـية والحـركات السياسـية والاجتماعيـة في دول آسـيا وإفريقيـا... وقـد كان لهـذه الحـركات الحضارية أثرهـا في الحيـاة الاجتماعيـة، إذ أصبـح الفـرد غايـة بحـد ذاتـه وليـس وسـيلة لتحقيـق غايـة معينـة. وقـد ذهـب بعـض الاجتماعيـين إلى أنّ جميـع التغيـيرات الاقتصاديـة تنشـأ عـن تغيـيرات حضاريـة. وفي مقدمـة هـؤلاء ماكـس فيـبر الـذي يعـزو ظهـور النظـام الرأسـمالي إلى طبيعـة القيـم الأخلاقيـة التـي يحملهـا أتبـاع المذهـب البروتسـتانتي الذيـن عرفـوا بالمثابـرة والسـعي والعمـل والجهـاد والاقتصـاد في النفقـات. والابتعـاد عـن التبذيـر والغـش والكـذب والنفـاق.

مهـما تكـن أهميـة العوامـل الحضاريـة في التغـيرات الاجتماعيـة، فإنهـا كـما ذكرنـا لا يمكـن أن تنفصـل عـن العوامـل التكنولوجيـة. فالحضـارة تؤثـر في وسـائل الإنتـاج وهـذه الوسـائل بدورهـا تفـرض علينـا اتجاهـات جديـدة وتغـير مـن بعـض عاداتنـا وطـرق تفكيرنـا.

الأسباب الاجتماعية:

تتعلـق هـذه الأسـباب بالتغيـيرات التـي تطـرأ عـلى المبنـى والهيـاكل التركيبيـة للمجتمـع. فـأي تغيـير يطـرأ عـلى المؤسسـات البنيويّـة لا بـد أن يـترك آثـاره وانعكاسـاته عـلى بقيـة المؤسسـات. [٦]

الأسباب الصحية :

تسـاهم التطـورات الصحيـة بالتأثـير عـلى المجتمعـات مـن نـواحٍ عـدّة، وتغـير بخطـط عديـدة كانـت سـائدة مـن قبـل الشـعوب والمجتمعـات لتحـل مكانهـا خطـط أخـرى.

مثـلا: أدّى تفـشي فـيروس كورونـا إلى التأثـير عـلى أنمـاط الحيـاة بمختلـف مجالاتهـا وعنـد الحديـث عـن الجانـب الاجتماعـي يذكـر مـدى تأثُّرهـا والنقلـة الكبـيرة التـي حدثـت بهـا. حيـث تـم تعطيـل المدارس والجامعـات، كـما تـم تغيـير طريقـة العمـل والتعلّـم واللعـب. إذ أصبحـت جميعهـا تمـارس عـن بعـد ومـن

(٦) ملحس، دلال التغير الاجتماعي والثقافي، ٢٠١٦، استيتي كلية العلوم التربوية، الجامعة الاردنية، ٢٠١٠م.

المنـزل، كـما أدى كورونـا إلى إلغـاء البطـولات الرياضيّـة، وإغـلاق صـالات الرياضـة والمطاعـم والمقاهـي ووقـف حركـة الطـيران، والسـفر والتنقّـل والعديـد مـن التغيـيرات الأخـرى الطارئـة والمفاجئـة والتـي كان مـن الصّعـب جـدًّا التأقلـم معهـا والعيـش في ظلهـا[٧].

ثانيًا: نتائج التغيير الاجتماعي على التربية والتعليم.

بـرزت العديـد مـن التغيـيرات وأحدثـت انعكاسـات بشـتى الطـرق عـلى التربيـة في عـدة مجـالات فمـن هـذه التغيـيرات مـا هـو إيجـابي أسـهم في تطويـر الواقـع التربـوي، ومنهـا مـا كان سـلبيًّا أدى إلى تراجعه و تخلخله .

إنّ للابتـكارات العلميـة تأثـيرًا مبـاشرًا عـلى الحيـاة الاجتماعيـة وعـلى سـلوك الأفـراد وعلاقاتهـم الاجتماعيـة، فقـد أدى اسـتخدام التكنولوجيـا في الصناعـة مثـلا إلى ضخامـة الإنتـاج والتخصـص في العمـل، وتركيـز القـوة في المـدن وزيـادة الهجـرة إليهـا، وظهـور علاقـات اجتماعيـة وقيـم فرضتهـا الحيـاة الجديـدة. سـاعدت في إيجـاد تغيـير اجتماعـي سريـع. كـما أن التقـدم التكنولوجـي في المجـالات الطبيـة سـاعد في تخفيـض معـدلات الوفيـات وهـذا يؤثـر عـلى التركيـب السـكاني وبـدوره يؤثـر في الحيـاة الاجتماعيـة. أمـا عـلى صعيـد التربيـة فقـد أسـهم التطـور التكنولوجـي بالعديـد مـن التغيـيرات.

إن اسـتخدام التّكنولوجيـا في التّعليـم جعـل منـه أكـثر مُتعـة بالنسـبة إلى الطُّـلاب، مـما يزيـد مـن دافعيتهـم نحـو التّعلُـم، إذ يُمكـن للـدروس المُلـة أن تُصبـح أكـثر مُتعـة لهـم عـن طريـق العروضـات والفيديوهـات، والمنصـات الغنيـة بالإيحـاءات بالإضافـة إلى الأجهـزة اللوحيةوالفيديـو.[٨]

كـما أن اسـتخدام التّكنولوجيـا في التّعليـم، بمـا في ذلـك شـبكة الإنترنـت أدى إلى زيـادة قُـدرة المُتعلمـين عـلى الوصـول إلى كـمٍّ كبـير ونوعـيّ مـن المعلومـات، والتـي قـد لا تكـون مَذكـورة حتـى في المناهـج الدّراسـية، مـما يوفـر الكثـير في وقـت قصـير، لكـن مـن المهـم للمعلـم أن يزيـد مـن وعـي الطلاب بالطُّـرق الصّحيحـة للوصـول إلى المعلومـات الدقيقـة.[٩] فقـد فقـد أتـاح التقـدم التكنولوجـي إفـراز مـا يسـمى التعليـم عـن بعـد في زمـن كـثرت فيـه الأزمـات، فأحـدث تغيـيرات كـبرى

في الأسـلوب التنظيمـي لعمليـة تقديـم التعليـم لعـل أبرزهـا وأكثرهـا وضوحًـا أنـه لم يعـد مشـترطًا حضـور الطلبـة إلى المدرسـة. فاقتـضى التعليـم عـن بعـد وجـود هيكليـات تختلـف عـما هـو قائـم لـدى المؤسسـات التعليميـة.[١٠]

ولابـد مـن القـول أن توفـر التكنولوجيـا في التعليـم سـهل عمليـة البحـث والحصـول عـلى المعلومـات بكميـات كبـيرة وبوقـت قصـير مـن دون الحاجـة إلى مصـادر ورقيـة. بـل حلـت العديـد مـن المواقـع والكتـب الالكترونيـة والعروضـات مشـاكل عـدة، ووضعـت بـين أيـدي الباحـث والطالـب والمعلـم مـواد مهمـة.

مـن جهـةٍ أخـرى إنّ وجـود التكنولوجيـا وتوفرهـا بشـكل كبير بـين أيـدي الطلبة مـن هواتف وحاسـوب، قـد أدى إلى تطـور تلـك الخدمـة ومتابعـة التعلـم، عـلى الرغـم مـن وجـود الكثـير مـن العقبـات التـي قـد حالـت دون الوصـول والتواصـل بـين المعلمـين والطـلاب عـن قـرب في بعـض الظـروف، مـن ظـروف

(7) "How Is the Coronavirus Outbreak Affecting Your Life?", www.nytimes.com, Retrieved 2020,P204.

(8) Anelle Cox, "Benefits of Technology in the Classroom,2018,P 325

(9) Colin Hegarty ,"'Seven ways technology,2015 ,P 134

(١٠) بيتس، طوني، التكنولوجيا والتعليم الالكتروني والتعلم عن بعد، مكتبة الملك، الرياض، ص ٢٥٣، ترجمة وليد شحادة.

اقتصاديــة، إلى صحيــة، أو اجتماعيــة. فتــم التواصــل ومتابعــة التعلــم ولــو بنســبة قليلــة. إلا أنهــا ســدت ثغــرات عــدة، وعوضــت مســاحات مهمــة كانــت ســتفوت الطــلاب، مــع الأخــذ بعــين الاعتبــار افتقــاد بعــض المجتمعــات والأسر لأجهــزة التكنولوجيــا التــي بدورهــا أثــرت عليهــم . مــن هنــا كانــت الاســتفادة بنســب متفاوتــة.

ولا يخفــى علينــا مــا مــن ســلبيات للتكنولوجيــا في مجــال التعليــم إذ أن أغلــب الطلبــة عنــد بحثهــا عــن إجابــة ســؤال معــين تركــز عــلى إيجــاد إجابــة بســيطة، دون بحــثٍ أو دراســةٍ وافيــةٍ عــن صحــة هــذه الإجابــة، فيعتمــد الطالــب عــلى المعلومــات الســطحية وتجــده غــير مُلــمٍّ بالمــواد الدراســية لديــه، كــما أن اســتعماله للإنترنــت يقلــل فرصــة تواجــده بالمكتبــات، ومراجعــة المراجــع والكتــب التــي تتوفــر فيهــا المعلومــات الصحيحــة.

بمــا أنّ عــالم الإنترنــت مفتــوح وصعــب الإلمــام بــكل مــا يحيــط بــه، ولكــثرة وجــود الإعلانــات عليــه والتــي تظهــر لــكل مــن يقــوم بتصفــح الإنترنــت، كان مــن الســهل أيضــا ظهــور إعلانــات ومواقــع محظــورة ومســيئة للأخــلاق، مــما قــد يجعــل الطالــب يــترك هدفــه لإيجــاد المعلومــة وينســاق خلــف هــذه الإعلانــات.

إنّ اســتخدام الهواتــف الذكيّــة وأجهــزة الحاســوب والأجهــزة اللوحيّــة بــدلاً مــن الورقــة والقلــم أدى إلى تــدنيّ مســتويات الطــلاب في المهــارات الأساســية في التعليــم كالكتابــة الجيــدة. "إذ إنّ العثــور على شــخص يتقــن الكتابــة بخــط جيــد أصبــح قليــلاً، ويذكــر الخــبراء أنّ اســتخدام التكنولوجيــا بــدلاً مــن الكتابــة اليدويــة يُبطــئ عمليــة التفكــير، فعــدم حصــول الخلايــا العصبيــة عــلى أوامــر يجعلهــا غــير فعّالــة وكأنهــا تغــط في ســباتٍ عميــق".[١١]

ســاهم الإنترنــت في تقليــص دور المعلمــين، فأصبــح الطــلاب يعتمــدون عــلى شــبكة الإنترنــت مــن أجــل الحصــول عــلى معلومــة مــا بــدلاً مــن ســؤال المعلــم عنهــا، كــما أنّ التطــور الســريــع والمتواصــل لتقنيــات التكنولوجيــا شــكّل عائقــاً كبــيراً أمــام المعلــم الــذي لا يمتلــك تلــك التقنيــات، مــمّا شــكّل عائقــاً إضافيــاً أمــام المــدارس التــي أصبــح لزامــاً عليهــا اســتقطاب خــبراء التوعيــة التقنّيــة مــن أجــل تدريــب المعلمــين عــلى اســتخدام هــذه التقنيــات والمهــارات، وهــذا بــدوره أدى إلى زيــادة النفقــات.[١٢]

قــدرة المجتمعــات عــلى الانفــاق: قــد تؤثــر قــدرة المجتمــع عــلى الانفــاق عــلى القطــاع التربــوي، فتســاهم بتقدمــه إذا أنفقــت الدولــة وأعــدت مشــاريع وخطــط تنمويــة وتســاهم عــلى العكــس بتأخــره إذا لم تنفــق وتنجــز تقدمًــا عــلى جميــع المســتويات.

ثالثًا: التعليم ودوره في إحداث التغيير

يعــد التعليــم مــن العوامــل التــي عجلــت بإحــداث التغيــير الثقــافي لذلــك فــإن المدرســة عنــصر مهــم مــن عنــاصر تغيــير المجتمعــات، وإحــداث تغيــيرات عديــدة عــبر مناهجهــا وطــرق تعليمهــا.

دور المدرسة في التغيّير الاجتماعي:

إن المدرسة هيئة اجتماعيَّة تساهم في تحقيق أهداف المجتمع وقيمه.

(11) Nancie L Beckelt, Disadventage of technology in education,2018,p 26.

(12) Bekah witten.Technology's Effect on our health, the good,the bad,and the ugly.2018,p 120.

ولكـن هـل يقتـصر عملهـا عـلى نقـل الـتراث الثقـافي وإمـداد الأفـراد بالقيـم والأسـاليب التـي يوافـق عليهـا المجتمـع؟ أم أنهـا تعمـل عـلى تغيـير السـلوك والنظـم الاجتماعيّـة وتطويرهـا؟

إن دور المدرسـة الاجتماعـي عـلى علاقـة وثيقـة بالفلسـفة السـائدة حيـث يشـير كثـير مـن المربـين إلى أنهـا تعمـل عـلى نقـل الـتراث الثقـافي للجنـس البـشري مـن جيـل إلى جيـل كـما يوافقـون عـلى أنهـا تسـتطيع تغيـير وتعديـل

قواعـد السـلوك لمُتعلِميهـا، فمثـلاً: العـالم "كلارك" يقـول "إن المدرسـة تسـتطيع تعديـل السـلوك الاجتماعـي لتلاميذهـا وإنّ هـذا التعديـل يـؤدي إلى تحسـين نـوع المعيشـة في المجتمـع. أمـا العـالم تشـارلز ريـتر فيقـول: إن السـلوك الاجتماعـي للتلاميـذ يمكـن أن يتغـير إذا هـدف التعليـم إلى تحقيـق هـذا التغيـير.

ويعتقـد هـؤلاء المربـون بـأنَّ السـلوك الاجتماعـي يتغـيرٌ عـن طريـق إدخـال الخـبرات التعليميّـة الصالحـة في المناهـج. وعـن طريـق أوجـه النشـاطات المختلفـة وطـرح المشـكلات المهمـة التـي يعـاني منها المجتمـع، وتعليـم الطـلاب كيفيَّـة إيجـاد الحلـول المناسـبة لهـا؛ أمـا العـالم "رالـف لينتـون" فهـو يوضـح قـدرة التربيـة عـلى إحـداث تغـير ثقـافي أسـاسي مـن خـلال قولـه: إنّ مـن غـير المحتمـل أن يتمكّـن المربي مـن إحـداث أي تغيـيرات كبـيرة في ثقافـة المجتمـع. وإنّ قيـام المدرسـة بقيـادة التغـيرٌ الثقـافي وإحـداث تغـير فيـه أمـر صعـب خاصـة وأن المدرسـة كانـت دائمًـا انعكاسًـا للنظـام الاجتماعـي للمجتمـع.[١٣]

والمشـكلة تحديـداً تكمـن في مـدى قـدرة المدرسـة عـلى إحـداث التغيّـير الاجتماعـي المرغـوب فيـه. وقـد تكـون النتائـج التـي توصـل إليهـا العلـماء صحيحـة مـن ناحيـة واحـدة وهـي تعديـل السـلوك الـذي ينتـج عـن تغـير مرغـوب فيـه مـن قبـل المجتمـع، ومـن قبـل سـلطاته القائمـة، ونلمـس هـذا في جوانـب مُحـدَّدة. كتحسـين مسـتوى المعيشـة، والمسـكن، والصحـة، والعلاقـات الشـخصيّة، والاشـتراك في الأمـور العامـة فهـذه الأمـور تسـمح الثقافـة فيهـا بالتغـيرُّ.

إلا أنهـا لا تشـتمل عـلى تغيـيرات أساسـيَّة فالقيـم الأصيلـة للثقافـة، واحتـمال قيـام المدرسـة بهـذه التغيّـيرات الأساسـيّة مـا زال أمـراً لم يتفـق عليـه المربـون؛ فيمكـن القـول إنَّ المدرسـة تتبـع التغـيرّ الثقـافي الاجتماعـي أكـثر مـن أن تقـوم بقيادتـه. فالتربيـة وسـيلة يسـتخدمها النـاس لهـدف معـيّن. وحينـما يتغير الهـدف تتغـيرّ التربيـة ومـع هـذا فـإن دور المدرسـة بوصفهـا قـوة اجتماعيّـة موجّهـة تـبرز أهميتهـا في تخريـج الطاقـات القـادرة عـلى قيـادة المجتمـع والواعيـة لدورهـا الإيجـابي في حـل مشـكلاته. ومـن هنـا نـدرك ضرورة ربـط المنهـج المـدرسي بالتغـيرّ الاجتماعـي ومسـايرة مظاهـره المختلفـة ومشـكلاته المُتعـدّدة.

دور المنهج المدرسي بالنسبة إلى التغيير الاجتماعي:

يقـع عـلى المنهـج المـدرسي عـبء كبـير في توضيـح أسـباب التغـيرّ الاجتماعيَّـة والطبيعيَّـة والبشريـة، ومـدى قوتهـا وتأثيرهـا في المجتمـع وتحديـد أنـواع هـذا التغيـير والدوافـع التـي أدت إلى سـيطرة كل نـوع مـن هـذه الأنـواع عـلى بعـض المجتمعـات بـدون غيرهـا، كذلـك لا بـد للمنهـج مـن أن يعـرض الأمـور التـي تعيـق عمليَّـة التغيـرّ كي يـدرك أنـه عـلى الرغـم مـن وجـود العديـد مـن عوامـل التغيّـير. إلا أنـه قـد تفـرض بعـض القيـود نفسـها بحيـث تُقلِّـل مـن إمكانيّـة حـدوث هـذا التغـيرّ، أو تحـد مـن أثـره عـلى الأقـل، ومـن الأمـور التـي يجـب عـلى المناهـج المدرسـيّة مراعاتهـا:

أن يهتـم المنهـج بمـا تعلمـه الأطفـال داخـل أسرهـم قبـل التحاقهـم بالمدرسـة حتـى يسـتطيع تصويـب مـا قـد يكـون لديهـم مـن أخطـاء، وأن يراعـي مسـتوى النضـج الـذي وصـل إليـه التلميـذ وحاجاتـه

(١٣)سعيداني، منير التغير الاجتماعي والتحول السيسيولوجي، القاهرة، ٢٠١٨ ص، ٢٤

وميولـه واسـتعداداته، وبمـا أن دور المدرسـة تربـوي مكمـل لـدور الأسرة. فـإن عـلى المنهـج أن يتيـح فرصًـا مُتنوعـة للمُـدرّس تسـاعده عـلى فهـم أهـم المؤثـرات التربويّـة ويسـتخدمها للتعـرُّف إلى نواحـي القـوة ونواحـي الضعـف في تلاميـذه[١٤].

عـلى المنهـج أن يسـتغل علاقـات التلاميـذ بالآخريـن خـارج الأسرة كأسـاس هـام في النشـط والتوجيـه والتعليـم، وفي الوقـت المناسـب لنمـو التلاميـذ، يوجـه المنهـج المـدرسي إلى توسـيع نطـاق اتصالاتـه وعلاقاتـه بالأشـخاص والجماعـات، ويهيـئ الفـرص التـي تسـاعد عـلى فهـم مـا في مجتمعـه مـن نشـاط وأهـداف فهـمًا سـليمًا. بـل ويتيـح المنهـج السـليم فرصًـا مُتنوعـة لملاحظـة الطفـل في علاقاتـه خـارج المدرسـة وعـلى أسـاس نتائـج هـذه الملاحظـة يوجـه الطفـل توجيهًـا يسـاعده عـلى اكتسـاب السـلوك السـليم.

أن يسـاعد المنهـج التلميـذ عـلى اسـتخدام الأسـلوب العلمـي في التفكـير حتـى يسـتطيع التصـدّي لمـا قـد يعيـق القضـاء عـلى مشـكلات حياتـه في البيئـة التـي يعيـش فيهـا، ومـن ثـم يصبـح التلميـذ قـادراً عـلى التغيـير وليـس عقبـة في سـبيله.

أن تكـون المناهـج مرنـة قابلـة للتعديـل؛ فيجـب أن تتغـيّر المناهـج بتغـيّر الظـروف التـي تطـرأ عـلى المجتمـع لتصبـح متمشـية مـع هـذا التغيّـير ولتظـل قائمـة بوظيفتهـا بوصفهـا أداة سـليمة لتربيـة الأبنـاء، وإلا فإنهـا تكـون مناهـج متخلفـة لا تصلـح لهـذا المجتمـع بعـد تغيـيره. يجـب أن يسـهم المنهـج في تحقيق توعيـة المُتعلّمـين لوجهـة التغيـير بحيـث يصبـح لديهـم اتّجـاه إيجـابي نحـو التغـيّر المنشـود، مـن خـلال توضيـح مزايـا التغـيّر الإيجـابي البنـاء؛ ومـن حيـث تحقيـق تقـدم المجتمـع ورقيـه والارتفـاع بمسـتوى معيشـة الفـرد.

وإذا كان المنهـج المـدرسي يمكنـه الإسـهام في تحقيـق تكيـف المُتعلِّمـين للتغـير المرغـوب فيـه، أو يمكـن تحقيـق توعيتهـم وإعدادهـم للوقـوف ضـد التغـيّر غـير المرغـوب فيـه فإنـه يمكـن كذلـك التمهيـد لتحقيـق التغـيّر المطلـوب عـن طريـق تنميـة كل مـن التفكـير العلمـي، والتفكـير الناقـد والتفكـير الإبداعـي لـدى المُتعلّمـين.

ويمكن أن تجتمع الأسس التي تقوم عليها المناهج فيما يأتي:

الأسس التاريخية.

الأسس الفلسفية.

الأسس الاجتماعية.

الأسس النفسية.

عـلى أن مـا يهمنـا في هـذا البحـث هـو الأسـس الاجتماعيَّـة. فمـن العوامـل الرئيسـة التـي يجـب مراعاتهـا عنـد إعـداد المناهـج هـي دراسـة حاجـات المجتمـع الثقافيَّـة، والاجتماعيَّـة المختلفـة لتوفـير الحيـاة المناسـبة لجميـع أفـراده، ويجـب عنـد إعـداد المناهـج دراسـة المشـكلات الخاصـة بالمجتمـع وتحديـد الخـبرات التعليميّـة التـي يحـب أن يدرسـها التلاميـذ، سـواء كانـت هـذه المشـكلات اجتماعيّـة كزيـادة السـكان، أم اقتصاديّـة كسـوء اسـتغلال الـثروات الطبيعيّـة والبشريّـة، أم سياسـيَّة كتحريـر الأرض[١٥].

وعـلى المناهـج أن تعـرّف التلاميـذ بهـذه المشـكلات وأن تسـاهم في توعيتهـم بهـا واتخـاذ مواقـف معينـة تجاههـا، كـما وأن أي قـرار بشـأن المناهـج يجـب أن يتـم في ضـوء القيـم الاجتماعيّـة التـي تمثـل معايـير

(١٤) مرعي، توفيق، المناهج التربوية الحديثة، دار المسيرة للطباعة والنشر، ٢٠١٤،ص ١٢٧

(١٥) مرعي، توفيق، المناهج التربوية الحديثة،مرجع سابق، ص ٢٠٣.

المجتمع ومثله العليا التي يسير على هديها. ومن هذه القيم الاجتماعيّة احترام كل فرد في المجتمع، وتكافؤ الفرص بين الأفراد وتنمية كل فرد تبعًا لاستعداداته والإيمان بقدرة الإنسان على حل المشكلات والتعاون بين الأفراد لخدمة الصالح العام.(١٦)

ويعتبر باولو فريري Paulo Freire البرازيلي(١٧) المولد والنشأة من أبرز المفكرين المعاصرين الذين كرسوا حياتهم من أجل الارتقاء بمستوى التعليم ومزجه مع الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي، وتغيير أوضاع الفقراء والمهمشين والمستضعفين على مستوى العالم تغييراً جوهرية نحو الأفضل.

إذ يرى فريري في التعليم وسيلة للثورة على القهر، وصولاً إلى الحرية وإلى تمكين المقهورين من مقدراتهم، ومنهجه في تحقيق ذلك يرتكز على الحوار الذي يتبادل فيه المعلم والمتعلم دوريهما، فيتعلم كل منهما من الآخر، ويصبح موضوع الحوار الذي يدور في الغالب حول أوضاع المتعلمين المقهورين الحياتية هو المدخل إلى تعليمهم القراءة والكتابة .وهذا المنهج مناقض للمنهج الذي أسماه فريري، التعليم البنكي، الذي يقوم فيه المعلم بإيداع المعلومات التي تحتويها المقررات، سابقة التجهيز في أدمغة المتعلمين، الذين يقتصر دورهم على التلقي السلبي لتلك الإيداعات، ومن شأن ذلك التعليم البنكي أن يخرج قوالب مكررة من البشر تساهم في تكريس الوضع القائم، ولا تسعى إلى تغييره مهما احتوى من أوضاع جائرة. (١٨)

إن الكثير من التربويين وعلماء الاجتماع يتفقون على أهمية التربية والتعليم في التغير الاجتماعي، ولكنهم يختلفون في أولوية هذا الدور أو كونه ثانويًا بالنسبة إلى عوامل التغير الأخرى، والتربية لا يمكن أن تتم في فراغ وبالتالي فهي تعيش في مجتمع. ذلك لأنها أداة المجتمع في تشكيل الأفراد الذين لا يمكن لهم أن ينمو في عزلة. فهي عملية اجتماعية وتختلف من مجتمع لأخر حسب طبيعة المجتمع والقوى المؤثرة فيه بالإضافة إلى القيم التي يعيش على أساسها، ويطرح الأكاديميون التربويون ثلاثة نماذج للعلاقة بين الطرفين، يتمحور النموذج الأول في أن المؤسسات التربوية عنصر تابع لأنظمة المجتمع الأخرى الأكثر فعالية وأن دور المؤسسات التربوية إنما هو ترسيخ القيم والمفاهيم والسلوكيات القائمة وتربية النشء على ثقافة المجتمع.

وفي المقابل هناك من يرى أن التربية ومؤسساتها قادرة على صنع التغيير وأن المجتمع ومؤسساته الأخرى تبع للمؤسسة التربوية التي يمكنها القيادة. أما الاتجاه الثالث فيتراوح بين الأول والثاني ويرى أن العلاقة متبادلة وأن التأثير ينتقل من المؤسسات التربوية وهي تستقبله في الوقت ذاته.(١٩)

هذا ويمكننا عمومًا تفصيل دور التربية إزاء إحداث تغيير اجتماعي إيجابي في المجتمع على النحو التالي:

(١٦) محمود، عاطف، تقويم المناهج التعليمية، د،ط، ٢٠٠٥، ص ٤٥.

(١٧) باولو ريجلوس نيفيس فريري معلم برازيلي وصاحب نظريات ذات تأثير كبير في مجال التعليم.

(١٨) فريري، باول، علوم التربية الدار المصرية اللبنانية السلسلة: آفاق تربوية متجددة، ٢٠٠٧ ص ١٨٧

(١٩) طبال، لطيفة،التغيير الاجتماعي ودوره في القيم التربوية، مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية، ٢٠١٢م، ص ٤٠٦

أولاً/ بناء الرؤية الفكرية الدافعة للتغيير والتقدم في المجتمع:

اختلف الباحثون والمفكرون في تحديد علاقة التربية بالمجتمع، فمنهم من رأى بأن التربية هي الوسيلة الوحيدة لاستقرار المجتمع وأنظمته وقيمه وأوضاعها الاجتماعية. بينما رأى فريق آخر أن التربية وسيلة لإصلاح المجتمع وتحسينه وتقدمه وتطوره. إن هذه الرؤية تختلف في منظور الفكر المثالي عنها في منظور الفكر الواقعي ومهما يكن مضمون هذا التغير فهو إضافة ليست قابلة للتحقيق تلقائيًا من دون عمل الإنسان وبذلك يتحتم اتِّباع الأسلوب العلمي في التحكم في مسيرة هذا التغير بحيث يكون تغيرًا متوازنًا متكاملاً يفضي إلى التطور والنمو والتقدم. ولاشك في هذا أن التربية تحرر الإنسان وتطلق مواهبه وقدراته فيتمكّن من المشاركة الفاعلة في تغير مجتمعه[٢٠].

ثانياً/ إكساب الأفراد القيم والاتجاهات المساهمة في إحداث التغير وتقبل نتائجه:

إن الذي يخلق الأمم والحضارات هو القيم التي يؤمن بها أبنائها وشواهد التاريخ العديدة أمثلة صارخة على القول، فهي تبين أن الأمم التي استطاعت أن تنهض نهوضًا سريعًا، وتخلق حضارات جديدة هي التي عرفت أن تجمع بين المهاد العلمي التقني من جهة، والقيم الفكرية والقومية والإنسانية من جهة ثانية. فالقيم والأخلاقيات الحميدة هي الركيزة الأساسية التي تقوم عليها الحضارات وبالتالي فهي تعد مؤشرات للحضارة. فالمجتمع الذي يحمل أفراده قيمًا وأخلاقيات مجتمع يتنبأ له بحضارة ورقي وازدهار.

ويتضح أهمية الدور الذي تقوم به منظومة القيم في تاريخ المجتمعات البشرية. فهي رديف وشريك لابد منه في مسألة بناء المجتمع وتطوره أو تغير أوضاعه. فالقيم تحرك سلوك الإنسان وتتحكم به إلى درجة كبيرة، والإنسان بدون الإيمان بقيم معينة يصبح كائنًا فيزيولوجيًا فلا بد للقيم إن تصبح جزءًا من مثل هذه الأهمية في حياة المجتمع وتطوره التكوين النفسي العقلي للإنسان كي تكون موجهة للسلوك. وهكذا يتضح أن تشكيل القيم والتأثير فيها يقع إلى حد كبير ضمن نطاق العمل التربوي. وعلى هذا الأساس يمكن النظر إلى التربية بوصفها أداة تسهم في تغير شخصية المجتمع. فعن طريقها يمكن التحكم بالقيم السائدة سواء بإقرارها وترسيخها أن كانت مقبولة أو تغييرها إذا كانت يشوبها شائبة. ومن هنا التربية بهذا المعنى أداة تغير في المجتمع أن شاء لها مجتمعها أن تكون كذلك، وعلى هذا الأساس يبدو أن أي تغير في منظومة القيم السائدة في المجتمع لابد أن يبدأ من المؤسسات التربوية بشكل أساسي.[٢١] وبذلك يمكن للتربية أن تكون طوق النجاة، كما يمكن أن تكون جذر الفساد والقيم، هي التي تمنح الشرعية لفعل ما فيكون مقبولاً في المجتمع أو مرفوضًا. وهي بهذا تمثل مرجعية للسلوك ومصدرها ربما الشريعة المنزلة أو اجتهادات العلماء، أو ما وضعه المجتمع أو ما استقر في المجتمع نتيجة حوادث معينة.

(٢٠) حمداوي، جميل، سوسيولوجيا التربية،، دار شبكة الالوكة، د،ط، د،ت، ص ٨٧.

(٢١) طبال، لطيفة،التغيير الاجتماعي ودوره في القيم التربوية،مرجع سابق، ص ٩٨

الخاتمة:

ونخلص إلى القول إنَ التغيّير هو معيار حقيقة الوجود. فهو موجود في كل مكان، وبدلاً من الكون المطلق الذي آمن به الفلاسفة القدماء والذي تكون من صور وثوابت، أصبح الآن يقدم لوناً من الحياة غير متناهٍ من حيث الحدود والأبعاد. فالإنسان اليوم يعيش في عالم مفتوح ومُتنوّع خلافًا لما عاشه في الماضي. فيصبح معه لزامًا على المدرسة، والمنهج، والبيت، أن تتكيف مع التغييرات والتطوّرات الحاصلة في المجتمع. ونظم التعليم باتت تتأثر بسرعة بما يدور حولها من تغييرات، مطلقة العنان لمؤسساتها التربوية التأقلم ومجاراة التغييرات من كل الجوانب، سواء كانت من ناحية مواكبة التطور التكنولوجي، أم من ناحية الاساليب، والطرق، والمناهج المتقدمة والمتغيرة، والتي من شأنها ان تنهض بالعملية التربوية، لأننا بتنا في عصر التغييرات الآنية التي لابد القبول بها والعمل على مظاهرها.

وكذلك لا يخفى ما للتّربية والتعليم من أثر هام على إحداث تغييرات عدّة، فهي كما ذكرنا ونؤكد بانها طوق النجاة للمجتمع والتحرر للوصول إلى التقدم والتطور على مستويات عدّة. فالمجتمع الذي لاقت مؤسساته التربوية والتعليمية تقدّمًا في جوهرها أنتج عقولاً مبدعة، وحافظ على قيم من شأنها ان تدفع المجتمع للازدهار واللحاق بركب التطور والتقدم.

المراجع:

١- ابن منظور، لسان العرب، ج٢.

٢- بيتس، طوني، التكنولوجيا والتعليم الالكتروني والتعلم عن بعد، مكتبة الملك، الرياض، ترجمة وليد شحادة.د.ط.

٣- الجزولي، محمد بن علي "الشَّمَائِلُ النَّبَوِيَّةُ وأَثَرُهَا فِي إِصْلاَحِ الفَرْدِ وَالمُجْتَمَع- جـ ٣، ٢٠١٤.

٤- حمداوي، جميل، سوسيولوجيا التربية،، دار شبكة الالوكة، د،ط، د،ت.

٥- سعيداني، منير التغير الاجتماعي والتحول السيسيولوجي، القاهرة، ٢٠١٨.

٦- طبال، لطيفة،التغيير الاجتماعي ودوره في القيم التربوية، مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية، ٢٠١٢.

٧- فريري، باول، علوم التربية الدار المصرية اللبنانية السلسلة: آفاق تربوية متجددة، ٢٠٠٧

٨- محمود، عاطف، تقويم المناهج التعليمية، د،ط، ٢٠٠٥.

٩- مرعي، توفيق، المناهج التربوية الحديثة، دار المسيرة للطباعة والنشر، ٢٠١٤.

١٠- ملحـس، دلال التغـير الاجتماعـي والثقـافي، اسـتيتي كليـة العلـوم التربويـة، الجامعـة الاردنيـة، ٢٠١٠م.

11- "How Is the Coronavirus Outbreak Affecting Your Life? www.nytimes.com, Retrieved 2020.

12- Anelle Cox, "Benefits of Technology in the Classroom,2018 .

13- Bekah witten.Technology's Effect on our health, the good,the bad,and the ugly.2018.

14- Colin Hegarty ,"'Seven ways technology,20

15- Nancie L Beckelt, Disadventage of technology in education,2018.

التعليم عن بعد: تقنيات التعلم الآلي لفهم التقييم واستنتاجه مع أسباب التقييم السلبي

عمر الكوسا[١]*

الملخص

لم يقتصر تأثير ظُهور فايروس كورونا (Covid-١٩، على القطاع الصّحي فحسب، بل طال كافّة القطاعات، ومنها القطاع التّربوي[٢]؛ فانتقلت العمليّة التّعليميّة حُضوريًّا إلى التّعليم عن بُعد[٣]، من دون تأهيل كافٍ للمعنيين بالعمليّة التّربويّة، وهذا ما تطلّب تقييمًا لتجربتهم الجديدة.

تكمُن المُشكلةُ في عدم وُجود تقييم يعتمد على التّكنولوجيا الحديثة المُتمثّلة بالذّكاء الاصطناعي، بل ما أُنجز سابقًا كان عبارةً عن استمارات ذات أجوبة مُغلقة، تُوزَّع على الكادر التّعليمي (كما في الجامعة اللُّبنانية[٤]، تحتوي على العشرات من الأسئلة المُحدّدة، والتي تَحُدُّ من حُريّة الشّخص المُقيِّم، إلى جانب عدد من صفحات الويب التي تحتوي على نماذج تُشبه - إلى حدٍ ما - الاستمارات أو النّماذج الخاصة بمايكروسوفت (Microsoft أو غوغل (Google، مثل: "مشروع التّعليم السّوري/ الأُردُني"[٥]، استبيان من وزارة التّعليم العالي الأردُنيّة والبحث العلمي[٦]، استبيان من مركز البحث في الاقتصاد الجزائري المُطبّق من أجل التّنمية (CREAD[٧] ونموذج استبيان أُعِدّ لنيل درجة الماجستير في الجامعة اللُّبنانيّة[٨]. ولتسهيل عملية التقييم وترك الحرية لكل شخص للتعبير بطريقته قمنا بإنشاء برنامج يعتمد على الذّكاء الاصطناعي - تقنيّة تعلُّم الآلة - لتقييم موضوع التّعليم عن بُعد، وذلك عبْر فرز تعليقات المعنيين بالعمليّة التّربويّة الإيجابية منها عن السّلبية، مع استخراجٍ لأسباب التّعليقات السّلبيّة لدراسةِ حُلولٍ لها.

قد تمّ جمعُ العيّنات الخاصة بتعلم الآلة عن طريق الوثائق والمُقابلة، فتمّ جمع حوالي ٥٠٠ تعليق ما بين إيجابي وسلبي، كما تمّ تعزيزها بقاموس لُغوي يحتوي على ما يزيد عن ٧٠٠٠ كلمة.

الكلمات المفاتيح: التّعليم عن بُعد، الذّكاء الاصطناعي، تعلُّم الآلة، التقييم الإيجابي، التقييم الإيجابي، أسباب التّعليقات السّلبيّة.

(١)* استاذ في الجامعة اللبنانية: كلية العلوم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، كلية التربية، omar.koussa@ul.edu.lb

(٢) https://blogs.worldbank.org/ar/education/managing-impact-covid-١٩--around-world-how-countries-are-education-systems, كاليوبي قازي، هقتيغران شميس, ٢٠٢٠, reviewed in ٢٠٢٢/٧/١٦

(٣) https://blogs.worldbank.org/ar/education/educational-challenges-and-opportunities-covid-١٩-pandemic, خايمي سافيدرا, ٢٠٢٠, reviewed in ٢٠٢٢/٧/١٦

(٤) استبيان حول فاعلية استخدام التعليم الالكتروني-عن بعد- في الجامعات اللبنانية.(google.com

(٥) استبانة مدى فاعلية التعلم عن بعد– AR.EDU-SYRIA

(٦) استبانة مدى فاعلية التعلم عن بعد. (Google.com)

(٧) Covid-١٩ التعليم الجامعي في مواجهة جائحة(google.com).

(٨) استبيان مدى فاعلية التّعلُّمِ منْ بُعدٍ لعام الدراسي ٢٠٢٠-٢٠٢١- SurveyHeart.

Abstract

The impact of the emergence of the Corona virus (Covid-19 was not limited to the health sector only, but also affected all sectors, including the educational sector. The educational process moved in person to distance education, without sufficient qualification for those involved in the educational process, and this required an evaluation of their new experience.

The problem lies in the lack of an assessment based on modern technology represented by artificial intelligence. Rather, what was previously accomplished were closed-answer forms distributed to the educational staff (as in the Lebanese University, containing dozens of specific questions, which were selected from In addition to a number of web pages that contain forms that resemble – to some extent – forms or forms for Google or Microsoft, such as: "The Syrian / Jordanian Education Project", a questionnaire from the Jordanian Ministry of Higher Education and Scientific Research, a questionnaire from the Research Center In the Algerian Applied Economy for Development (CREAD and a questionnaire form prepared for obtaining a master's degree at the Lebanese University. To facilitate the evaluation process and to leave the freedom for each person to express in his own way, we have created a program based on artificial intelligence – machine learning technology – to evaluate the subject of distance education, by sorting the comments of those involved in the educational process, positive ones from negative ones, and extracting the reasons for the negative comments to study solutions for them.

Machine learning samples were collected through documentation and interview, about 500 positive and negative comments were collected, and were supplemented with a linguistic dictionary containing more than 7000 words.

Keywords: Distance education, artificial intelligence, machine learning, positive evaluation, positive evaluation, reasons for negative comments.

مقدمة

مُنـذ اللّحظـات الأولى لظُهـور فايـروس كورونـا (Covid-١٩، بـدأت التّحدّيـات عـلى الصُّعـد كافّـةً لمُواجهـة خطـر هـذه الجائحـة، سـواء عـلى الصّعيـد الطبّـي، المهنـي، أو التّربـوي.(٩)

عـلى الصعيـد التربـوي وجـدَتْ المـدارس والجامعـات نفسـها أمـام تحـدٍ لم تُواجهـه مـن قبـل، مـمّا اضطرّهـا في بدايـة الأمـر إلى إيقـاف الرّسـالة التّعليميـة لعـدّة أيـام، ومـن ثُـمّ اسـتئنافها، ولكـن بالحُضور الافـتراضي لا الشّـخصي.

(٩)https://blogs.worldbank.org/ar/voices/covid-١٩-and-caribbean-america-latin-view-response-and-challenges, لويـس بنفينيسـتي, ٢٠٢٠, reviewed in ٢٠٢٢/٧/١٨

مـع انقضـاء العـام الـدّراسي السّـابق، والـذي كان النّصـفُ الثـاني منـه بمثابـة عمليّـة ترقيـع، بسـبب مـا عصـف بـه مـن تغيـير في الظّـروف والطُّـرُق التّعليميـة المُعتـادة، كان لا بُـدّ مـن الوقـوف عـلى مُجريـات هـذا التغيـير، لإعـادة النّظـر بالوسـائل والتّقنيّـات التـي اسـتُعملت، وتقييمهـا، تـدارُكًا للأخطـاء المُتكـرّرة، ومُحاولـة لإيجـاد حُلـول ناجعـة للعقبـات القائمـة.

لكـن كل الدراسـات والاسـتبيانات اقتـصرت عـلى الأسـاليب التقليديـة لإجـراء عمليـة التقييـم، متجاهلـة التطـور الحـالي لتقنيـات الـذكاء الاصطناعـي التـي تسـاعد عـلى جمـع النتائـج وتقييمهـا بوقـت وجهـد أقـل، ومفسـحة المجـال أمـام الفئـة المسـتهدفة بالتعبـير عـلى طريقتهـم.

مـع العِلـم بـأنّ اسـتقراء وتحليـل رُدود المعنيـين مـن أسـاتذة وطُـلّاب وأوليـاء أُمـور والمعنيـين في هـذا الموضـوع كافّـة، وقـراءة تعليقاتهـم، وتصنيـف هـذه التعليقـات تصنيفًـا آليًّـا، بشـكلٍ سريـع ودقّـة عاليـة، مـن الأُمـور المُهمـة التـي يجـب أن تُطـرَح وتُعتَمـد لمـا لهـا مـن فائـدة في اختصـار الجُهـد والوقـت والكلفة الماديّـة عـلى الدّارسـين، ولذلـك اسـتحدثنا برنامجـاً حاسـوبياً يعتمـد عـلى تقنيّـة الـذّكاء الاصطناعـي (Artificial Intelligence، وخُصوصًـا مجـال التّعلُّـم الآلي، فبدأنـا بتعليـم البرنامـج كلـمات كُلّ صنـف، وتدريبـه عـلى مهـارة تحليـل النّـص، لفـرز التّعليقـات وتمييـز الإيجابيّـة منهـا مـن السّـلبيّة، مـع تحديـد الأسـباب التـي تعـترض سـير عمليّـة التّعليـم عـن بُعـد، للمسـاعدة عـلى إيجـاد الحُلـول والأفـكار التـي يُمكـن أن تُحسّـن مـن مُسـتوى تلـك العمليّـة وفعاليتهـا.

أهميّة الدّراسة

في سـابقة لا مثيـل لهـا، وجدنـا أنفُسـنا أمـام واقـع جديـد وظُـروف صعبـة لم نعشـها مـن قبـل، وتحديـدًا في الشّـهر الثّالـث مـن العـام ٢٠٢٠، بعـد ظُهـور فايـروس كورونـا (Covid-١٩، المُنتـشر انتشـارَ النّـار في الهشـيم - رغـم الإجـراءات الاحترازيّـة - في سـائر أنحـاء الكُـرة الأرضيّـة، ليُصيـب عصـب الحياة البشريّـة المُعتـادة - عـلى جميـع الأصعـدة - إصابـة بالغـة. وكان للُبنـان النّصيـب الأوفـر مـن بـين العديـد مـن الـدُّول التـي تأثّـرت بهـذا الفايـروس.

لم يقتـصر تأثـير الفايـروس عـلى القطـاع الصّحـي فحسـب، بـل طـال كافّـة القطاعـات، فـكان للقطـاع التّربـوي الحـظ الوافـر مـن التّـأزُّم بسـببه، مـما اضطُّـر المُؤسّسـات التّربويّـة إلى وقـف التّعليـم الحُضوري، خشـية انتقـال العـدوى بـين أفرادهـا، سـواءً الأسـاتذة أو التلامـذة الموظّفـون. واضّطـرت تلـك المُؤسّسـات للُّجـوء إلى عمليـة التّعليـم عـن بُعـد.[١٠] وتكمُـن المُشـكلة هُنـا، في افتقـار المعنيـين إلى سُـبُل التّعامُـل مـع هـذه الآليّـة المُسـتجدّة.

بمـا أنّهـا التّجربـة الأولى لعمليّـة التّعليـم عـن بُعـد للكثـير مـن المُؤسّسـات التّربويّـة سـواءٍ الرّسـميّة والخاصّـة، الأكاديميّـة المهنيّـة، فقـد بـدأت الاجتهـادات - سـواءٍ الفرديّـة منهـا والمُؤسّسـاتيّة - لوضـع خُطـة سريعـة للتّعامُـل مـع هـذا الواقـع المُسـتجد[١١]، ودراسـة أفضـل السُـبُل والوسـائل التـي يُمكـن

(١٠) يجـب التّنبُّـه إلى أنّ التّعليـم عـن بُعـد لم يكُـن مُرخّصًـا مـن قِبـل وزارة التّربيـة اللُّبنانيّـة ولا تُعـادل أيّ شـهادة حـاز عليهـا صاحبهـا عـن طريـق التّعليـم عـن بُعـد، ولذلـك أي قـرار يسـمح بالتّعليـم عـن بُعـد إلى الآن يعتـبر آنيًـا.

(١١) ١٩-covid-versus-learning-distance/articles/news/arabic/com.scientificamerican.www://https/, هـاني زايـد, ٢٠٢٠, reviewed in ٢٠٢٢/٧/١٨

السّـير بهـا للوُصـول إلى النّتائـج المرجُـوّة منهـا.

فمـن المُتخصّصـين مـن لجـأ إلى اسـتخدام وسـائل التّواصُـل الاجتماعـي - التـي لم تُعَـد أصـلاً لمثـل هـذا الغـرض – للتّواصُـل مـع طُلّابـه وشرح الـدُّروس لهُـم، فعمَـدَ إلى إنشـاء مجموعـات لـكُلّ مـادة مـع تحديـد الصّفـوف والأُسـتاذ المُـشرف عليهـا عـبر تطبيـق ال (WhatsApp، لتقتـصر العمليّـة عـلى إرسـال نُصـوص مُرفقـة ببعـض الصُّـور التّوضيحيّـة - إذا لـزم الأمـر - يتبعُهـا تسـجيل صـوتي يُـشرح بـه مـا أُرسـل. فوجدنـا القليلـين منهُـم مـن كان جاهـزًا للتّعامُـل مـع التّكنولوجيـا، لذلـك قـرّروا التّحـوُّل نحـو المنصّـات، سـواءٍ المدفوعـة أو شـبه المجّانيّـة التـي تُتيـح التّفاعُـل عـن بُعـد. وأكثرُهـا شُـهرة خـلال انتشـار هـذه الجائحـة (Microsoft Teams و(Zoom و(Google Meet و(Google Classroom وغيرهـا مـن التّقنيّـات التـي رُبمّـا تُسـاعد أكـثر مـن غيرهـا في إنجـاح عمليّـة التّعليـم عـن بُعـد.

ومـع اسـتمرار الأزمـة فـإنّ العديـد مـن المُؤسّسـات التّعليميّـة بـاشرت بالتّعليـم عـن بُعـد أيضًـا في العام الـدّراسي الجديـد، بالرّغـم مـن وُجـود الصُّعوبـات نفسـها التـي كانـت تعـترض العمليّـة أثنـاء العـام الـدّراسي السّـابق.

المُتعلّـم غـير جاهـز تمامًـا، ولا المُعلّـم مُجهّـز ومُـدرّب لهـذا النّـوع مـن التّعليـم، بالإضافـة إلى ضُعـف - إن لم يكُـن غيـاب - البُنيـة التّحتيّـة المطلوبـة للقيـام بهـذه العمليّـة (إنترنـت سريـع، تغذيـة كهربائيّـة ٢٤/٢٤، أجهـزة إلكترونيّـة مُناسـبة.

بنـاءً عـلى مـا سـبق تبلـورت ونشـأت أهميّـة البحـث، والتـي تكُمـن في ضرورة توصيـف وتقييـم لمـا جـرى في الشّـق الثّـاني – تقريبًـا - مـن العـام الـدّراسي السّـابق، ومـا نتـج عنـه مـن تَحَـوُّلٍ سريـعٍ - دون تخطيـط مسـبق - مـن عمليّـة التّعليـم حُضوريًـا إلى عمليّـة التّعليـم عـن بُعـد.

فائـدة ذلـك كُلُّـه تنصـبُّ في الاسـتفادة مـن الأخطـاء السّـابقة، والعمـل عـلى تفاديها وعـدم الوُقـوع بها، ومـن ثُـمّ تحديـد العقبـات التـي تُواجـه التّعليـم عـن بُعـد في الجمهوريّـة اللُّبنانيّـة، مـع بـذل المُحـاولات لإيجـاد بعـض الاقتراحـات التـي سـتكون بمثابـة حُلـول في وجـه تلـك العقبـات، مُـرورًا بالإيجابيّـات التـي حملهـا التّعليـم عـن بُعـد للتّركيـز عليهـا والعمـل عـلى تنميتهـا.

لضبـط هـذه العمليّـة اسـتنادًا لمبـدأي السُّرعـة والدّقـة، اسـتخدمنا الفلسـفة الجديـدة في التّكنولوجيـا الحديثـة، والتـي تُسـمّى بالـذّكاء الاصطناعـي (Artificial Intelligence، وتحديـدًا في تقنيّـة تعلُّـم الآلـة (Machine Learning، لمـا لـه مـن مُميّـزات تُساعد عـلى اكتسـاب المعرفـة مـن البيانـات[١٢] واسـتخراج النّتائـج بدقـة عاليـة، مـع نسـب أخطـاء قليلـة، وذلـك كُلّـه بسُرعـة قياسـية اختصـارًا للوقـت[١٣]، وتـدارُكًا للعـام الـدّراسي المُقبـل.

إشكاليّة الدّراسة

تُعَـرَّف مُشـكلة البحـث بأنّهـا: "عبـارة عـن التّسـاؤل أو بعـض التّسـاؤلات الغامضـة التـي تـدور في ذهـن الباحـث حـول موضـوع البحـث أو الدّراسـة التـي اختارهـا، وهـي تسـاؤلات تحتـاج إلى تفسـير

(١٢) Alpaydın, Ethem ,٢٠٠٤ ,"Introduction to Machine Learning", The MIT Press, Cambridge, Massachusetts, London, England, p" ٣. Edited.

(١٣) Mahind Rupali, Patil Amit ,٢٠١٧ ,AGTI's "A Review Paper on General Concepts of "Artificial Intelligence and Machine Learning", Dr. Daulatrao Aher College Engineering, Vidyanagar Extension, Karad, p ٨٠. Edited

يسعى الباحث من خلاله إلى إيجاد إجابات شافية ووافية لها".[١٤]

المشكلة هنا أنّ كلّ الدّراسات والتّقييمات لعمليّة التّعليم عن بُعد هي عبارة عن استمارات خاصّة تُوزَّع على الكادر التّعليمي، تحتوي على العشرات من الأسئلة المُحدّدة، والتي تَحُدُّ من حُريّة الشّخص المُقيِّم، إلى جانب عدد من صفحات الويب التي تحتوي على نماذج تُشبه - إلى حدٍ ما - الاستمارات أو النّماذج الخاصة بـ (Google or Microsoft.

مع أنّ استخدام هذا النّوع من الأسئلة يهدُف إلى تسريع عمليّة الفرز وتسهيلها على الباحث، إلّا أنّه في الوقت نفسه لا يُعطي الشّخص المُجيب الحُريّة الكاملة في إبداء رأيه.

ذلك أنّ الأسئلة مُختارة مِن قِبَل الباحث أو السّائل، والأجوبة أيضًا مُحدّدة مُسبقًا، ورُبّما يكون قد أُغفل جانبٌ مُهم منها عند العديد من المُقيّمين، وبسبب ذلك يُفترض بالمُقيّم أنّه لم يُعطَ حقّه الكامل في التّعليق والإجابة، أو حتى طرح مُشكلته لمُعالجتها؛ فالجميع مُتّفق على أنّ الواقع البشري يختلف من فئةٍ لأُخرى، وهذا الاختلاف يُؤثّر على اهتمامات الأشخاص وتحديد مشاكلهم، الأمر الذي من شأنه أن يُضعِف عمليّة التّقييم، ويُسبّب الخلل في نتائجها، ورُبّما يطعُن في مصداقيّتها واعتمادها مرجعًا مُهمًّا للتّقييم.

كذلك الحال في الأجوبة، فقد يطرح سُؤالاً جيّدًا ويغفل عنه وضع أجوبة كافية، فلا يجد الشّخص المُجيب رأيه في أحد تلك الأجوبة المُحدّدة والمُغلقة.

كما أنّ عددًا لا بأس به ممّن وُزّعت عليهم الاستمارة قد لا يُجيبون، بسبب أنّ الأسئلة كانت مُحدّدة، أو الأجوبة المختارة مُغلقة، أو لكثرة الأسئلة التي قد تُصيب الشّخص بالتّعب والجُهد والملل، ولذلك فإنّ التّعبير في الإجابة دائمًا ما تستتبعُه نتائج أدق وتكون عمليّة التقييم أفضل، وذلك لأنّها تُعطي الشّخص المُجيب الحُريّة في التّعبير، ومساحةً كافيةً لإبداء رأيه في أيّ موضوعٍ قابلٍ للنّقاش.

الأعمال السابقة

بما أنّ نجاح أي بحث علمي يعتمد على الاطّلاع على الدراسات والأعمال التي أُنجِزت حول موضوعه[١٥]، فما البحث العلمي إلا امتداد لأبحاث سبقته في مجاله ولا أدلّ على ذلك من قول ابن حزمٍ رحمه الله تعالى: "وإنَّمَا ذَكَرْنَا التآليف المُسْتَحَقَّة للذِّكر، والتي تَدْخُلُ تحتَ الأقسام السبعة التي لا يُؤَلِّف عاقل عالم إلا في أحَدِها، وَهِيَ: إمَّا شيء لَم يُسبَق إليه يخترِعه، أو شيء ناقِصٌ يُتِمُّه، أو شيء مُسْتَغْلَقٌ يَشْرَحُه، أو شيء طويل يَخْتَصِره دون أن يَخُلَّ بشيء من معانيه، أو شيء يَجْمَعُه، أو شيء مُخْتَلط يُرَتِّبه، أو شيء أخطأ فيه مؤلفه يُصْلِحُه".[١٦] لكن بحسب اطلاعنا المطوّل توصلنا إلى

(١٤) المشهداني، سعد، ٢٠١٧، "مناهج البحث الإعلامي"، دار الكتاب الجامعي، دولة الإمارات العربيّة المُتّحدة – الجُمهوريّة اللُّبنانيّة، الطّبعة الأولى، ص ٣٠.

(١٥) قاسمي، صونيا، ٢٠٢٠، "الضوابط المنهجية في توظيف الدراسات السابقة في البحث الأكاديمي"، مجلة المعيار (asjp، الجزائر، مجلد: ٢٤ عدد: ٥١، ص ٨٠٨

يحياوي، إبراهيم، ٢٠٢١، "الدراسات السابقة أهميتها وكيفية توظيفها في بحوث العلوم الاجتماعية"، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، الجزائر، مج ١، العدد ١، ص ٣٢٠

(١٦) ابن حزم، ١٩٨٧، "رسالة في فضلِ الأندلس وذِكر رِجالها"، ضمنَ رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية

أنّ موضوع البحث هذا لم يتطرّق إليه أحدٌ بعد، فالكثير من الدّراسات قد تكلّمت عن التّعليم عن بُعد بحدّ ذاته، بأشكاله وأنواعه، والتّفريق بينه وبين التّعليم الحضوري..

بينما الأقل منها عددًا، كانت تُقيّمه تقييمًا لا يعتمد على الذّكاء الاصطناعي، وإنّما اقتصر الأمر بإرسال استبانات رقميّة عبر (Google Form أو Microsoft Form وغيرهما إلى المعنيين من الكادر التّعليمي، والطُّلاب، وفي بعض الأحيان للأهالي. ومع أنّ الذكاء الاصطناعي استُخدِم في مجالات عديدة، وخاصّة في الآونة الأخيرة، وعبر برامج متنوعّة، إلّا أنّه لم يُستَخدَم لاستخراج نتائج التقييم لعمليّة التّعليم عن بُعد. وسنعرض بعضًا من نماذج الاستمارات التي تَطرح على المعنيين عددًا من الأسئلة مع أجوبتها المُحدّدَة والمُغلقة.

مشروع التّعليم السّوري/ الأُردُني[١٧]:

إنّ برنامج "مشروع التّعليم السّوري/ الأُردُني" يُتابع عن كثب آثار وباء فايروس كورونا، ويُقيّم تأثيره على طُلّابه وعلى عمليّة تعلُّمهم، وذلك بعد مُضي أُسبوعين مُنذ بدء عمليّة التّعليم الإلكتروني. ولهذا السّبب وُضعت هذه الاستمارة رغبة في معرفة:

تجرُبة الطُّلاب الخاصّة في عمليّة التّعليم عن بُعد والدّراسة عبر الانترنت.

ما هي الإيجابيّات والسّلبيّات لعمليّة التّعليم عن بُعد.

ماهي احتياجات الطُّلاب للاستمرار في التّعليم عن بُعد.

ما هي المشاكل التي تواجههُم مع مُقترحاتهم لحلّها.

استبيان من وزارة التّعليم العالي الأردُنيّة والبحث العلمي[١٨]

تُجري وزارة التّعليم العالي الأُردُنيّة والبحث العلمي دراسة علميّة بهدف معرفة مدى فاعليّة التّعليم عن بُعد. وتنقسم هذه الاستمارة لقسمين:

القسم الأوّل هو عبارة عن معلومات عامّة تتمّ الإجابة عنها بوضع إشارة × داخل المُربّع.

القسم الثّاني يتضمّن فقرات الاستبانة وتتمّ الإجابة عنها ضمن تدريج خُماسي كما يلي: أُوافق بشدّة، أُوافق، مُحايد، لا أُوافق، لا أُوافق بشدّة، والمطلوب وضع إشارة × مُقابل درجة مُوافقتك على الفقرة.

مركز البحث في الاقتصاد الجزائري المُطبّق من أجل التّنمية(١٩)(CREAD)

يقوم هذا المركز بإجراء مسح لِعَيّنة من أساتذة الجامعات بهدف قياس تصوُّراتهم لفعل عمليّة

للدراسات والنشر، بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير- بيروت - لبنان - ت ١/٨٠٧٩٠٠. برقياً - موكيالي - بيروت - ص.ب: ٥٤٦/١١ بيروت، ج ٢، ص ١٨٦.

(١٧) استبانة مدى فاعلية التعلم عن بعد– AR.EDU-SYRIA.

(١٨) استبانة مدى فاعلية التعلم عن بعد.(https://edu-syria.eu/ar/google.com/٢٠٢٠/٠٤/AV%D8%AA%AA%D8%D8%B3%D8%AV%D8%/A9%D8%86%D9%/

(١٩) Covid-١٩ التعليم الجامعي في مواجهة جائحة(google.com.

التّدريس خلال أزمة جائحة كورونا (Covid-١٩، وذلك من خلال معرفة:
ما هي طبيعة الظُّروف التي يتمّ فيها تقديم الدُّروس إلى الطّلبة؟
ما مدى فعاليّة منصّات التّعليم على الخط وكذا الوسائل المُتاحة للقيام بذلك؟

نموذج رسالة ماجستير في الجامعة اللُّبنانيّة[٢٠]:

أجرى الطّالب مكرم أبي فرّاج من الجامعة اللُّبنانيّة - كُليّة التّربية - دراسة علميّة (لمشروع بحث التّخرُّج لسنة ٢٠٢١ بهدف معرفة مدى فاعليّة التّعليم عن بُعد. وقد وُزّع على أساتذة الجامعة وطُلّابها نموذجٌ للتقييم.

منهجية العمل

قسّمنا العمل في الدراسة إلى ثلاثة مباحث وهي كالتالي:
المبحث الأول: اختيار عيّنات تعلّم الآلة.
المبحث الثاني: عملية التعليم الخاضعة للإشراف.
المبحث الثالث: نتائج استخراج التقييم والأسباب.

المبحث الأول: اختيار عيّنات تعلّم الآلة

إنّ عمليّة جمع البيانات تجري بموجب أسلوبين، وهما:[٢١]
"أُسلوب الحصر الشّامل؛ لجميع عناصر المُجتمع أو أفراد، وذلك عندما يكون بحجم يمُكن دراستُه.
أسلوب العيّنة المُمثّلة لأفراد المُجتمع؛ وذلك في حالة كون المُجتمع كبيرًا نسبيًا، ولا يمُكن الإحاطة بكافّة عناصره أو أفراده."
وقد اعتمدنا أسلوب العيّنة لأنّه يتناسب مع طريقة عمل البرنامج[٢٢]، سواءً في تعليم الآلة أم في تقييم عمليّة التّعليم عن بُعد.
"يُعتبر اختيار الباحث للعيّنة من أهم الخُطوات والمراحل في البحث العلمي، ولا شك في أنّ الباحث يبدأ بالتّفكير في عيّنة البحث مُنذ البدء في تحديد مُشكلة البحث وأهدافه، وذلك لأنّ طبيعة البحث هي التي تتحكّم في نوع العيّنة والأدوات المُناسبة للقيام بالبحث."[٢٣]

(٢٠) استبيان مدى فاعلية التّعلُّم منْ بُعدٍ لعام الدراسي ٢٠٢٠-٢٠٢١- SurveyHeart.

(٢١) عليان، ربحي مصطفى وغنيم، عثمان محمد، ٢٠٠٢ م، "مناهج وأساليب البحث العلمي"، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط ١، ص ١٣٨.

(٢٢) عوض، عدنان، ٢٠٠٨ م، " مناهج البحث العلمي"، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، مصر، ص ١٣٥ - ١٣٦.

(٢٣) الغول، السّعدي، د. ت، "العيّنات وأنواعها"، د. ن، مصر، ص ٢.

تعتمد تقنيّة تعلُّم الآلة - وبشكل أساسي - على العيّنات[٢٤] (البيانات المُدخلة وحجمها[٢٥] التي تُستعمل في:

تعليم الآلة، ويُستلزم توفُّر العديد من الشُروط لهذه العيّنات كالشُموليّة، الدقّة، العدد الكافي للتّعلُّم، عدم التحيُّز... وذلك كُلّه لضمان النّتائج السّليمة ذات الدقّة العالية[٢٦].

تحليلها واستخراج البيانات منها وتقييمها آليًّا (اعتمادًا على تقنيّة تعلُّم الآلة.

وتتمثّل عيّنة بحثنا بتعليقات الطُّلاب والأساتذة وأولياء الأُمور حول موضوع التّعليم عن بُعد[٢٧]، وقد فرضت الدّراسة نوعين من العيّنة:

عيّنة لتعليم الآلة:

التّقييم الإيجابي والسّلبي.

أسباب التقييم السّلبي.

عيّنة لتحديد نوع تقييم التّعلُّم عن بُعد واستخراج أسباب التّعليقات السّلبيّة

وقد تمّ جمع بيانات التّعليم من خلال مُقابلات طُلّاب وأساتذة وأولياء أُمور، وأيضًا من خلال تصفُّح العديد من الجرائد والمقالات الإلكترونية، وقراءة تعليقات الأشخاص الذين عايشوا التّجرُبة مع التّعليم عن بُعد، سواءً كانت تعلُّمًا، تعليمًا أو مُتابعةً من أولياء الأُمور لأطفالهم.

وتمّ جمع حوالي ٥٠٠ تعليق، ومن التّعليقات السّلبيّة منها ما يُقارب الـ ٢٥٠ عيّنة للأسباب.

إضافة لذلك، وبهدف تعزيز عمليّة التّعليم، أضفنا قاموساً يحتوي على ما يزيد عن ٧٠٠٠ كلمة، منها ما هو إيجابي ومنها ما هو سلبي.

المبحث الثاني: عملية التعليم الخاضعة للإشراف

استخدمنا في عمليّة تعليم الآلة برنامج ماتلاب (MATLAB وهو "برنامج من إنتاج شركة ماتوركس (MathWorks صُمّم خصّيصًا للمُهندسين والعُلماء لتحليل وتصميم الأنظمة والمُنتجات."[٢٨]

الخُطوات المُتّبعة لإنشاء البرنامج

تمثلت الخطوة الأولى بتحضير ملفي اكسل (Excel الأوّل (ملف التّصنيف لتقييم التّعليقات وفرزها ما بين تعليق إيجابي وسلبي، والثّاني (ملف الأسباب لاستخراج أسباب التّعليقات السّلبيّة فقط.

(٢٤) Manifold Learning-based Data Sampling for" ,٢٠١٨ ,Shuqing Chen, Sabrina Dorn, Michael Lell, Marc Kachelrieß, Andreas Maier Model Training, Bildverarbeitung für die Medizin", Erlangen, p ٢٦٩

(٢٥) Effects of Training Set Size on Supervised" ,٢٠٢١ ,Christopher A. Ramezan, Timothy A. Warner, Aaron E. Maxwell, Bradley S. Price Machine-Learning Land-Cover Classification of Large-Area High-Resolution Remotely Sensed Data", Remote Sensing, Switzerland, p ١

(٢٦) The Effect of Training and Testing Process on Machine" ,٢٠٢٠ ,Muhammed Kursad Uçar, Majid Nour, Hatem Sindi, Kemal Polat Learning in Biomedical Datasets", Mathematical Problems in Engineering, Cairo, p ١

(٢٧) دشلي، كمال، ٢٠١٦ م، "منهجية البحث العلمي"، منشورات جامعة حماة، كلية الاقتصاد، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، ص ١٣٠

(٢٨) No Author, "What is MATLAB", https://www.mathworks.com/discovery/what-is-matlab.html, (Accessed on October ٣١, ٢٠٢١. Edited.

كُل ملف يحتوي على جدول مُؤلّف من عمودين:

العمـود الأوّل لـكُلٍّ منهُـما يحتـوي عـلى عيّنـة تعليقـات المعنيـين بالتّعليـم عـن بُعـد، سـواءً كانـوا كادرًا تعليميًّـا، طُلّابًـا أو أوليـاء للأُمور.

أمّـا بالنّسـبة الى العمـود الثّـاني، ففـي الملـف الأوّل (ملـف التّصنيـف فهـو عبـارة عـن تصنيـف التّعليقات مـا بـين تعليـق إيجـابي (Positive وتعليـق سـلبي (Negative. أمـا في الملـف الثـاني (ملـف الأسـباب فقـد تضمّـن الأسـباب التـي تـؤدّي إلى التّعليقـات السّـلبيّة وقـد اختصرناهـا بأربعـة أسـباب وهـي: مشـاكل تواصليـة، مشـاكل ماليـة، مشـاكل برمجيـة ومشـاكل فنيـة وتركنـا الخيـار لأي مسـتخدم _ يـرى أن السـبب لا ينـدرج تحـت هـذه الأسـباب_ أن يضيـف سـبباً آخَـر.

ومـن ثـمّ تـأتي الخطـوة الثانيـة والتـي هـي تعليـم الآلـة الملفـين المذكوريـن آنفـاً، والجديـر بالذكـر أنّ ملـف التّصنيـف يحتـوي عـلى تعليقـات وهـي عبـارة عـن نصـوص وكل نـص يحتـوي عـلى كلمـة أو أكـثر تـدلّ عـلى الإيجابيـة أو السـلبية للنـص.

Paragraph = word * + Keywords + word *.

Paragraph: النص

word * = عدم وجود كلمة أو وجود كلمة أو أكثر

Keywords = الكلـمات المفتاحيـة التـي تـدل عـلى إيجابيـة النـص أو سـلبيته ويمكـن أن تكـون كلمـة أو أكثر

وبهـدف تحسـين دقّـة نتائـج البرنامـج، قمنـا بإنشـاء خوارزميّـة تعمـل عـلى عكـس الصّيغـة للمعنـى، مثـال ذلـك:

عندمـا يكتُـب المُسـتخدم في خانـة التّعليقـات: "Online learning is good."، بنـاءً عـلى مـا تعلّمـه البرنامـج، سـيُصنّف هـذا التّعليـق كتعليـق إيجـابي، خُصوصًـا لأنّـه يعتمـد عـلى معنـى الكلـمات التـي تؤلّـف الجُملـة، وكلمـة (Good هـي كلمـة إيجابيّـة، لذلـك قـام بتصنيـف هـذا التّعليـق كتعليـق إيجـابي.

وتعمـل الخوارزميّـة عـلى استكشـاف الكلـمات التـي تعكـس المعنـى، لأنّ عمليّـة تعلُّـم الآلـة، لا تكفـي البرنامـج لفهـم الكلـمات التـي تُغـيّر المعنـى كُليًّـا، وهـذا مـا سـيجعلُه يُخطـئ في تقييـم بعـض التّعليقـات.

لهـذا السّـبب قمنـا بكتابـة خوارزميّـة هدفُهـا قلـب المعنـى الإيجـابي لسـلبي – والعكـس صحيـح – عنـد رؤيـة هـذه الكلـمات.

أمـا بالنسـبة للتقييـم الآلي فإننـا اعتمدنـا عـلى إفسـاح المجـال للمسـتخدم لتصحيـح النتيجـة إن كانـت خاطئـة، وتصحيـح السـبب أيضـاً إن كان خاطئـاً. وبعـد موافقـة المسـتخدم تتـم عمليّـة التّعليـم التـي سـبق ذكرُهـا – تلقائيًّـا – مـن جديـد مـع التّعليقـات الجديـدة، وذلـك لـكي يتمكّـن البرنامـج مـن الوُصـول إلى دقّـة نتائـج أفضـل.

وتعتمـد عمليّـة التّعليـم عـلى تخزيـن البرنامـج للكلـمات المُتكـرّرة في النُّصـوص والتـي تـدُل عـلى إيجابيّـة النّـص أو عـلى سـلبيّته.

وكُل نـص جديـد سـيُعرَض عليـه سـيعمل البرنامـج عـلى اكتشـاف الكلـمات التـي تـدُل عـلى التّعابـير الإيجابيّـة أو السّـلبيّة التـي تعلّمهـا وخزّنهـا سـابقًا ليسـتخرج نتيجـة التّقييـم.

وتتلخّص عمليّة التّقييم للجُملة الجديدة بالمُعادلتين التّاليتين:

Paragraph = word (* + Keyword(s + word*.

R = E(Paragraph.

E : تقييم الجُملة

R: نتيجة التّقييم

والصورة التالية توضح طريقة التقييم في البرنامج:

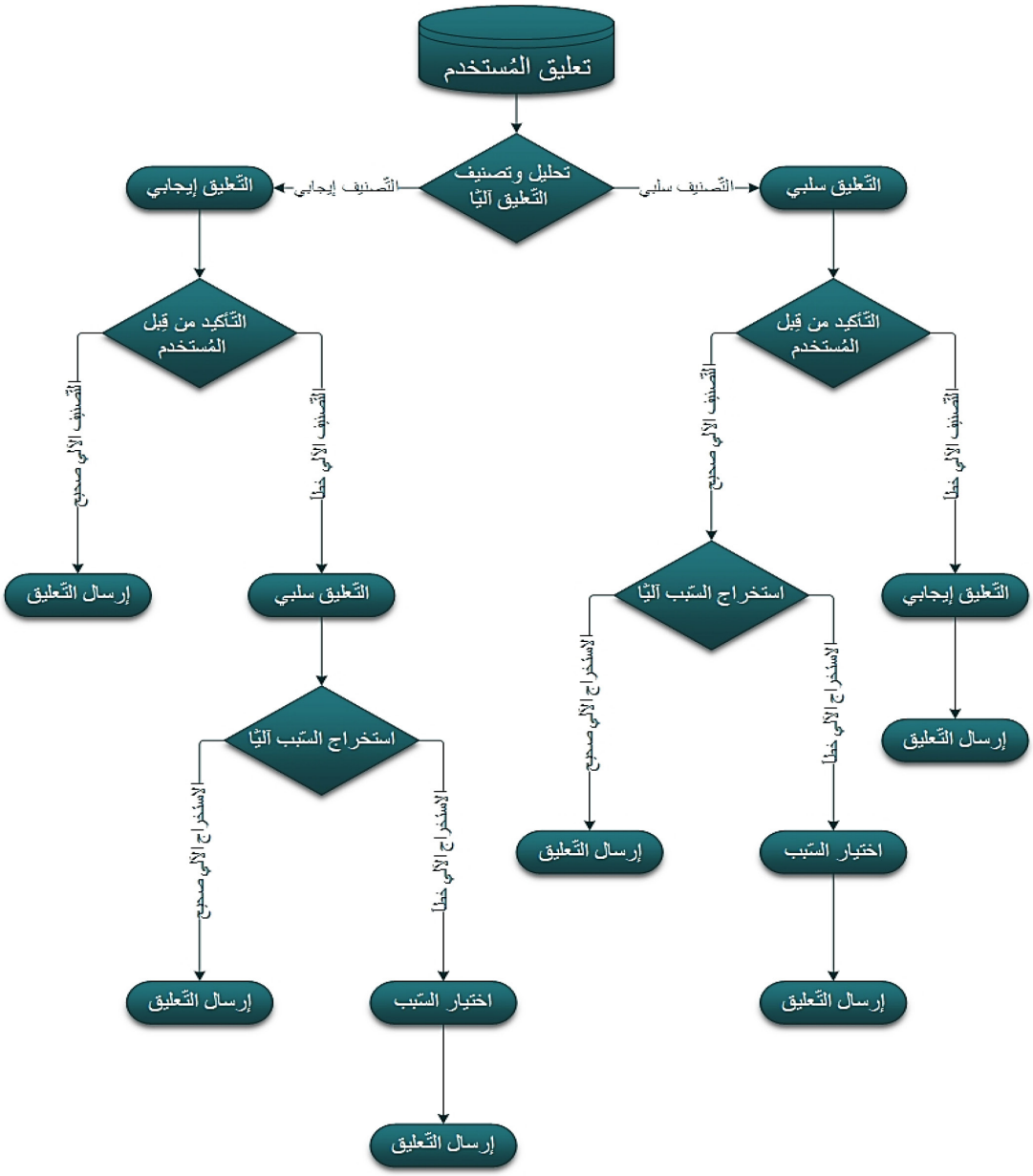

المبحث الثّالث: نتائج استخراج التّقييم والأسباب

تُعـدّ هـذه النُّقطـة واحـدة مـن أهـم نقـاط البحـث، فـكُل مـا تـمّ ذكـرُه ومُناقشـتُه وبرمجتُـه وتحليلُـه ينصـبّ في مجـرىً واحـد، والـذي يُعتـبر الهـدف الأسـمى للبحـث، ألا وهـو النّتائـج.

فبهذه العمليّة سنتعرّف الى نتائج عملنا، وثمار جُهدنا، والتّأكُّد من تحقيق هدفنا[٢٩].

وكـما ذُكـر آنفًـا، فـإنّ عمليّـة تعلُّـم الآلـة اعتُمـدت لجعـل البرنامـج يتعـرّف الى نوعـين مـن النّتائـج، وهُـما:

تقييم التّعليقات وفرزها ما بين تعليق إيجابي أو سلبي.

التعرُّف الى الأسباب التي دفعت أصحاب التّعليقات السّلبية لكتابتها.

نتائج التّقييم

أدخلنـا ١٠٠ تعليـق جديـد إلى البرنامـج، ثُـمّ أجرينـا عمليّـة إشراف عـلى نتيجـة التّقييم الآلي المُسـتخرجة مـن البرنامـج لتحديـد نسـبة النّتائـج الصّحيحـة، فكانـت النتيجـة كالتالي:

نتيجة استنتاج التقييم

(Precision)	(Recall)	(F-Score)
%95	%100	%97.4

نتيجة استنتاج الأسباب

(Precision)	(Recall)	(F-Score)
%78	%100	%87.6

نلاحـظ مـن الجدولـين أنّ نتائـج البرنامـج كانـت جيّـدة إلى جيّـدة جـدًا، ولم تقتـصر إيجابيّـات البرنامـج عـلى الدّقـة في النّتائـج فحسـب، وإنّمـا اسـتطاع اسـتخراج جميـع النّتائـج بحمـد اللـه.

(٢٩) شرارة، مشـتاق عبـد الرضـا مـاشي، ٢٠١٦، "البحـث العلمـي، مفاهيـم وتطبيقـات في الرتبيـة البدنيـة وعلـوم الرياضـة"، وزارة التعليـم العـالي والبحـث العلمـي، جامعـة القادسـية، كليـة الرتبيـة البدنيـة وعلـوم الرياضـة، صفـر واحـد للطباعـة والإعـلان، بغـداد، ط ١، ص ١٩٦.

خُلاصة العمل

إن دلّت النّتيجة على شيء، فهي تدُلّ على أنّ البرنامج قد نجح في تحقيق الهدف الذي عُمل لأجله، ويتمثّل هذا الهدف بإعطاء المُستخدم حُريّة التّعبير، دون تقييده بأسئلة مُحدّدة قد تُؤثّر على النّتائج، كما هو الحال في برامج التّقييم المُنتشرة التي تحدّثنا عنها في بداية البحث، مثل (Google Form, Microsoft Form...؛ والمُميز في هذا العمل - إلى جانب قلّة الأخطاء والحُريّة للمُستخدم في التّعبير - هُو خضوعُه للإشراف، بمعنى أنّ المُستخدم يستطيع تغيير التّقييم والسّبب - إن كان الاستخراج الآلي خطأً - قبل إرسال تعليقه، ممّا يزيد من دقة النّتائج.

النّتائج والتّوصيات

إنّ إتمام البحث العلمي يعتمد على النّتائج والتّوصيات[٣٠].

النّتائج:

توصّلت الدّراسة إلى النّتائج التّالية:

نجاح استخدام تقنيّة تعلُّم الآلة، ويتجلّى ذلك من خلال فهم النُّصوص المكتوبة باللُّغة الطّبيعيّة، والقُدرة على:

تقييم تعليقات المعنيين بعمليّة التّعليم عن بُعد.

التّعرُّف على أسباب التّعليقات السّلبيّة.

توفير الجُهد والوقت لاستخراج نتائج الاستبيان.

القُدرة على الاستغناء إلى حدٍ ما عن نماذج الاستبيانات في بعض المجالات، وإعطاء حُرية التّعبير للشّخص المعني.

التّوصيات:

استخدام هذا البرنامج في مُختلف الاستبيانات لتقييمها.

السّعي لاستخدام التّكنولوجيا في إدارة الأزمات (أسبابُها ونتائجُها.

استخدام تقنيّة تعلُّم الآلة لفهم النُّصوص واستخراج المعرفة منها.

تجميع عدد أكبر من عيّنات الأسباب بهدف زيادة نسبة دّقة البرنامج في التّعرُّف على الأسباب.

اعتماد تدريس تكنولوجيا الذّكاء الاصطناعي في المناهج الدّراسية.

(٣٠) دشلي، كمال، ٢٠١٦ م، "منهجية البحث العلمي"، منشورات جامعة حماة، كلية الاقتصاد، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، ص ٦٢

المراجع العربية

كُتُب عربيّة

١- ابـن حـزم، ١٩٨٧ م، رسـالة في فضـلِ الأندلـس وذِكـر رِجالهـا، ضمـنَ "رسـائل ابـن حـزم الأندلـسي"، تحقيـق: إحسـان عبـاس، المؤسسـة العربيـة للدراسـات والنشر، بـيروت، ط ٢.

٢- دشـلي، كـمال، ٢٠١٦ م، "منهجيـة البحـث العلمـي"، منشـورات جامعـة حـماة، كليـة الاقتصـاد، مديريـة الكتـب والمطبوعـات الجامعيـة

٣- شرارة، مشـتاق عبـد الرضـا مـاشي، ٢٠١٦، "البحـث العلمـي، مفاهيـم وتطبيقـات في التربيـة البدنيـة وعلـوم الرياضـة"، وزارة التعليـم العـالي والبحـث العلمـي، جامعـة القادسـية، كليـة التربيـة البدنيـة وعلـوم الرياضـة، صفـر واحـد للطباعـة والإعـلان، بغـداد، ط ١

٤- عليـان، ربحـي مصطفـى وغنيـم، عثـمان محمـد، ٢٠٠٢ م، "مناهـج وأسـاليب البحـث العلمـي"، دار الصفـاء للنـشر والتوزيـع، عـمان، ط ١

٥- عوض، عدنان، ٢٠٠٨ م، "مناهج البحث العلمي"، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، مصر

٦- الغول، السّعدي، د. ت، "العيّنات وأنواعها"، د. ن، مصر.

٧- قاسـمي، صونيـا، ٢٠٢٠، "الضوابـط المنهجيـة في توظيـف الدراسـات السـابقة في البحـث الأكاديمـي"، مجلـة المعيـار (asjp، الجزائـر.

٨- المشـهداني، سـعد، ٢٠١٧، "مناهـج البحـث الإعلامـي"، دار الكتـاب الجامعـي، دولـة الإمـارات العربيّـة المُتّحـدة – الجُمهوريّـة اللُّبنانيّـة، الطّبعـة الأولى.

٩- يحيـاوي، إبراهيـم، ٢٠٢١، "الدراسـات السـابقة أهميتهـا وكيفيـة توظيفهـا في بحـوث العلـوم الاجتماعيـة"، مجلـة علـوم الإنسـان والمجتمـع، كليـة العلـوم إلانسـانية والاجتماعيـة، جامعـة بسـكرة، الجزائـر، مـج ١، العـدد ١، ٣١٩ – ٣٤١.

كُتُب أجنبيّة

10- Alpaydın, Ethem, 2004, “Introduction to Machine Learning”, The MIT Press, Cambridge, Massachusetts,

London, England.

11- Christopher A. Ramezan, Timothy A. Warner, Aaron E. Maxwell, Bradley S. Price, 2021, "Effects of Training Set Size on Supervised Machine-Learning Land-Cover Classification of Large-Area High-Resolution", Remotely Sensed Data, p1 – 27

12- Mahind Rupali, Patil Amit, 2017, A Review Paper on General Concepts of "Artificial Intelligence and Machine Learning", AGTI's Dr. Daulatrao Aher College Engineering, Vidyanagar Extension, Karad

13- Muhammed Kursad Uçar, Majid Nour, Hatem Sindi, Kemal Polat, 2020, "The Effect of Training and Testing Process on Machine Learning in Biomedical Datasets", Mathematical Problems in Engineering, Cairo, 17 pages

14- Shuqing Chen, Sabrina Dorn, Michael Lell, Marc Kachelrieß, Andreas Maier, 2018, "Manifold Learning-based Data Sampling for Model Training", Bildverarbeitung für die Medizin, Erlangen, p 269 – 274

مواقع إلكترونيّة عربيّة

15- نموذج استبيان حول فاعلية استخدام التّعليم الإلكتروني – عن بُعد – في الجامعات اللُّبنانيّة.

16- استبيان حول فاعلية استخدام التعليم الالكتروني-عن بعد- في الجامعات اللبنانية (google.com.

17- استبانة مدى فاعليّة التّعليم عن بُعد - مشروع التّعليم السّوري/ الأُردُني.

18- استبانة مدى فاعلية التعلم عن بعد – AR.EDU-SYRIA.

19- استبانة مدى فاعليّة التّعليم عن بُعد - وزارة التّعليم العالي الأردُنيّة والبحث العلمي.

20- إستبانة مدى فاعلية التعلم عن بعد (google.comhttps://edu-syria.eu/ar/202004//%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%A8%D8%A7%D986%%D8%A9/

21- استبانة مدى فاعليّة التّعليم عن بُعد – مركز البحث في الاقتصاد الجزائري المُطبّق من أجل التّنمية (CREAD.

22- Covid-19 التعليم الجامعي في مواجهة جائحة (google.com.

23- استبانة مدى فاعليّة التّعليم عن بُعد – رسالة ماجستير في الجامعة اللُّبنانيّة - كُليّة التّربية - الطّالب مكرم أبي فرّاج.

24- استبيان مدى فاعلية التّعلُّمِ منْ بُعدٍ لعام الدراسي ٢٠٢٠-٢٠٢١- SurveyHeart.

25- https://blogs.worldbank.org/ar/education/educational-challenges-and-opportunities-covid-19-pandemic

26- https://blogs.worldbank.org/ar/education/managing-impact-covid-19-education-systems-around-world-how-countries-are-preparing

27- https://blogs.worldbank.org/ar/voices/covid-19-challenges-and-response-view-latin-america-and-caribbean

28- https://www.scientificamerican.com/arabic/articles/news/distance-learning-versus-covid19/

مقالات إلكترونيّة أجنبيّة

29- No Author, "What is MATLAB", https://www.mathworks.com/discovery/what-is-matlab.html,

الجمعيّة اللبنانيّة للعلوم والأبحاث
Lebanese Association for Science and Research